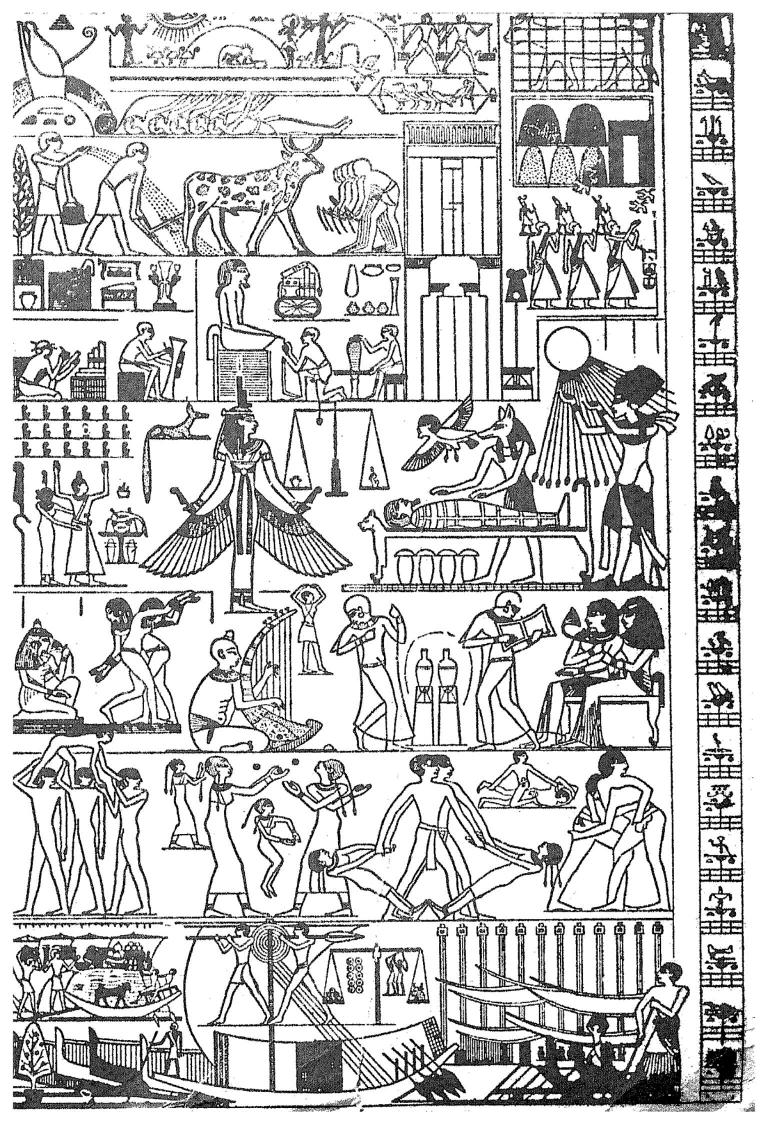
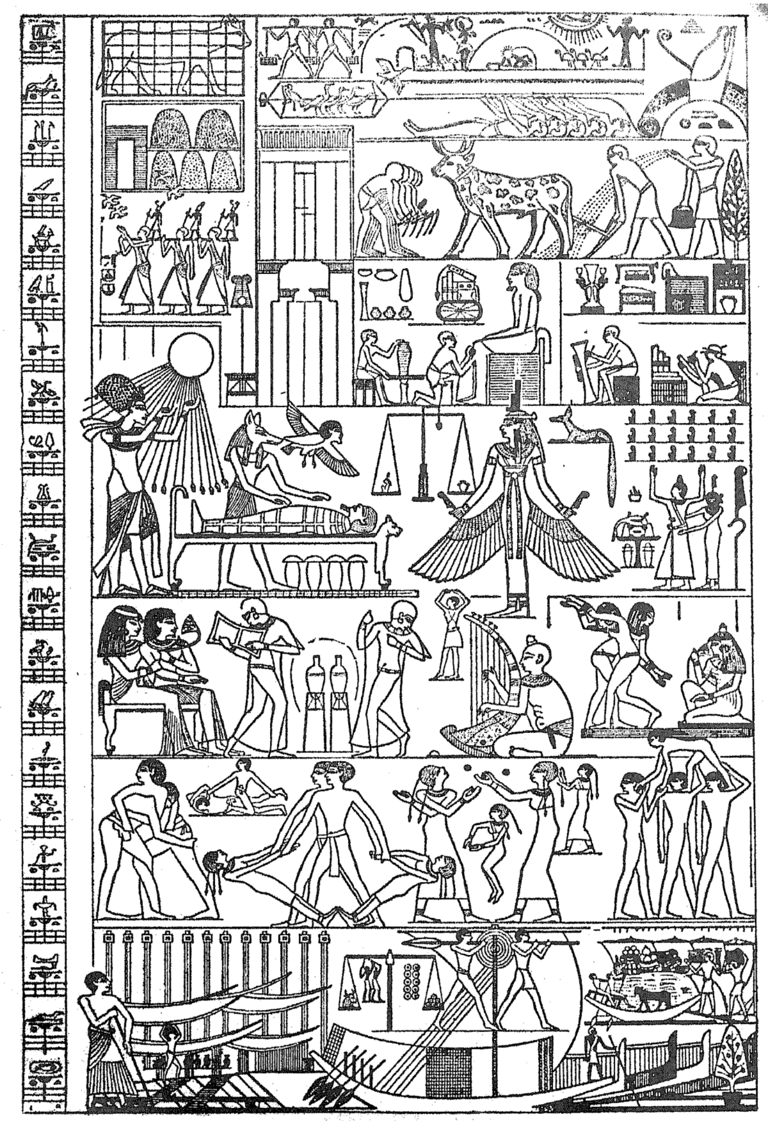
مصر ورسالتها

تأليف : الدكتور حسين مؤنس





مصر ورسالتها

دراسة فى خصائص مصر
ومقومات تاريخها الحضارى ورسالتها فى الوجود

بقلم
الدكتور حسين مؤنس
الأستاذ بجامعة القاهرة
وعضو مجمع اللغة العربية

الطبعة السادسة
منقحة ومزيده



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٩

فى هذا الكتاب

- مصر أم الدنيا
- الأبعاد الثلاثة لتاريخ مصر
- مصر وأفريقية
- مصر والبحر الأبيض
- مصر والشـــرق
- رسالة مصر .. نور وســـلام

هذه الطبعة السادسة

عندما نشرت هذا الكتاب أول مرة سنة ١٩٥٥ ، كنت أتوقع أن يلقى من القراء هذا الاقبال الذى لقيه • فموضوعه هام وأساسى ، وجمهور أهل العلم فى مصر وسائر العالم العربى ، فى حاجة الى أن يعرفوا حقيقة مصر ومكونات شخصيتها ، والدور الذى قامت به فى التاريخ قبل الاسلام وبعده ، والعمل الذى يمكن أن تقوم به فى المستقبل •

ولم يكن احد قد طرق هذا الموضوع من قبل ، لأنه ـ رغم مايبدو من يسره ووضوحه ـ عسير كل العسر ، فهو يتطلب الاحاطة الشاملة بتاريخ هذا البلد الكريم وتطوره الحضارى فى كل عصوره ، والاحاطة كذلك بسير الأحداث وتطور الحضارة خارجه ، ليتعرف الانسان مدى تأثير مصر فى تاريخ العالم وحضارته ، ومدى تأثرها هى أيضا بتيار الحوادث وسير الحضارة خارجها ، وبدون هذه الاحاطة لا يتأتى قط معرفة رسالة مصر فى هذا الوجود •

وقد يسر الله هذا الأمر العسير ، وخرج الكتاب فى طبعته الأولى موفيا على الحاجة من تأليفه قدر الطاقة ، ولقيت تلك الطبعة الأولى قبولا أحمد الله عليه ، وكتب نقاد متصفون وأساتذة أجلاء عن الكتاب فأثنوا عليه أو وجهوا اليه ما وسعه علمهم من وجوه النقد • وقد أفدت من ذلك كل الفائدة ، فعدت الى الكتاب أعدله وانقحه واضيف اليه ، وأستبعد منه ما لا يجعله أو فى بالغرض المطلوب •

وقبل الطبعة الرابعة عدت الى الكتاب مرة أخرى ، فراجعته مراجعة كاملة ، وأعدت صياغة معظم فصوله ، على ضوء ما تبين لى من الاطلاع المستمر على المراجع الخاصة بتاريخ مصر والعالم العربى والاسلامى بصورة خاصة • واخرجت للناس الطبعة الرابعة ، أقرب الى الهدف المنشود من طبعات الكتاب الثلاث السابقة • وقد نفدت تلك الطبعة فى وقت قصير ، وأصبح لزاما علينا أن نقدم للناس طبعة خامسة • وظهرت تلك الطبعة سنة ١٩٧٦ ونفدت •

وعندما تفضـــلت الهيئة المصرية العامة للكتاب بتبنى هذه الطبعة السادسة وقبول الكتاب فى سلسلة مطبوعاتها القيمة ، عدت الى الكتاب خلال صيف ١٩٨٥ فراجعته من جديد ، وأدخلت مابدا لى ادخاله من التعديلات معتمدا فى ذلك على تصورات جديدة لمصر ومكانتها فى التاريخ ، وما يستطيع شعبها المجيد من عمل عظيم اذا تيسرت له الظروف . وقد ظهرت الجانب الأكبر من هذه التصـــورات فى مؤلفات معظمها أوربية وأمريكية وأقلها عربية ، صدرت كلها بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة ، وما تجلى فيها من مواهب هذا الشعب وملكاته الكامنة فى نفسه ، وقدرته على تغيير مجرى التاريخ فى منطقته ، وفى العالم كله الى حد بعيد ..

والحمد لله فى البداية والنهاية ومنه نستلهم الهداية ونسأله الرضا والتوفيق ..

د. حسين مؤنس

مدخــل

مصر أم الدنيــا

فى البدء كانت مصر ٠٠ قبل الزمان ولدت ، وقبل التاريخ ، هنا بدأ كل شىء : الزراعة ، والعمارة ، والكتابة ، والورق ، والهندسة ، والقانون والنظام ، والحكومة ٠٠

وهنا ، وقبل كل شىء ولد الضمير ٠ هكذا قال جيمس هنرى بريستد فى كتاب جليل عن مصر عنوانه : فجر الضمير The Dawn of History والضمير هو ذلك الوازع الداخلى فى كيان الانسان الذى ينبهه الى الخير ويحذره من الخطأ ويحاسبه على ما يتعارف من أخطاء حسابا داخليا صامتا ولكنه ألم للانسان من كل عقاب ٠ وعلى أساس الضمير ظهرت الديانة المصرية القديمة ٠٠ وكان المصرى القديم أول من تنبه بالفطرة الى حقيقة البعث والحساب ٠

من حيوان يجرى فى الأحراش لينجو من خطـــر ، أو ليفترس ، أو ليأكل ، أو ليبحث عن أنثى ٠٠ تحول الى انسان يفكر ، ويتأمل ، ويرسم ، ويكتب ، ويحاسب نفسه ٠

مع حساب النفس نشأت الآلهة لتقوم بالحساب وتنصب الميزان ٠٠ خارج دنيا الأرض نشأت دنيا السـماء ، وقام الدين والأخلاق ، والخير والشـــر ٠

الملائكة والشـــياطين ولدوا جميعا هنا ، ومن عندنا خرجوا الى الدنيا ٠

وفى قلب المصرى القديم ، وفى بيته وفى مدينته وحقله ، فى أرضـــه وسمائه وجدت « معات » ، رمز الضمير والاحساس الانسانى والقانون الأخلاقى ٠ « معات » هى ما نسميه اليوم بالمروءة ، المروءة بمعنى الانسانية والحب والخير والعدالة والفضيلة ٠ هذه كلها اكتشفها المصرى القديم ، وهو يعمل فى حقله وينظر الى السماء الزرقاء ، ويســتعطف الشـمس الحامية ، ويعانق النبات الأخضر الطالع ٠

عندما اكتشفها المصرى القديم وصل الى أعظم كشـــف فى تاريخ الفكر البشـــرى ، اكتشـــف انه انســـان ، وأن هناك فرقا بينه وبين الحيوان : لا تنازع على البقاء وانما تعاون للبقـــاء ، لا قتل ولا ظلم ولا عدوان ، بل حب وتعاون واخاء ٠٠ هذا سر من الأســـرار الكبرى لحضارة مصر القديمة التى حيرت البشر ٠

قرون تجرى فى أثر قرون ، عوالم تولد ثم تموت ، ومصر هنا فى مكانها ، تبنى وتنشىء وتعمر وتكتب وترسم وتنشد وتصـــلى ، وتتألق وتتوهج ، وتخبو ، ثم تتألق وتتوهج ٠

حكاية جميلة من ألف فصل مضت ، وألف فصل تأتى باذن الله ٠٠

***

هنا بدأ كل شىء ، وهنا عاش كل البشر ٠ هنا عاش رسل وأنبياء وحواريون ٠ لم يذكر الله سبحانه فى كتابه العزيز بلدا باسمه الا مصر ٠٠ هنا خرج الانســـان من الحيوان وبدأ رحلته عبر القرون نحو الخـــير والسعادة ٠ من هنا بدأ العلم والفن والفكر ، ومن هنا يمكنك أن تقول : صعد الانسان الى القمر وسار عليه بقدميه ٠

وكما كانت مصر فى كل زمان ،فهى أيضا كائنة فى كل مكان ٠ فى فرنسا يقولون ان مصر تبدأ من ميدان الكونكورد ، حيث مسلتنا العظمى على مسافة قريبة من ميدان « الوفاق » ٠ هنا يقوم متحف اللوفر ، والقسم المصرى فيه جزء من تاريخنا وتاريخ فرنســـا معا ، اشـترك فى كتابته فرنسيون ومصريون ، أو متمصرون اذا شئت ٠

كان جان فرانسوا شامبوليون يقول : أنا شامبوليون المصـــرى ٠ عندما عاد من مصر وزار قريته المسماة فيدجاك قال : هذا « كفر » فيدجاك ٠٠ جاء الى بلادنا غلاما فى الثامنة عشرة من عمره يلتمس المجد : وخرج منها وفى احدى يديه مفتاح الهيروغليفية ، وفى الأخرى مفتاح الحياة ، وأصبح ـ وهو فى الثلاثين من عمره ـ أستاذا فى الكوليج د فرانس ٠

بهذين المفتاحين أضاف الى تاريخ البشر خمسة آلاف سنة ، وعثر على مفاتيح أخرى لألوف السنين ٠٠ هذا العبقرى الذى فتح ذلك الفتح العظيم ومات فى الثانية والأربعين من عمره ، كان محموما بمصر ٠ عندما وصل الى أبى سمبل وجد المعبد مطمورا فى الرمال الى أوساط التماثيل ، تسلق ونفذ الى داخل المعبد غير عابىء بالحيات التى كان الناس يرونها رأى العين ٠ لم تجرؤ الحيات على أن تمسه ، كان ايمانه كعصا موسى : يبطل معها كل سحر ٠

بعد شامبليون ، عشرات من العباقرة مدوا حدود مصر الى عواصم أوربا ، حتى وصلت أدنبرة ولنينجراد وبرلين ٠

حدود مصر فى الغرب كانت حينا فى برقة ، وحينا عند الاسكندرية ، ولكن كشوف الأثريين خلال السنوات الأخيرة مدت حدود مصر الى قلب الجزائر ٠ هناك وعلى صخور الصحراء حتى منطقة الهقار ـ التى تسمى « آهاجار » ـ اكتشفوا طلائع الفن المصـــرى القديم ٠٠ هناك عاش أحد العناصر البشرية التى كونت شعب مصر ، أولئك الذين كان المصـــريون القدماء يسمونهم « التحنو » ويسميهم العلماء « أهل الريش » ـ أبو الريش اذا شئت ٠٠ من هنا أتوا يحملون ريشهم وفنهم ويســـوقون قطعانهم ، ليستقروا آخر الأمر على ضفاف الوادى ويصبحوا مصريين ، اقرأ عنهم عند سليمان حزين وجمال حمدان و أحمد فخرى ، وعبد المنعم أبى بكر ، وابراهيم رزقانة ، وغيرهم كثيرين ٠٠

ومع كل فلدينا حدود غربية لحضارة مصر هى أبعد من هذا، هناك على ساحل الأطلسى فى جمهورية موريتانيا الحالية يوجد اقليم شنقيط ٠ شنقيط هذه كأنها جزء بعيد من مصر ٠ على طول العصور الوسطى كان الشناقطة يأتون من هناك ليتعلموا ويعودوا ، الكثيرون منهم أقاموا عندنا، ورواق الشناقطة فى الأزهر مشهور ٠٠

وفى الأندلس ـ أسبانيا والبرتغال اليوم ـ كانت باجة (فى البرتغال) تسمى مصر ، ومرسية (فى أسبانيا) كانت أيضا تسمى مصر ، لأن العرب الذين سكنوهما كانوا مصريين ٠

وفى الجنوب، أين تبدأ مصر ـ حضاريا أقصد ؟ لقد قال هارولد ماكمايكل الدبلوماسى البحاثة البريطانى : « فى رحلتى الأولى مع النيل جنوبا ، ما وجدت بناء حجريا ـ من الخرطوم الى اكواتوريا (المديرية الاستوائية) ـ الا وهو من بناء المصريين ٠ كل المدارس والمساجد ونقط البوليس وثكنات الجند ومراكز المواصـــلات ومحطـــات الرى ، بناها المصريون » ٠

مصر هذه كبيرة صغيرة ٠٠ الذى تراه منها على ضفاف النيل هو عاصمتها ٠ ٠عاصمة تبدأ عند الاسكندرية وتنتهى عند الشلال ٠٠ وبقية الدنيا هى البلد !

المصريون يقولون : مصر أم الدنيا ٠ حقيقة كبرى يقولونها دون أن يدركوا مغزاها ٠ نعم أم الدنيا ، بل هى الدنيا ٠٠ ولو عرف كل مصرى قدر مصر لما كفاه أن يعمل لها بيديه وأسنانه وعقله عشرين ســـاعة فى اليوم ٠٠ بهذا فقط يكون المصرى جديرا بمصر ٠٠

* * *

مصر ، ما هى !

أحيانا ــ وأنا أعيش فيها ، وأفكر ــ أحس أنها عود قطن أو ورقة فى شجرة جميز ·· شىء أخضر على أى حال ·· أحيانا أخرى ــ وأنا بعيد عنها ــ أحس ــ أنها كل الدنيا ··

عندما خرج أفلاطون من مصر ووصل الى كريت رآه الناس يتحسس رأسه ، فسألوه فقال : أريد أن أتأكد أن دماغى مازال فى مكانه ·· كاد يضيع منى هناك ·· هذا بلد تجار يشترون منك أى شىء !

وعندما وصل الاسكندر الى الدلتا قال : أى جنة هذه !

وعندما وضع نابليون قدمه على شاطىء مصر قال : أى نار هذه

وعندما وصل اليها عمرو بن‌العاص قال : هذه شجرة خضراء ··

وعندما جاء ابن خلدون الى القاهرة قال : رأيت مجمع الدنيا ومحشر الأمم··

ويوليوس قيصر ــ عندما أجهده المصريون فى حربهم وحاصروه فى الاسكندرية ــ قال : لن أبقى فى هذا الجحيم لحظة أكثر مما ينبغى ··

أما صلاح الدين فقد قال شيئا معناه : هذا بلد لا يخرج منه الا مجنون ··

أقوال وآراء شتى تخرج منها بأن مصر هى كل شىء وأى شىء تريد ، بحسب مزاجك وملكاتك واتساع قلبك وعمق شعورك ونظرتك الى الحياة ··

كثيرون جدا من الذين زاروا مصر على طول العصور فهموها وأحبوها واستقروا فيها واندرجوا فى غمار أهلها وأصبحوا شيئا من كيانها ·· ولكن أبا نواس ــ على عبقريته ــ لم ير فى مصر الا النيل ولم ير فى النيل الا التماسيح ·· والمتنبى ــ وهو شاعر أضخم من أبى نواس ــ لم ير فى مصر شيئا أصلا ! لأن المتنبى كان يسير فى الدنيا وعيناه تنظران فى داخل نفسه ·· هذه الدنيا لم ير منها شيئا ، ولكنه رأى المتنبى جيدا ·

ومصر عاشت تاريخها كله على القلائل الذين فهموها جيدا وأحبوها فى عمق ، سواء أكانوا عباقرة أم ناسا بسطاء · لقد قال نابليون : لو أتيح لى أن أعيش فى هذا البلد وأحكمه ، لما تركت قطرة من ماء النيل تذهب الى البحر · هذا مانفذه جمال عبد الناصر ، وهذا هو السد العالى ·· حقا ان العقول الكبيرة تتلاقى ، وكذلك القلوب ذات العمق · فى الفرنسية

يقولون : الأرواح الطيبة تتلاقى · ومصر هذه انما هى ثمرة جهد عقول كبيرة وقلوب ذات عمق وأرواح طيبة تتلاقى وتعمل معـــا ، وربما دون قصـــد ··

فى أيام الخليفة الحاكم ـ وكان دون شك رجلا غير سليم العقل ـ أتى من العراق عبقرى رياضى هو الحسن بن الهيثم ، وفى حقيبته مشروع لتنظيم مياه النيل : أين الحسن بن الهيثم وأين مياه النيل ؟ ولكنه كان عقلا كبيرا ، والنيل قلب كبير · لم ينجح الحسن بن الهيثم فيما أراد ، وادخلوه السجن · كان سجنه غرفه مظلمة ، فى بابها ثقب صغير · فى ظلام المحبس رأى صورة الخارج تمر من الثقب ، وتنعكس على الجدار · هذه هى « الغرفة المظلمة » ·· الكاميرا أو بسكيورا ، هذه هى الكاميرا أو الفوتوغرافية · اكتشفها عقل كبير فى سجن على ضفاف النيل ·· بعد أن خرج من السجن لقى على بن يونس · كان أيضا عقلا كبيرا ، ولكنه كان مجنونا ولاشك ·· كان يرصد النجوم على قمة المقطم ، وكان يعشق كوكب الزهرة (فينوس) · كان يلبس رداء طويلا أحمر ، ويضع على رأسه طرطورا طويلا أحمر ، لكى يستلفت نظر محبوبته السماوية ، ولكنه كان فلكيا عظيما ، كان مجنونا وعقلا كبيرا فى آن واحد ·· واحدا من العقول الكبيرة التى صنعت تاريخ مصر ·

فى تاريخ مصر عقول كبيرة كثيرة ، ولكن الكثير منها لم يكن كبيرا قبل أن يدخل مصر · مصر هى التى أعطتها حجمها ·

الاسكندر دخل مصر قائدا صغيرا ، وخرج منها الها معبودا ·· وعمرو بن العاص دخل مصر قائدا عاديا ، وخرج منها من بناة الدول ·· وصلاح الدين ، ماذا كان قبل أن يدخل مصر ؟ قلها ولاتخف ·· مجرد ضابط صغير · ·مصر جعلت منه صانعا من صناع التاريخ ·· ونابليون دخلها مغامرا ، وخرج منها وقدمه على عتبة سيادة الدنيا ·

مصر صنعت لهم جميعا أكثر مما صنعوا لها ··

هؤلاء الذين أتوا من الخارج لم يصنعوا تاريخ مصر كما يقال ، بل مصر صنعت تاريخها وصنعتهم هم أيضا · كانوا يقولون ان مصر هبة النيل ، ولكن شفيق غربال صحح العبارة وقال : ان مصر هبة أبناء مصـــر ··

ماذا صنع أحمد بن طولون ـ مثلا ـ لمصر ؟

ماذا كان يستطيع محمد بن طغج الأخشيد أن يصنع لها ؟

وبيبرس ، وقلاوون ، وبقية السلسلة ؟ صنعتهم مصر فيما صنعت · ان تاريخنا لم يكتب بعد ، عندما يكتب ستتلاشى أسماء كثيرة ، ستسقط

كما تسقط أوراق شجرة عجوز بعد عاصـــفة خريف ·· انما العقول الكبيرة التى صنعت تاريخ مصر هى عقول أبنائها الذين نشأوا من ترابها ، أولئك الذين يخرجون من بطون الريف وفى قلوبهم فحولة الفراعنة وحزم شيخ البلد ورقة نفرتيتى · أولئك الذين يصنعون تاريخ مصر على مهل وفى صمت ·

والاغريق ـ الذين يزعم المؤرخـون أنهم من كبريات الشـــعوب التى صـــنعت التاريخ ، والذين يفخر الأوربيون بأنهم آباؤهم الروحيون ـ هؤلاء الاغريق أنفسهم كانوا يعترفون بأنهم تعلموا أصول الحضارة من مصر ·

هنا تعلموا الفن والفكر والجمال والدولة والنظام · بعضهم اعترف بفضل مصر وبعضهم أبغضها بغض الانسان لما هو أحسن منه ، وهيرودوت يمدح مصر أحيانا ، ويهجوها أحيانا أخـــرى ، وهجوه اياها أدل على اعترافه بفضلها من مديحه ·

* * *

القلوب الطيبة التى تضفى طابع الانسانية الغالب على تاريخ بلادنا كثيرة ، أقدمها من الناحية التاريخية ذلك الموظف المصرى الكبير الذى عاش سنوات الفوضى والقلاقل التى أعقبت الأسرة السادسة قبل الميلاد بخمسة وعشرين قرنا · فى صفحات بردية حافلة بالعمق الانسانى ، بكى هذا الرجل الطيب مصير بلاده التى افترستها الفوضى ، هذا الرجل الطيب رثى بلاده رثاء يدل على احساس قوى عظيم ·

هذه أول وثيقة فى التاريخ نشعر فيها بما يسمى « حب الوطن »

قبل ذلك بقليـــل نقرأ اســـم أول « رئيس وزراء » فى التـــاريخ ، هو « أونى » وزير الملك « بيبى » ·· كان رجل دولة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، كان « وزير خارجية » أيضا يعقد الاتفاقيات والمعاهدات ·

فى نفس الوقت نسمع عن أقدم قصة وفاء زوجى فى التاريخ ، هى قصة الملكة « نبت اكيرتى » التى نسميها نيتوكريس · معنى اســـمها « الجميلة ذات الخدين الورديين » ·· هذه أيضـــا كانت أول ملكة فى التاريخ ·

كما قلت لك : كل البدايات تجدها هنا ·· هذه القلوب الطيبة ·· كانت دائما هنا ·· معظمها لناس بدون اسماء ، ناس مجهولين ، قل اذ شئت : جنودا مجهولين ··

فى العصور الوســـطى كانت القلوب الطيبة تسكن جناحا من تل المقطم ، هو « القرافة » ٠٠ هناك كانت مدينة الصالحين وأهل الخير ، هناك كانوا يعيشون للعبادة ثم يموتون ٠ لقد سماها « لوى ماسينيون » مدينة الموتى ، وكتب عنها مقالا لا ينسى ٠ انها مدينة الموتى الأحياء ٠٠ ثم الأولياء والصالحين وأهل الخير والعفاف حقا ٠

انهم يختلفون كثيرا عن الأولياء الذين يعيشون فى المدن بين الناس ٠ هؤلاء ربما كانوا أولياء وربما لم يكونوا ، لأنهم غارقون فى دنيا الناس ٠ الآخرون ــ حراس مصر الذين عاشوا بعيدا مع الله ــ هم أصحاب القلوب الطيبة من أولياء وقديسين ٠ كثيرون منهم ناس بسطاء ، تعرفهم بسيماهم وأعمالهم ٠ فى قريتك وقريتى ، فى شارعك وشارعى ، فى أسرتك وأسرتى ــ يوجد أولئك الناس الطيبون الذين يخدمون الآخرين ويرعون تقليد المروءة ٠٠انهم يواصلون رسالة « معات » رمز الضــــمير الحى عند أجـداد أجدادنا ٠

الناس الطيبون الذين صنعوا تاريخ مصر هم الزراع والصناع ، وكل أولئك الذين يملأون الخلية المصرية نشاطا وشهدا ، هم الذين يبنون وينشئون وهم يسعون لرزق الأولاد ، والأولاد ذخائر الأوطان ٠

هم الجنود المقاتلون الذين رابطوا على حدود مصر من فجر التاريخ ٠٠ هم الجنود المجهولون الذين أنشأوا الامبراطوريات ، وهم الذين يقفون اليوم على الحدود ليحموا أرض مصر فى كل اتجاه ٠ وأرض مصر ــ بعد ألوف السنين ــ لم تنقص شبرا منذ أيام مينا أو نارمر ، وكل شبر من أرضها أعادته اليها القلوب الطيبة الباسلة باذن الله ٠ ونجزم ــ من شواهد التاريخ ــ بأن المصرى لن يرضى أبدا بأن يترك شبرا من أرضه تحت يد غيره ٠

* * *

ومصر عاشت تاريخها كذلك على العلم وأهله ، عالم مصر الأول هو أمحوتب ، هذا المهندس العظيم ــ الذى وضع تصميم مدينة سقارة ذات الأسوار وبناها ــ كان طبيبا أيضا ، وقد جعله الاغريق الها ٠

من أيام أمحوتب ــ ومن قبلها قطعا ــ لم تتوقف شـــعلة العلم فى مصر أبدا ، لم يخل عصر من عصورنا من علماء كبار ٠ بعد علماء مصر القـديمة الذين اخترعوا الهندســـة والطب والطبيعة والكيمياء والقانون والأخلاق جاء علماء الاسكندرية ، اسكندرية البطالمة أقصد ، كانت جامعة كبرى ملأت الدنيا نورا ٠ لم يزدهر العلم فى مدينة قبل العصور الحديثة كما ازدهر فى الاسكندرية : فلاسفة ورياضـــيون ولاهوتيون وجغرافيون ومؤرخون ، علماء ملأوا طباق الأرض علما ٠ واحد منهم استرج وزن الأرض ، وآخر قاس بعد الشمس ٠ كنيسة أياصوفيا ــ أعظم عمل معمارى

مسيحى خلال العصور الأولى ـ بناها خلال حكم جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) مهندسان من الاسكندرية ٠٠

علماء مصر الاسلامية لا يحصيهم عد ، فى يوم من الأيام جمعت الفسطاط علم الدنيا كله ٠ فى كل نواحى عالم الاسلام ركدت العقول فى أواخر العصور الوسطى ، الا فى مصر : كيف يمكن أن يكون عصر ركود ذلك العصر الذى عاش فيه أمثال السخاوى والسيوطى وابن حجر العسقلانى والمقريزى وأبو المحاسن والقلقشندى والنويرى وابن منظور والمرتضى الزبيدى وعبد الرحمن الجبرتى ؟ ٠

وفى العصر الحديث اتصلت سلسلة أهل العلم والأدب ، من رفاعة رافع الى محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ومحمود الفلكى وحسن ظيفل ومحمود سامى البارودى ، وشوقى وحافظ وطه حسين ولطفى السيد وعلى ابراهيم وعلى رامز ومحمد رمزى ، وعبد الرحمن الرافعى وشفيق غربال ومصطفى نظيف ، ونجيب محفوظ المثال الواضح الذى أقر العالم كله عبقريته عندما منحه جائزة نوبل فى الأدب ٠ وبناة السد العالى وصناع مجدنا الصحفى الى أبى نظارة ٠٠ الى آخرين كثيرين جدا لا تحضرنى أسماؤهم ، فان الذاكرة خوانة والبيان طويل ٠٠ طويل جدا ٠٠

هل أجبنا عن سؤال : مصر ٠٠ ما هى ؟

لا أعتقد !

على أى حال : أظن أنك ـ على الأقل ـ تحس الآن ما هى مصر ٠٠ هذا الوطن العظيم الجميل الذى نتشرف بالانتساب اليه ٠

والكثير الذى فاتنى يحدثك عنه علماء هم أوسع منى علما ٠٠

هم الآخرون عقول كبيرة وقلوب طيبة ، وأهل علم من المشاركين فى بناء تلك الخلية الخالدة التى لا تسكن أبدا ٠٠ خلية مصر ، أم الدنيا ومجمع الشهد وأم الخيرات والبركات ٠٠

الأبعاد الثلاثة لتاريخ مصر

هناك مثل هولندى يقول : « خلق الله الهولنديين ، وخلق الهولنديون هولندا » ، وهو مثل يطلق على الأمة من الأمم تنشأ فى ظروف جغرافية غير ملائمة ، فلاتزال تكدح حتى تتغلب على العقبـــات : تذلل الظروف الطبيعية ، وتهيىء لنفسها أحوالا معاشية طيبة ، وتشق طريقها فى الحياة محافظة على كيانها، ذائدة عن حدودها ، وسائرة فى ركب القوة والقيادة دائما ، غير متخلفة عن واجبها نحو أخواتها الأمم ، ولا مقصرة فى مطلب من مطالب العزة والقدرة والعلم والسيادة · وخير مثل لذلك هولندا : فان أرضها سهل منخفض يغير عليه ماء البحر ويهدد أهله ، ثم ان هذا السهل ضيق لا يحتمل الكثيرين ، فيظل أهله قلة يطمع فيهم الناس ولا يعسر غلابهم على الأعداء المكاثرين ، فمازال الهولنديون يقيمون السدود على طول الساحل ، حتى ردوا عن أنفسهم عادية البحر وأمنوا فى سهلهم، ثم استصلحوا الأرض وأغاروا هم على البحر ، فجففوا الأراضى الضحلة بطول السواحل ، ووســـعوا رقعة بلادهم ، وحولوها الى جنة من جنان الدنيا ، مازالوا يغالبون العدا حتى قطعوا أطماعهم فى بلادهم ، ثم انهم لم يقنعوا بذلك حتى عبروا البحار أنشئوا لأنفسهم فيما وراءها ملكا شاسعا، وأصبحوا من أغنى أهل الأرض وأسعدهم حالا · وقريب من هولندا ــ فى ذلك ــ سويسرا والدانيمارك وبلجيكا واليابان ، وغيرها كثير ·

ولا نستطيع نحن أن نضع بلادنا فى زمرة هذا النوع ، لأن الله خلق مصر وســــواها على الهيئة التى هى عليها من قبل أن يدخلها أجدادنا الأولون · وهذه الأرض هى التى صنعت المصريين ، أو هى التى صنعت لهم كل شىء : هذا النهر المبارك الفياض الذى لا يشبهه فى الفيض والوفرة والجمال الا نهر أو اثنان ، وهذه التربة الزكية التى تزيد على الذهب قيمة ، حقيقة لا مجازا ، فان الذهب يباع مرة واحدة ، أما هذه الأرض فقد أنبتت ألوف السنين سنة بعد سنة ، بل أنبتت فى بعض السنين مرتين ، فاحسب قدر ذلك كله تدرك قيمة الأرض التى تسير عليها !

وهذا الموقع الجغرافى الفريد هو فى ذاته رأس مال ضخم لو وجد من يعرف كيف يستخدمه ، فاننا فى أهم ملتقى على هذه الأرض ، والمرور بأرضنا ضرورة لا يستغنى عنها البشر ، ومجرد المرور له ثمن ، وحسبك أن تلقى نظرة على ايراد قناة السويس من ضريبة المرور وحدها لتكون لنفسك فكرة عن « القيمة » الحقيقية لهذا الموقع ، ولتقدر خسارتنا اذ لم نحسن استغلاله فيما مضى ، ولتدرك أيضا أن حسن القيام عليه والانتفاع به ضرورة يستلزمها وجودنا ، ورسالة مفروضة علينا لخير البشر أجمعين، رسالة لا مفر لنا من أداء حقهـا ، ولا مفر لنا أيضـــا من الاســـتمتاع بخيراتها •

لقد سماه جمال حمدان بعبقرية المكان ، وهو أجمل ما قيل فى تقدير موضع مصر ، فهو عبقرى فعلا ، وهو فى ذاته رأس مال لا يفنى ، والمهم أن تعرف قدره وتقوم بحقه •

ومن نعم الله على المرء أن يكون لديه شىء يحتاج اليه الناس فينفع وينتفع • فاذا لم يفعل هو ذلك فعله غيره قسرا عنه وشقى هو بالذل والحرمان ، كرجل يقوم على عين ماء لا مفر للناس من أن يشربوا منها ، فاذا هو قام على الماء حق القيام وأحسن الانتفاع به ويسر للناس وروده باع الماء بالذهب ، واذ لم يفعل أقتحم الناس عليه الموضع وشربوا ، وباء هو بالخسران •

كل شىء على هذه الأرض يشرى مرة واحدة ، الا الأوطان •• فان كل جيـل من أجيال الأمة لابد أن يؤدى ثمن وطنه ، لابد أن يضـــحى ويستهدف للموت ليثبت حقه فى أرضه ، فاذا أهمل أمر هذا الدفاع جيل من الأجيال ضاع الوطن ، لأن الأمم ــ فى تنافسها على السيادة وموارد الثروات واتساع الرقعة ــ يتربص بعضها ببعض ، ولا تكاد واحدة منها تتوسم من الأخرى ضعفا حتى تنقض عليها ، وهذه حقيقة واقعة لا مجال لانكارها أو الشكوى منها ، فاذا ضيع جيل من الأجيال وطنه أو جزءا منه كان على الأجيال التالية أن تبذل الثمن مضاعفا لتسترد الوطن ممن غصبوه • ونحن المصريين أبناء هذا الجيل الراهن لانزال نؤدى ضريبة أسلافنا ممن ضـــيعوا هذا الوطن ، للعدا بالفتور والاهمال ، ونحن قد استرددناه جغرافيا ، وعلينا الآن أن نســـترده تاريخيا وحضـــاريا • فمصر التى نفخر بأن نقول انها مهد حضارة البشر لابد أن تكون دائما فى طليعة ركب الحضارة ومن المهانة البالغة لنا أن نجد أنفسنا فى غمار الشعوب النامية ، وهى شعوب الصف الثالث ، وهذا خطأ فى حق مصر ، لأن مكان مصر الطبيعى أن تكون فى الصف الأول ، لا من ناحية القوة العسكرية أو الثروة ، بل من ناحية الحضارة • وهذه الحقيقة وحدها تعرفك بفداحة الواجب الملقى على عاتقك ، الواجب الذى لابد أن تقوم به لتكون جديرا بمصر •

وكلما تقدم الزمن ضاقت رقعة الأرض بالبشر ، وزاد صراع الأمم على الوطن ، وانتاب الناس جشــع بغيض جعلهم يشرهون الى أرض الآخرين ، وأصبحنا نرى الآن صــورا من العدوان على أوطان الناس لا توصف الا بأنها جرائم ، وأكبر مثل لذلك عدوان الصهيونية العالمية على أرض فلسطين ، تؤيدها قوات الاستعمار التى لا تتخلى أبدا عن طبعها البغيض فى سرقة أوطان الآخرين ، أو امتصاص خيرات بلادهم وتحويلهم الى أجانب فى بلادهم ، أو طبقات دنيا فى أراضــيهم ، كما ترى فى جنوبى أفريقية ، حيث تصر فئة ضئيلة من الأجانب على سيادة البلاد وحكمها بالقوة ، واعتبار المواطنين الأفريقيين الأصليين طبقة دنيا من أهل البلاد ، لا حق لهم فى أكثر من العيش الكفاف ، كأنهم عبيد أو رقيق أو أدنى مقــاما ٠٠ !!

أما الصهيونيون ـ وهم فئة باغية من يهود العالم جمعت مالا عريضا ووصلت الى سلطان كبير فى الكثير من بلاد الغرب ، وأرادت أن تستغل المال والسلطان فى الحصول على وطن ، وما هم بحاجة الى وطن ، فان بلاد الدنيا كلها لهم أوطان ، ولكن المال والسلطان أحيانا يقتلان الضمير ويعميان البصر ـ فاستعانوا بانجلترا أولا ، ثم ببعض بلاد أوربا ثانيا ، ثم بأمريكا أخيرا ، فى اغتصاب أرض فلسطين وتشريد أهلها ، واحلال يهود يأتون بهم من نواحى الأرض محلهم ٠

وتحت بصــر الدنيا كلها شرعوا فى جريمتهم ، فاحتلوا الأرض بالسلاح والغدر والخديعة ، وانشأوا ما سموه باسرائيل ، وحسبوا أن الجريمة تنفع ، وأن العدوان يعطى حقا ، وأن السارق يصبح صــاحب البيت ، ولكن هيهات ! فمادامت أمة العرب واعية لحقهــا ، متمســكة بأوطانها ، مضحية فى سبيلها بالروح ، ففلســطين عائدة لأهلها وأهلها عائدون اليها مهما طال الزمن ، ومهما فعل الصهيونيون وأحلافهم ، فان الباطل لا يصبح حقا أبدا ، والعدوان لا ينشىء وطنا ، و « يحق الله الحق ويمحق الباطل » ٠

وهذا الكلام لا يتناقض مع ما تراه من صلح مصر مع اسرائيل ، فهو صلح وقعناه بعد حرب منتصرة ، وهو صلح يحمى حدودنا فى الشرق ولكنه لا يبرر احتلال الصهيونية لأرض فلسطين ٠

هذا استطراد لابد منه فى هذا الموضع ، لأن مأساة فلسطين مثال رهيب وعبرة كبرى ، وهى درس لكل عربى وكل مصرى ، يبصره بما يمكن أن يحيق به اذا هو أهمل فى حق وطنه ، وتهاون فى واجبه حياله ٠

ولكن انتفاعنا بموقع بلادنا الجغرافى ليس بالأمــر الهين ٠ فهو ككل شىء قيم فى هذاال وجود ـ له ثمن لابد وأن كاملا قبل أن نجنى ثماره ، وهذا الثمن هو الدفاع عنه وذياد الطامعين فيه عن حياضه ، واذ

كان هذا الموقع فريدا عظيم القيمة على النحو الذى وصفناه ، فلابد أن يكون الثمن غاليا باهظ التكاليف أيضا ، لأن المطـــامع فيه متجددة ، والراغبين فيه كثيرون ، والمورد العذب كثير الزحام كما يقولون ، فلابد لأصـــحاب موقع جغرافى كموقع مصـــر من أن يظلوا على الأهبة أبدا ، ولا معدى لهم عن أن يبذلوا دماءهم دواما فى سبيل الحفاظ على هذا الموقع وخيراته ، بل ليس لهم أن يشكوا من طمع الناس فى أرضهم وكلبهم عليها ، لأن هذا الطمع فى ذاته أمر منطقى بالنسبة لطبيعة الحياة على الأرض ، وهى طبيعة صراع متصل على موارد الرزق والخير ٠٠ ونحن أنفسنا ــ فى فجر التاريخ ــ غزونا هذا الموقع غزوا ، واستولينا عليه اســـتيلاء ، وجعلناه بلدنا بأسنة الحراب ، مثلنا فى ذلك مثل غيرنا ، فكل شـــعوب الأرض أنشأت أوطانها بحد السيف ٠

ولقد أتى سكان الدلتا ــ قبل توحيد القطرين ــ من جزائر البحر المتوســـط ، وكانوا شعبا قائما بذاته مستقلا عن مصر العليا ، وكانت صلات هذا الشعب بأهل جزائر البحر موصولة ، فلما تجرد أمراء مصر العليا للوصول بمصر الى حدودها الطبيعية ــ وهى ساحل البحر المتوسط ــ كان عليهم أن يحاربوا أهـــل الدلتا ويرغموهم على الاتحـــاد معهم ، واستمرت الحرب بين الجانبين زمانا طويلا ، وانتهت بتوحيد القطرين وضم التاجين وميلاد مصر الباقية الى نهاية الزمان باذن الله ٠

وقد كنا ــ ونحن صبيان ــ نقرأ ما يقسم لنا من تاريخ بلدنا فى القديم ، ونمر سراعا بعبارة تقليدية فى تاريخ كل فرعون تقول : « وقاد حملة الى سوريا ، وهزم البدو الليبيين ، وغزا النوبة » ، وكنا نحسبها مجرد عبارة تقليدية يضعها المؤلفون فى نهاية أعمال كل ملك من ملوك مصر القديمة لاستكمال شكليات لابد منها ، فلما تقدمنا مع الدرس وزاد ادراكنا للتاريخ ، أدركنا أن هذه العبارة انما هى تاريخ مصر كله ، لأن كلا من الفراعنة كان عليه أن يؤدى ضريبة موقع مصر الجغرافى ، ويحفظ مصر للمصريين بهذه الحملات شرقا وغربا وجنوبا ، لأن هذه الغزوات لو توقفت حينا لوقعت مصر بين أيدى الأعداء ، فأوقفوا تاريخها ، وكتبوا على ثراها تاريخهم ، وهو ما حدث مرارا وخلال فترات طويلة من تاريخنـــا الطويل ، وأضاع علينا ثمرات ذلك الموقع الجغرافى خلال فترات طويلة من تاريخنا فى الأعصر الماضية ٠

ولا يتصور فداحة الثمن الذى اشترت به مصر هذا الموقع الا من درس تاريخ مصر القديم دراسة تفصيل وتعمق ، لأن هذا التاريخ الذى يبهر العين برواء الحضارة ، ولألاء الصناعة ، وبدائع الفن ، وروعة المنشآت ، لم يقم الا بدماء الذين ذادوا العدا عن الوادى وحفظوه لأهله ، وأتاحوا للصانع أن يصنع ، وللمفتن أن يسترسل فى فنه ، وللمنشىء أن يبدع ماشاء ٠

وانت لا تخطو مع التاريخ المصرى القديم خطوة الا لمحت ضرام المعارك على الحدود ، وأحسست أنها ضرورة ملازمة لا غنى عنها لهذا التاريخ • خذ مثلا هذه السطور من حكم الملك بيبى الأول من ملوك الأسرة الخامسة ، قال المؤرخ هنرى بريستد :

« وبلغت سياسة بيبى الخارجية شأوا عظيما ، ودرجة كبيرة غير مسبوقة النظير ، فقد أخضع بلاد النوبة تماما ، وجند من أهلها فرقا للجيش المصرى استعملها فى غزواته الجنوبية والشمالية ، واعتاد ــ كلما أغار البدو على شرقى الدلتا أو مناجم سيناء ــ أن يرسل الى « أونا » (حاكم الوجه القبلى) أمرا بحشد جنود نوبية مع جنود مصرية لكبح جماح هؤلاء العصـــاة • وقد أصدر أمره فيما بعد بتعيين « أونا » قائدا عاما للقوات المصرية فى أثناء الحرب مع البدو، مرقيا اياه بذلك على زملائه من رؤساء الجيش • والتحم « أونا » بالبدو وسحقهم وشتت شملهم ، ثم عاد الى وطنه ، وبعد ذلك عهد اليه مليكه بأربع غارات أخرى ضد البدو أيضا عقابا لهم • ولما أغار البدو على اقليم شرق الدلتا أرســـل بيبى عمارة بحرية تحت قيادة « أونا » المذكور الى فلسطين ، فسارت محاذية سواحل فلسطين الجنوبية ، وأنزلت جندها هناك ، وفتكت بالثائرين فتكا ذريعا ، ثم طردتهم الى جبال فلسطين الشمالية ، ويعتبر هذا المكان أقصى ما وصل اليه النفوذ المصرى فى عهد المملكة القديمة » •

وقد أوردت هذه الفقرة ــ على طولها ــ لأنها تصور حلقة كاملة من حلقات ذلك الكفاح العنيف الذى قامت به مصر ، للاحتفاظ بموقعها ودفع الطامعين عنه وتمهيد السبيل لأهله بذلك للانتفاع بخيراته •

وذلك هو الطبيعى بالنسبة لموقع كهذا يجتذب الناس من أقاصى الأرض ، ويفىء على أصحابه من الميزات مالا يكاد يضارعه فيه موقع آخــــر •

ولم يظهر هذا الموقع بقيمته كلها من فجر التاريخ ، بل ظهرت هذه القيمة مع عمران الأرض وتفرع الشعوب وظهور الشرق والغرب ، اذ من الطبيعى ألا يكون لهذا الموقع تلك القيمة قبل ظهور دول اليونان والرومان من ناحية ، واتصــــال بلاد جنوبى آسيا وشرقها ببقية العالم من ناحية أخرى ، وقيام نشاط التبادل التجارى بين الجانبين • ففى عهود الدولتين القديمة والوسطى من تاريخ مصر القديم لم يكن هذا الموقع على شىء مما نراه اليوم من الأهمية ، لأن البحر المتوسط ــ كمهد من مهاد التاريخ ــ لم يكن قد ولد بعد : كان راكدا لا تعمر حوضه الا جماعات من البدائيين فى كل ناحية من نواحيه ، وشيئا فشيئا أخذت شواطئه تعمر ، وأخذ نشاط أهله يتزايد ، وظهرت العـــلاقات بينهم ، وظهرت البحـــريات والموانى والتجارات المتصلة المنظمة ، وهنالك بدأت أهمية الموقع تظهر • ثم اتصل

أهل الهند بأهل أفريقية ، ونشـــط التبادل بين الجانبين ، فظهرت أهمية الموقع كاملة ·

وظلت لهذا الموقع أهميته مدة قيام دولة الرومان ، فلما انقضـــى أمرها ، واستولت على أراضيها قبائل المتبربرين هبط النشاط البحرى فى البحر المتوسط حينا ريثما استجمع العرب أمرهم واستقرت دولهم على شواطىء ذلك البحر ، وتجمعت لها أسباب القيام بأمور البحار من موانىء ودور صناعة وأساطيل وملاحين وما الى ذلك ، فعاد النشاط الى حوض البحر المتوسط من جديد فى ظلال العرب ، ومع عودة النشاط عاد لموقع مصر أهميته ، فاذا بها مركز البحرية الشرقية الاسلامية : فيها كانت تصنع السفن ، ومنها كانت تصـــدر العمائر ، وبرجالها كانت تحشـــد الأساطيل للعمل فى البحرين المتوسط والأحمر ·

واستمر ذلك طوال العصر الأموى ، لأن الدولة الأموية كانت دولة بحرية متوسطية : كان الشام مهدها ، ومصر قاعدتها الكبرى ، وحوض البحر المتوسط الشرقى فى مجالها الحيوى · ثم تغير الامر بعد أن انتقل مركز الدولة الاسلامية من دمشق الى بغداد ، لأن الدولة الاسلامية لبست ثوبا جديدا فى عصر بنى العباس بعد أن استقرت بأرض الرافدين ، فتحولت من دولة بحرية متوسطية الى دولة قارية آسيوية ·

فبينما كانت عيون خلفاء بنى أمية متجهة نحو القسطنطينية وجزائر البحر المتوسط والمغرب والأندلس ، وبينما كانت عناية رجالها بالأساطيل والبحار متصلة متزايدة ، اذا بعيون خلفاء بنى العباس تتجه الى الشرق من بغداد ، واذا هى تتخلى شيئا فشيئا عما كسبته من بيئة البحر المتوسط العامرة بأنفاس مصر القديمة واليونان والرومان ، وتقاليدهم فى الحضارة والفن وروح الحكم ، واذا هى تصبح كسروية فارسية ، وترتد فى الروح والنظام وأسلوب الحياة الى عالم الدول الآسيوية القديمة التى لا تعنى بالبحر والمرافىء والملاحين العناية الكافية · ومعظم الدول الآسيوية ــ عدا اليابان ــ برية قامت على صهوات الخيل ، فى حين أن معظم دول البحر المتوسط برية بحرية قامت على ظهور الخيل ومتون السفن ·

ولم يزل هذا الاتجاه الآسيوى يغلب على الدولة الاسلامية ــ ومصر جزء منها ــ حتى صرفها عن البحر صرفا تاما ، فأغلقت نوافذ مصـــر الشـــمالية واضمحلت الاسكندرية · ولم يزل الأمر على ذلك حتى بلغ ذروته عندما وقعت مصر فى أيدى الأتراك العثمانيين ، فهبط عليها ذلك الستار الكثيف الذى حال بين ما وقع فى أيديهم وبقية العالم ، فلم تعد لهذا الموقع الا أهمية ضئيلة ، وظل ذلك حاله حتى نهاية القرن الثامن عشـــر ··

ومن مطالع القرن التاسع عشر بدأ هذا الموقع الجغرافى يسترد أهميته من جديد ، فقد اكتمل عمران الشرق والغرب ، ولم يعد التبادل التجارى بينهما هواية يتجشمها المغامرون الذين يطمعون فى الكسب الكثير عن طريق استجلاب كماليات كالتوابل والعطور ، بل أصبح ضرورة مفروضة لا يقوم عمران الدنيا بدونها ، فقد كثر الناس فى الشرق والغرب واحتاج كل من الجانبين الى ما عند الآخر ، وبدأ الكفاح الواسع المدى بين القوى العالمية ، وظهرت معه أهمية المواقع الاستراتيجية الرئيسية كقناة السويس وجبل طارق ومضيق ملقا وقناة بنما وما الى ذلك · وهنا أصبح موقع مصر ميدان كفاح عالمى خطر ، وزادت الأعباء الملقاة على أهلها ، لأنه أصبح مفتاحا للسيادة على الأرض ، من ملكه فقد ملك الكثير ، ومن خسره فقد خسر الكثير أيضا ·

وانما مررت بتاريخ هذا الموقع ذلك المرور السريع لكى أبين للقارىء أهميته من ناحية ، ولكى أخلص الى ثلاث حقائق أعتقد أنها من أهم ما يعيننا على تحديد مكانة هذا البلد ورسالته العليا فى الوجود من ناحية أخرى ·

الأولى أن تاريخ مصر هو تاريخ البحر المتوسط على وجه التقريب : اذا استقرت أمور مصر ورخيت أحوالها عمر هذا البحر بالنشاط وانتعشت موانيه ورخيت أحوال بلاده ، وأنت تستطيع ـ لهذا ـ أن توجز تاريخ البحر المتوسط فى تاريخ الاسكندرية ، أما قبل انشائها فلم يكن لهذا البحر ـ ككل مترابط ـ تاريخ ، انما كان هناك نشاط محدود فى هذا الجانب أو ذاك · ومنذ ظهر هذا البلد ظهر البحر المتوسط بوحدته وقيمته الكاملة ·

ولقد ظهرت قبل الاسكندرية فى حوض هذا البحر موانىء ذات أهمية ، كموانىء الشام وشبه جزيرة البلقان وقرطاجنة ومرسيليا وبرشلونة وغيرها ، ولكن واحدة منها لم تخرج بالحوض الذى تقع فيه عن المحلية المحدودة ، فأما الاسكندرية فقد ربطت شرق البحر بغربه وشماله بجنوبه ، على نحو مكن للبشر من القبض على نواصيه ، ويسر لهم ركوب أمواجه والانتفاع به على أوسع نطاق ، وأعطاه القيمة العظمى التى يحتلها فى حياة البشر ·

وخلاصة هذا الكلام أن البحر المتوسط ـ فى الحقيقة ـ اسكندرى ، أعطته الاسكندرية ما لم تعطه غيرها ، وأفاد منها مالم يفده من غيرها أيضا ، وأيسر دليل على ذلك أن أزهى عصوره هى أزهى عصورها ، فهذا البحر لم يأخذ مكانه الصحيح خلال التاريخ الطويل الا على أيام البطالمة وخلال أيامنا هذه ·· فأما أيام البطالمة فتتحدث عنها منارة الاسكندرية ، وهى أبلغ ما يدل على النشاط البحرى ، ولم ينشىء البشر مثلها ـ فى البحر المتوسط أو سواه ـ الا فى هذا العصر الحديث · ومن أسف أن

هذه المنارة زالت بفعل الزمن ، وكانت من عجائب الدنيا • ومن واجب المسئولين عن الاسكندرية أن يعيدوا بناءها • ورسمها كله معروف • أما الاسكندرية وبحرها فى أيامنا هذه ، ففى غير حاجة الى بيان •

ولقد قامت على شطآن هذا البحر — فى بعض العصور — مرافىء أخرى ربما زاد بعضها على الاسكندرية فى الضخامة ومظاهر العمران ، ولكنها — برغم هذا التفوق — لا تقص من تاريخ هذا البحـــر ما تقص الاسكندرية ، ولا تصور من نشاطه ما تصور ، وتستطيع أن تطوف بموانىء هذا البحر كيف شئت ، فلن تجد ما يجمع شعوبه كلها على بساط واحد مثل هذا البلد المجيد •

ولهذه الصلة بين الاسكندرية وحوض البحر المتوسط صدى بعيد فى تاريخ مصر ، ولها نصيبها من رسالة مصر كلها •

والحقيقة الثانية أن تاريخ مصر متأثر بالبحر المتوسط على صورة دائمة ، وقد لا نحس نحن بهذا التأثير فى بعض الأحيان ، وقد يخيل الينا فى أحيان أخرى أن هذا التأثير قد ضعف أو تلاشى • والواقع أنه قائم فعال أبدا ، حتى فى الأعصر التى يسكن فيها نشاط مصر البحرى ويسود السكون موانيها ، كالعصـــر التركى مثلا ، فقد قامت فى أثنائه جاليات التجار الأوربيين فى الاسكندرية والقاهرة • ولم تنقطع حركة السفن بين مصر والشام واليونان ، وأبســـط الدلائل على ذلك تلك العربة المعروفة بالكارو ، التى كانت من أهم وســـائل المواصلات فى المدن المصـــرية ، وكانت وسيلة النقل الوحيدة الى حين قريب ، فهى ايطالية ، وفدت علينا من صقلية خلال القرن السابع عشر على الأغلب ، وأثرها فى الحيـــاة المصرية العامة أظهر من أن نقف عنده فى هذا السياق •

والحقيقة الثالثة هى أن حياة مصر لا تستقيم الا اذا كانت على صلة بالبحر المتوسط ، فان العنصر البحرى داخل فى كيانها ، مشترك فى تكوينها بنصيب كبير ، وسترى فى كلامنا عن علاقة مصر بهذا البحر ، أننا وان غلب علينا الأصل الأفريقى فان نصـــفنا الذى يعيش فى الوجه البحرى لم يفقد أثر البحر أبدا ، بل ان الآثار البحرية تغلغلت فى مصـــر العليا حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من الحضارة المصرية فى شتى عصورها •• وأنت أنى وقفت فى مصر لا تعدم شيئا يدلك على صلة هذا البلد بالبحر، ولو كان هذا الشىء نسمة بحرية تعبر لك حاملة اليك ريح البحر اللطيف ونداءه الغلاب • وسنرى فيمايلى موجزا لقصة الصراع الطويل بين البحر والقارة الأفريقية على مصير هذا البلد •

* * *

ولدت مصر أفريقية : فقد ظهرت الأسرة المصرية التى أقامت الملك المصرى فى الصعيد • وكانت هناك ــ فى أول الأمر ، بطبيعة الحال ــ أسر قوية كثيرة فى شتى النواحى ، وقامت الحروب بينها واختفى الضعيف منها حتى انتهت الى أربع ، هى التى يرمز اليها : بالنحلة ، والبوصة ، والثعبان ، والنسر • والاثنتان الأوليان فى الوجه البحرى ، والأخريان فى مصر العليا • ثم غلب قبيل النحلة على الوجه البحرى كله ، وقبيل النسر على الوجه القبلى • ثم قامت الحروب بين الوجهين ، ودامت دهرا طويلا انتهى بانتصار ملك مصر العليا • وتغلبت مصر الافريقية على مصر البحرية ، ودام ذلك معظم عهد الدولة القديمة •

وفى أواخر ذلك العهد ، بدأت آثار البحر المتوسط تظهر فى الحضارة المصرية • كان الاتحاد بين الوجهين قد تم ، واستقرت الأمور فى البلاد ، وتحول سكان مصر ــ من البحر الى الشلال ــ الى شعب واحد متجانس ، وأخذ تأثير الوجه البحرى يظهر ويمتزج بتلك العناصر الأفريقية التى أقامت حضارة الأسرات الأولى ، وشيئا فشيئا نجد ملوك مصر يتجهون نحو الشمال ويشعرون بجاذبيته •

ويسهم رجال الوجه البحرى فى بناء الدولة ، ويسيرون أساطيلهم فى البحر باسمها ، تغزو مواقع الساحل وتؤيد القوات المصرية البرية الزاحفة فى فلسطين لتأمين حدود مصر من هذه الناحية • وأخذت تظهر فى الفن المصرى عناصر تؤكد أثر البحر المنعش الرقيق ، وبدت صناعات الأسرتين الخامسة والسادسة بهذا الطابع الفياض بالقوة والرقة والأصالة والجمال، لأنه مزاج من الحضارة الأفريقية وحضارة البحر ، وستقوم عليهما حضارة مصر وتاريخها من ذلك التاريخ الى يومنا هذا •

ثم كانت الأسرة الثانية عشرة ، وهى تحتل فى تاريخ مصر مكانا خاصا ، بسبب ما ساد أيامها من رخاء ، وما ظهر على الفن المصرى فى ظلالها من الأصالة والتجديد والدقة والالهام الصادق ، ومرد ذلك الى أن التوازن بين المصرين ــ مصر الأفريقية ومصر البحرية ــ كان كاملا فى ذلك الحين ، وان الناظر الى ما خلفه ملوك هذه الأسرة الفيومية ، ليلاحظ دون مشقة أنه يحمل الروح نفسه الذى ستحمله فيما بعد فنون أمم البحر المتوسط كلها •

ثم يجتاح الهيكسوس مصر ، ويتلكأ سير الحضارة فيها الى حين ، حتى اذا أذن الله بخروجهم كان القائمون بعبء ذلك أمراء من أقصى جنوب مصر ، كانوا أفارقة خلصا جددوا شباب الدولة المصرية ، بما ركبه الله فى طبعهم من صلابة الأفارقة الخلص ، التى لانزال نلمحها الى اليوم فى أبناء الصعيد ، ولكن مطالب الدفاع وظروف الدولة المصرية اذ ذلك اتجهت بهم الى الشمال ، وجعلت عيونهم مثبتة على الحدود الشمالية

الشرقية والحدود الغربية ، ولم يكن لهم بد من أن يتأثروا ــ بدورهم ــ بالبحر ٠

وكان العالم قد تغير من حولهم ، وبدا بوضوح أن جبهات مصر الحقيقية ليست فى الغرب ، حيث كانت جماعات البدو الليبية تجوس الفيافى متلمسة غرة أهل الوادى ، أو فى الجنوب ، حيث كانت النوبة ، وانما فى الشمال ، حيث البحر وشعوبه الوليدة فى الجزر وأشباه الجزر المواجهة لمصر ، التى كانت تتحفز لانتزاع القيادة منها ، وفى الشمال الشرقى حيث انتظمت بعض شعوب آسيا فى دول صغيرة تنازع مصر السيادة والسلطان ٠

ومست الحاجة الى الأساطيل ومن يتولون أمرها ، وأصبح الفراعين يقضون معظم أيامهم فى الشمال ، وازدادت عنايتهم بالوجه البحرى وغلب على الدولة كلها طابعه ، أى أن مصر البحرية غلبت على مصر الأفريقية ، وظهر ذلك بشكل واضح فى الناحيتين المادية والمعنوية للحضارة المصرية ، فأما من الناحية الأولى ، فذلك ظاهر فى طرز منشآت الدولة الحديثة ابتداء من أيام أمنحتب الثالث ، وأما من الناحية المعنوية ، فيتجلى ذلك فى هذا المذهب الدينى الذى نادى به اخناتون ، مذهب التوحيد الذى يتمثل فى عبادة قرص الشمس آتون ، وهو نفحة امتدت الى مصر من مهبط الأديان، أى الركن الجنوبى الشرقى من حوض البحر المتوسط ، أرض فلسطين ٠

ومعنى هذا كله أننا نلاحظ أن مصر البحرية تجتذب مصر الأفريقية اجتذابا شديدا ، من أيام الأسرة الثانية عشرة وما تلاها ٠ حتى اذا وصلنا الى الأسرة الثانية والعشرين وجدنا مركز مصر قد انتقل الى الوجه البحرى ، وأصبحت العاصمة فى صا الحجر ، أى أن مصر البحرية غلبت آخر الأمر ، وأصبح البلد كله يدار من الشمال ٠ نعم ان ذلك كان ايذانا بنهاية مجد مصر القديم ، ولكن هذا المجد كان لابد أن ينتهى يوما ما ، فقد دام لمصر أكثر من عشرين قرنا متوالية ، وهذا أطول زمان عرفه التاريخ لمجد أمة من الأمم ٠

ومن ذلك الحين انتهت سيادة مصر الأفريقية تماما ولم تعد الى الظهور الا فيما بعد ، فى العصر الحديث ، وارتبطت مصر ومصايرها بالبحر المتوسط وأهله على نحو متصل الى اليوم ، ودخل فى الميدان عنصر جديد هو العنصر الآسيوى ، الذى بدأ بالغزوة الفارسية المخربة سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، وهى غزوة تعتبر نقطة تحول فى التاريخ المصرى كله ، لأنها فتحت باب الشرق على مصراعيه ٠ وأصبح تاريخ مصر بعد ذلك نزاعا بين موجات الغزو الآسيوية ومصر البحرية ، أى مصر البحر المتوسط ٠

لقد كان كفاحا طويلا دام قرونا ، غلبت خلاله آسيا على مصـــر مايزيد على ألف ومائتى عام ، لم تتخللها الا فترة انقطـــاع واحدة : عصر البطالمة الذى أعاد الى مصر البحرية مقامها ، وجعل هذا البلد مركز البحر المتوسط كله • أما الباقى فموجات ودول آسيوية يلى بعضها بعضا ، الطابع الغالب عليها أسيوى ، وأنظارها متجهة الى الشرق كما ترى فى دول الطولونيين والاخشـيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك ، ثم دولة الأتراك العثمانيين التى لم تنته الا عندما غزا الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨ • وانفتح باب البحر المتوسط على مصراعيه واتصلت مصر به اتصالا مباشرا وثيقا ، واستعادت مكانها بين دوله وبالتالى بين دول العـــالم •

فاذا نحن أردنا أن نجمع ذلك كله فى عبارة واحـــدة تعطينا فكرة واضحة عن الاتجاهات الرئيسية لتاريخ مصر العام ، قلنا ان مصـــر تنازعت تاريخها ثلاث قوى : أفريقية وآسيا والبحر المتوســـط ، وأن القوة الأولى تلاشت فى منتصف الدولة الحديثة من تاريخ مصر القديم ، وأما الثانية فقد فرضت على مصر فرضا ، وتمكنت ـ فى فترات طويلة ـ من تحويل اتجاه تاريخه العام وجعله آسيويا خلال قرون كثيرة من العصور الوسطى • ولا يدخل العرب أو الاسلام فى تلك العناصر الآسيوية • فالعرب كانوا دائما عنصرا سكانيا أساسيا فى تكوين مصر ، وسيناء التى هى موطن من مواطن العرب أرض مصرية ، والصحراء الشرقية المصرية كانت دائما حافلة بالعرب المصريين •

أما القوة الثالثة ـ وهى البحر المتوسط ـ فهى العنصر الأساسى فى تاريخ هذا البلد • ومصر التى ولدت أفريقية لم تلبث أن صارت بحرية ، مثلها فى ذلك كمثل اليونان والرومان ، فقد أقبلوا من قلب القارة الأوربية، ثم اجتذبهم البحر وأخضعهم لسلطانه وحملهم تراث حضارته ، التى هى الحضارة الراهنة كما سنرى بعد قليل •

وهذه القوى الثلاث التى تنازعت تاريخ مصر ، هى الأبعاد الثلاثة لهذا التاريخ ، وهى فى مجموعها تعطى هذا التاريخ هيئته وحجمه وعمقه أيضا ، ولابد لمصر ـ اذا أرادت أن يستقيم ميزان حياتها ـ من أن توازن بين هذه القوى ، فلا تغلب واحدة منها على واحدة ، ولا تصرفها واحدة منها عن واحدة ، وسنرى فى سياق هذا الكلام أن اهمال مصر الناحية الشرقية قد جر عليها بلاء شديدا ، وأن اهمالها لمكانها فى البحر المتوسط قد عرضها لأخطار شتى ، وأن انصرافها عن افريقية ـ فى بعض فترات تاريخها ـ أساء اليها •

وفى أيامنا هذه ، وقد ولدت القارة الأفريقية كلها من جديد ، زادت أهمية البعد الأفريقى وأصبح محورا رئيسيا من محاور حياة مصـــر وتاريخها وسياستها •

وهذه الأبعاد الثلاثة للتاريخ المصرى تحدد لنا حدود الحضـــارة المصرية ، فان لكل بلد ذى مقام على وجه الأرض حدودا حضارية لابد أن تقوم برسالتها فيها • فحدود الولايات المتحدة السياسية مثلا معـــروفة ثابتة ، ولكن حدودها الحضارية تترامى الى ما وراء ذلك بكثير ، حتى لتشمل العالم الجديد كله ، وحدود مصر الحضارية تترامى الى ما وراء حدودها الجغرافية فى أفريقية والشرق الأوسط والبحر المتوسط •

والأمم لا ترسم حدودها الحضارية ـ كما ترسم حدودها الجغرافية ـ بقوة الجند والسلاح ، ولكن هذه الحدود ترسم نفسها بنفسها ، وتتوقف على ما أودع الله فى كيان الأمة من الأصالة وقوة الاندفاع • وقد عرف التاريخ أمما أوتيت من القوة الدافعة مامد حدودها الحضارية الى مدى لايكاد يصدق ، كهذه الأمة العربية التى مدت حدودها الحضـــارية من الفيلبين الى المحيط الأطلسى ، وتلك الأمة الأسبانية التى أدخلت فى نطاق حضارتها قارة بأسرها ، هى أمريكا الجنوبية وما يصاقبها •

ومصر من تلك الأمم ذات القوة الدافعة التى تحمل حضارتها الى ما وراء حدودها بمراحل كثيرة ، وسنحاول فى الفصول التالية أن نتتبع هذه الحدود •

وهذه الحدود الحضارية هى التى تجدد للأمة رسالتها فى الوجود ، فما دامت أجيالها الماضية قد عرفت كيف تمد حـــدودها الى ذلك المدى المقدور ، فان على أجيالها اللاحقة أن تسعى للحفاظ على تلك الحدود ، وتجتهد فى بث النور فى أرجائها والطمـــوح الى المزيد • لأن التاريخ فى صميمه تاريخ حضارات وصراع مدنيات ، فحدود مدنيتنا هى حـــدود تاريخنا ، وبقدر ما نحافظ عليها تقسم لنا أيام الرخاء والسعود •

وسنحاول أن نتتبع فى الفصول التالية حدود مصر الحضارية فى تلك الاتجاهات الثلاثة التى ذكرناها ، فاذا تبيناها ظهرت لنا حدود رسالتنا فى هذا الوجود •

مصـــر وأفريقيـــة

ولدت مصـــر ـ كما قلنا ـ أفريقية ، ومازالت تشـــعر بأفريقيتها وبالتزاماتها حيال تلك القارة على مدار التاريخ • ولقد اجتذبها البحـــر المتوسط وأدخلها فى نطاقه الحضارى • وشغلتها آسيا واحتوتها فى نطاقها قرونا طويلة ، ولكن شعب مصر كان ـ ومايزال ـ يشعر بأفريقيته حريصا عليها فخورا بها ، ولايزال الصعيد وأهله موضع فخار مصر ومصـــدر قوتها وحصنها الذى تركن اليه • وما من شىء تراه قائما فى مصر اليوم الا ولأهل الصعيد فيه الأثر البعيد • فهؤلاء الرجال الأشداء هم الذين حفروا قنوات مصر كلها ، وأقاموا بسواعدهم معظم ما ترى من المبانى والمنشآت ، وهم قدموا ـ ومازالوا يقدمون ـ لهذا البلد أجيالا من خيرة رجاله الذين قادوا أموره ووجهوا سياسته ورفعوا رأسه فى كل ميدان •

وهذا الفخر بالصعيد وأهله هو فى ذاته فخر بالعنصر الأفريقى فى تكويننا ، و هو الدليل الناطق على اتصال شعورنا بأفريقيتنا • ولقد سخر الناس من أحد الخديويين ، حينما قال ان مصر قطعة من أوربا ، لأن ذلك الزعم يحرمهم من موضع اعتزاز عميق فى نفوسهم ، هو الانتساب الى تلك القارة المظلومة : أفريقية •

ولم ينصف التاريخ أو الناس هذه القارة ، فقد كانت تسمى الى حين قريب بالقارة السوداء ، نسبة الى لون معظم سكانها ، وكانت تسمى بالقارة المظلمة ، بســـبب جهل الناس بداخلها ، وحسب الأوربيون أنهم يستنقذون هذه القارة مما هى فيه بتقسيمها فيما بينهم مناطق نفوذ ودوائر استعمار ، وبدلا من أن يسعى كل فريق منهم فى النهوض بما اقتطعه من بدن هذه القارة اجتهد فى تحويله الى مزرعة لبلاده ، أو مورد للمواد الخام ، أو منصرف للزائد من السكان ، أو نقطة ارتكاز عسكرية تنفعه فى الصراع العالمى ،وهكذا كان نزول أولئك الناس تلك القارة بلاء عليها وعلى سكانها ، وانضافت الى مشاكلها مشكلة جديدة ، هى مشكلة أولئك المستعمرين ، وعلينا اليوم ـ قبل أن لا نستطيع شيئا لجيراننا الأفريقيين ـ أن نبدأ بمطاردة المستعمر وتحرير القارة منه ، ثم يبدأ بعد ذلك الاصلاح •

ولقد فرضت الظروف على مصر أن تكون صاحبة النصيب الأكبر فى جهاد النهوض بشركائها فى هذه القارة ، ولقد قامت بواجبها نحو الوطن الافريقى على طول التاريخ كما سنرى : قامت به من تلقاء نفسها وبفطرتها التى برأها الله عليها ، ولكنها تجد اليوم حوائل تحول بينها وبين أداء هذه الرسالة ، وهذه الحوائل هى الأغلال الثقيلة التى قيد الأوربيون بها كل شيء فى أفريقيا ، فهم كانوا قد وضعوا الحدود وأقاموا السدود بين أقسام القارة ، ونصبوا فى كل ناحية حكومة استعمارية عسكرية لا تأذن للداخل أن يدخل أو للخارج أن يخرج الا بحساب تراعى فيه مصالح الدولة المستعمرة لا صوالح الأهلين المساكين .

ومن ثم فان المصرى ـ الذى تعود خلال العصور القديمة والوسطى أن يتنقل بين ما شاء من بلاد أفريقية معلما أو تاجرا ـ لم يعد يستطيع أن يفعل ذلك فى عصور الاستعمار ، والمصرى الذى تعود أن يرى جماعات اخوانه الأفريقيين مقبلين الى بلاده ليتعلموا أو ليستزيدوا من الخير أو ليتاجروا ، لم يعد يراهم ـ الى أوائل الستينيات من هذا القرن ـ الا اذا كان مجيئهم خلسا ، حتى الحاج منهم الى بيت الله الحرام لم يعد يستطيع المرور بمصر الا اذا أخذت عليه المواثيق والضمانات التى تلزمه بالعودة . وقد حسب أولئك المستعمرون أنهم ـ بذلك ـ أوقفوا كل تيار منعش عن أن يصل الى قلب القارة ، الا اذا كان عنطريقهم وبالقدر الذى يرون .

وقد كان لهذه السياسة الأوربية ، التى اتفق عليها الأوربيون كلهم ، أسوأ الأثر فى اتجاه القارة ، لأن الأفريقيين ، وأهل القسم الشمالى منهم بصفة خاصة ، قد انطبع مزاجهم منذ أمد بعيد على نحو معين ، ولم يعودوا يقبلون من ألوان العلم أو العقائد الا ما يلائم هذا المزاج ، وهذا المزاج العربى اسلامى فى جملته ، فان اللغة العربية كانت تنتشر بين أهل أفريقية دون معلم ، بينما كان الأوربيون يجتهدون فى انشاء المدارس لنشر لغاتهم ، فلا يصلون الى شيء يساوى عناء الجهد الذى بذل فى سبيله ، وكذلك الاسلام انتشر فى أفريقيا دون جهد كبير ، اذ ان أهل أفريقيا كانوا يتلقون ما وصل اليهم من نور الاسلام كما يتلقى الناس النسيم المنعش ، فى حين أن جماعات التبشير النصرانية كلها كانت تبذل أقصى ما تستطيع فلا تصل الى شيء يتناسب مع الجهد المبذول ، وهذه حقيقة يقررها الأوربيون أنفسهم .

وآخر ما اهتدوا اليه ـ فى عصور استعمارهم لافريقيا ـ هو ايقاف ذلك التيار العربى الاسلامى والحيلولة دون انتشاره بكل سبيل ، فكانت هذه القيود والسدود التى يحاول الأفارقة اليوم تحطيمها فى كل مكان ، وتمد لهم مصر يد المعاونة على قدر ما تستطيع .

وهذه السطور تحدد جانبا من رسالة مصر فى القارة الأفريقية ٠ وكان من الممكن أن نبسط القول فيها ، ومجال الكلام فيها فسيح ، ولكننا قلنا ــ فيما سبق من الكلام ــ اننا نرسم حدود رسالة مصر فى هذه الناحية أو تلك على ضوء ماقامت به فيها فى الأعصر الماضية ،وقلنا ان حدود مصر الحضارية هى التى ترسم لها حدود رسالتها ، فلنحاول أن نرسم حدود الحضارة المصرية فى أفريقيا قبل أن نستطرد مع الكلام ٠

***

قلنا ان مصر تشعر شعورا متصلا بأفريقيتها ، وذكرنا أن أولئك المصريين الذين يعمرون مصر العليا قد أقبلوا اليها من أقصى الجنوب ، من نواحى الصومال فيما يجاورمضيق باب المندب ٠ وبقى أن نقول انهم ــ وهم فى طريقهم الى الصعيد ــ لم يأتوا وحدهم طبعا ، وانما انضمت اليهم فى أثناء السير الطويل ، الذى تم على مدى قرون كثيرة ، جماعات من كل الشعوب التى تعمر وادى النيل من منبعه الى مصبه ، أى أن هذا الجنس الكريم الذى استقر فى مصـــر العليا واختلط بمن كان هناك من الناس ، انما يمثل سكان وادى النيل كله من منبعه الى حيث استقر بهم المطـــــاف ٠

ثم ان العلاقات المتصلة بين سكان الوادى وأهل غرب مصر الذين يسمون فى النصوص بالليبيين ، وهى علاقات سلام حينا وعلاقات حرب حينا آخر ، قد أدت الى اختلاط بشرى بين المصريين وأهل المغرب ، بل ان بعض الأسر التى حكمت مصر فى العصـــور القديمة كانت من أولئك الليبيين ، مما يسمح لنا بأن نستنتج أن الاختلاط كان قويا متصلا بين الجانبين ، وأن حضارة مصر امتدت حتى شملت أولئك الاقوام ونقلتهم من البداوة الصرفة المطلقة الى الاستقرار والسير فى مدارج العمران ، حتى بلغوا منه مبلغا مكن لهم من اقامة الدول ٠

ومن الثابت ــ على أى حال ــ أن الحدود السياسية الغربية لمصـر فى العصور القديمة والوسطى تصل الى اقليم برقة ، وقد كان هذا الاقليم جزءا من مصر الى أواخر أيام البطالمة ، وأعتبره الرومان جزءا من مصر ٠ وفى خلال العصور الاسلامية استمرت هذه التبعية الحضارية ، وان خفيت فى فترات ٠ فأما الفترات التى خفيت فيها فكالعصر الطولونى أو عصر دول المماليك ، والسبب فى ذلك أن الأخطار كانت تهدد مصر من ناحية الشرق تهديدا متصلا ، فانصرفت عن الغرب بكيانها كله انصـــرافا يكاد يكون تاما ٠ ولكن حكام مصر ظلوا يشعرون ــ مع ذلك ــ أن برقة جزء داخل فى حدودهم الحضارية، بدليل أن صلاح الدين الأيوبى أرسل أحد أخوته ليستطلع الأحوال فى برقة وليمهدها له ، حتى يلجأ اليها آل صلاح الدين اذا اختلفوا اختلافا خطرا مع نور الدين بن محمود بن عماد الدين زنكى ٠

وقد كشفت الرسوم والتصاوير التى حفرتها يد الانسان على صخور الجبال وجدران الغيران أن الكثيرين ممن استقروا فى وادى النيل قبل عصر الأسرات كانوا من الليبيين وأهل المغرب ، أى أن الحضارة المصرية فيها عنصر كبير ليبى ومغربى ، ومن الواضح أن أهل الصحراء الغربية المصرية والليبيين أبناء عمومة • وبعد أن قبست حضارة مصر القديمة من الليبيين وأهل المغرب ما استطاعت فى عصر ما قبل الأسرات ، عادت ـ بعد أن قامت الدول المصرية القديمة ـ فردت الى أهل ليبيا والمغرب ما أسلفوا • وعلى طول الساحل المصرى غربى الاسكندرية ، وفى واحات مصر فى الصحراء الغربية ، اختلط المصريون بالليبيين اختلاطا شديدا ، فالناس هناك مصريون ليبيون •

وبعد الفتح العربى ودخول مصر فى نطاق دولة تمتد حتى المحيط الأطلسى وجنوبى فرنسا ، زاد اختلاط المصريين بالليبيين وأهل المغرب ، وتحولوا جميعا الى عرب تجمعهم وحدة الدين واللسان والمصير •

نقول ذلك لأن اسلام أهل الشمال الأفريقى مصرى ، أى اسلام سنة وجماعة • فمصر هى البلد الاسلامى الوحيد الذى لم يقبل فى تاريخه الا مذهب السنة والجماعة • ولا نقول هذا الكلام انكارا منا للشيعية ومذاهبها ، ولكننا نقول هنا ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد قال انه ترك من بعده للمسلمين مالا يضلون معه أبدا : كتاب الله وسنة رسوله • ومصر حكمها الفاطميون ثلاثة قرون وهم شيعة اسماعيلية وخرجوا منها دون أن يخلفوا فيها شيعيا واحداً ، وبقايا الشيعية وما تفرع عنها خرجت الى بلاد الشام وغيرها من بلاد الاسلام حتى الهند وهناك ضربت لها جذورا مازالت باقية الى اليوم •

ولأن مصر لزمت مذهب السنة والجماعة ، وقاومت كل مذهب منحرف عن السنة ، فقد كان المغرب كله كذلك ، فالجناح الغربى لمملكة الاسلام جناح سنى صرف ، بما فى ذلك الأندلس الذى ضاع وصقلية التى عصفت بها رياح الزمان • وليس هذا « فعل » مصر بل هو أثرها ، أى أن مصر كانت أشبه بالمصفاة : لا يمر منها الى بلاد الغرب الا ما هو على مذهب سنة وجماعة • وفى مدرسة المدينة المنورة ـ دار مالك بن أنس امام دار الهجرة ـ تعلم أوائل فقهاء المغرب والأندلس ، ولكن فقهاء مصر من رجال المالكية هم أساتذة الأجيال التالية من شيوخ أفريقية والأندلس ، وسحنون أبو سعيد عبد السلام بن سعيد أكبر شيوخ المغرب تلميذ فقهاء الفسطاط : عبد الرحمن بن القاسم العتقى ، وأشهب بن عبد العزيز ، وعبد الله بن لهيعة ، وآل ابن‌عبد الحكم ومن اليهم • وفقهاء أفريقية (وهى تونس على وجه التقريب) ، هم الذين غلبوا دعاة الشيعة ورجال دولتهم فيها • وفقهاء القيروان ـ وهم المعروفون بالقرويين ـ هم الذين شدوا بنيان دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى • والدولة الأدريسية كانت دولة شرفاء من آل البيت ، ولكنها كانت دولة سنة ومذهبها كان مالكيا ، هذا

طبيعى لأن آل البيت لا يمكن أن يكونوا الا آل سنة لأن السنة طريق جدهم صلوات الله عليه ، أما الشيعة فشيعتهم ٠

وهذا يصدق أيضا عن اسلام السودان النيلى ، فهو اسلام سنى ، لأنه دخل السودان من مصر ، ومع أن اليمن أقرب الى وسط السودان من مصر ـ وفى اليمن شيعة كثيرون ـ فان الاسلام فى السودان سنى ٠

ونحن نقصد بالاسلام الدين والحضارة ، لأن الاسلام دين وحضارة ٠ ٠٠ حتى أشراف مصر والسودان وأتباعهم كلهم أهل سنة ٠

وهذه الرابطة السنية تعتبر من أوثق روابط شعب وادى النيل ٠

حقا لقد سارت بلاد المغرب ومدنه فى طريقها الحضـــارى الخاص بها ، وأصبح لكل منها شخصيتها وطابعها وخصائصها الحضارية ، كما نرى فى ناحية العمارة مثلا ، فان طراز العمارة المغربية ـ الذى تجلت ملامحه المميزة واتخذ صورته التاريخية فى جامع عقبة بن نافع ، بعد تجديده على يد زيادة الله بن الأغلب ثالث أمراء الأغالبة ، ثم ابراهيم بن أحمد تاســعهم ـ يختلف تمام الاختلاف عن طراز العمارة الاســلامية المصرية الذى ولد فى جامع أحمد بن طولون ، ولكن الاشعاع الحضارى من الفسطاط الى سائر الغرب الاسلامى ظل عاملا متصلا حيا على مر العصـــور ٠

ولا حاجة بنا الى الاشارة الى ما يلاحظه كل زائر لتونس حتى اليوم من تشابه الطابعين الحضاريين المصرى والتونسى ، والى ما قبل الاحتلال الفرنسى لتونس سنة ١٨٨١ كانت مصر هى الوجهة الحضارية لتونس ، وكان أهلها يعتبرون مصـــر هى المركز الكبير الذى يستطيعون الاعتماد عليه فى كل حين ٠

واذن فالحدود الحضارية لمصر تصل بصورة واضحة كل الوضوح الى تونس ، وهى تمتد الى ما يلى ذلك امتدادات تصل فى بعض الأحيان الى المحيط الأطلسى ٠ والثابت ـ على أى حال ـ أن تونس كانت خلال العصور الوسطى داخلة فى النطاق الحضارى المصرى ، وأن التونسى أو القيروانى قريب فى لهجة الكلام والذوق العام من أهل مصر ، وأهل القاهرة ومحافظة البحيرة على الخصوص ٠

وقد اســـتقلت تونس اليوم بشخصيتها وحضـــارتها ولكن روابط الماضى لازالت تربط بينها وبين مصر ٠

وصلات تونس بمصر فى العصر الحديث موضوع طريف يحتاج الى دراسة ، فقد عملت الظروف كلها على تفريقهما وقطع الصلات بينهما ، ففى خلال النصـــف الأول من القرن الثامن عشـــر لا نكاد نلمح علاقة

سياسية بين الناحيتين ، بل كادت فرنسا تغرى « محمد على » بغزو تونس لحسابها ، ولكن الباب كان مفتوحا بين الشعبين ، فكان التونسيون يفدون الى مصر فى طريقهم الى الحجاز أو كانوا يلمون بها للدرس أو للاستقرار فيها . وفى تاريخ رواق المغاربة فى الأزهر ما يدل على ذلك بأبلغ بيان ، ومازال بين ظهرانينا أحفاد المهاجرين التونسيين الذين وفدوا الى مصر خلال القرن الماضى ، ولابد أن الذين عادوا الى بلادهم من أولئك الوافدين أكثر ممن أقاموا . ومن الطريف أن عددا كبيرا من الجالية اليهودية المصرية أصلهم من يهود تونس ، هاجروا الينا وتمصروا .

واستمرت الصلات بين البلدين حتى نهاية العقد الثامن من ذلك القرن التاسع عشر . ومن غريب المصادفات أن تونس وقعت بين براثن الاحتلال الفرنسى قبل أن تقع مصر فريسة للانجليز بسنة واحدة . ومن الطبيعى أن يقفل الباب بين الجانبين بسبب سياسة الانجليز فى مصر من ناحية ، وسياسة الفرنسيين فى تونس من ناحية أخرى . ولقد بذل الفرنسيون أقصى ما استطاعوا من جهد لفصل تونس عن بقية أمم الشرق الاسلامى ، ومصر أولاها ، وفتحوا الباب على مصراعيه لمهاجرة الايطاليين حتى كادت جاليتهم تكون خطرا على الكيان البشرى لتونس .

ولكن ذلك كله لم يغن الفرنسيين شيئا ، واستمرت تونس اسلامية عربية ذات طابع شبه مصرى لأن مصر هى أول مايلقى التونسى المتوجه الى المشرق ، وهى كذلك أضخم بلاد الشرق العربى ــ مع استقلالها وشخصيتها المتميزة ــ ومن أوفرها حضارة ، ومن ثم فان التونسى يقنع بما يجده فيها ، فاذا كان طالب علم درس فيها ، واذا كان حاجا أراح فيها فى الذهاب واحتقب منها ما استطاع فى الاياب ، أما اذا كان مهاجرا فهى حسبه ، وفيها عماعداها غناء . ومن ثم فلا غرابة فى أن نقول ان الحضارة التونسية الشرقية انما هى فى الواقع امتداد للحضارة المصرية ، ولا غرابة فى أن نجد اللهجة التونسية أقرب اللهجات الى اللهجة المصرية ، والتونسى الوافد على مصر ما أن يقر فيها أسبوعا حتى يجرى لسانه بلهجة أهلها ، ويندمج فيهم فلا تكاد تميزه من بينهم بشىء .

ولا يظهر هذا الأثر المصرى بصورة واضحة فى الجزائر ، وذلك نتيجة لظروف الجزائر التاريخية . فهذا البلد الذى يعد من أجمل بلاد العروبة والاسلام فى أفريقيا لم ينعم بالرخاء والاستقرار الا فى فترات صغيرة من تاريخه ، لأنه كان فى أغلب الأمر نهبا موزعا بين جارتيه تونس ومراكش ، وقد كان جزؤه الغربى فيما بين نهرى شلف وملويه يعرف فى العصور الاسلامية باسم المغرب الأوسط .

ولكن الشعب الجزائرى ظل دائما شعبا عفيا محاربا شديد التعلق بالاسلام ، وقد غلب على سكانه الطابع العربى بعد الغزوة الهلالية التى بدأت من منتصف القرن الخامس الهجرى ، لأن طبيعته الجغرافية قاسية ،

وموارد المياه فيه شحيحة ، ولابد من عمل شاق طويل حتى يتوافر الماء اللازم لقيام العمران الغزير · ولم ينعم القطر الجزائرى خلال العصور الوسطى بدول طويلة العمر عظيمة القوة تستطيع سيادة الاقليم كله ، واقرار السلام فى جوانبه وتقوم بمشروعات المياه الضخمة التى تحتاج الى العلم والوقت والمال ، كما يحدث فى جزائر اليوم ، فظلت الدول تقوم فيه وتسقط ابتداء من الدولة الرستمية التى قامت سنة ١٦٤ هـ وكانت عاصمتها تاهرت ، ثم ان حدود الاقليم الجزائرى ظلت متغيرة غير ثابتة طوال العصور الوسطى ، فان شرق الجزائر وما يعرف الآن بمحافظة قسنطينة وما يليها غربا مما كان يسمى بالزاب ، كان داخلا فى أفريقية (أى تونس) من الناحية السياسية ·

والى حين قريب كان الكثيرون منا يتابعون ما زعمه مؤرخو الفرنسيين من أن الجزائر الاسلامية لا تاريخ لها ، وأنها لم تأخذ شكلها السياسى الا خلال القرن السابع عشر الميلادى عندما استولى عليها الأتراك العثمانيون وحولوها الى ولاية عثمانية بحدودها الحالية تقريبا · وعلى الرغم من أن الأتراك لم يخطوا بالجزائر خطوة الى الأمام فانهم أدوا لها أجل الخدمات ، فقد قطعوا عنها غارات الأسبان وطردوهم منها ، وتحدد بذلك مصير الجزائر كقطر عربى اسلامى خالص ·

وخلال تلك الأحقاب المتطاولة التى مرت بالجزائر الاسلامية حافلة بالأحداث والحروب والآلام ، استمر الاشعاع الحضارى المصرى يصل الى الجزائر ويربطها الى مصر وأخواتها فى العروبة والاسلام ، وخاصة بعد أن انفتح الطريق على مصراعيه بين البلدين على يد الفاطميين · ولقد كانت قبيلة كتامة ــ التى قامت بعبء الدولة الفاطمية ــ قبيلة جزائرية ، ومعظم الجند الفاطمى الذى فتح مصر تحت راية جوهر الصقلى كان كتاميا جزائريا ، وهذا الجند الكتامى الكثير نزل مصر واستقر فيها وتمصر مع الزمن ، فكان واشجة قرابة بين البلدين ، ولاشك كذلك فى أن الكثيرين من الكتاميين عادوا الى بلادهم حاملين أقباسا من حضارة مصر ·

وتشاء الظروف أن تكون الغزوة الهلالية ــ وهى التى وضعت الأساس المكين لعروبة الجزائر ــ صادرة من مصر · فمن مصر خرج العرب الهلالية ومنهم : بنو رياح والمعقل والاثبج والزواودة ، وانتشروا بعد ذلك فى نواحى تونس والمغرب الأوسط ، أى الجزائر ، فمدوا بذلك خيوطا بشرية وحضارية زادت البلدين قربا · وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن الغزوة الهلالية فاننا لا نعرف عن حقائقها وآثارها الا القليل ·

وبعد أن احتل الفرنسيون الجزائر ابتداء من سنة ١٨٣٠ أخذ الجزائريون يتطلعون الى مصر تطلعا شديدا ، فقد كانت فى نظر أهل الدين والفكر والرأى منهم موئل العروبة والاسلام ، وكانت العروبة والاسلام

هما الصخرتين اللتين عصمتا الجزائر من أن يعصف بشخصيتها الغزو الثقافى الدينى الفرنسى • فعلى الرغم من الستار الحديدى الذى ضربه الفرنسيون على هذا القطر الجليل ، فان تيار طلاب الجزائر لم ينقطع عن مصر أبدا : كانوا يتخطون الحدود ــ رغم الرقابة الفرنسية ــ ويتجهون الى بيت الله الحرام ، ثم يدرسون فى الأزهر فى القاهرة ، وفى الغالب كانوا يعودون الى بلادهم حاملين زادا وافرا من العلم الاسلامى العربى •

وكانت كتب مصر تتسـرب الى الجزائر بكل طريق ، ومن أغرب ما كشف عنه البحث أن كل كتابات جمال الدين الافغانى ومحمد عبده تسربت الى الجزائر وقرئت فى حينها ، وعلى هذه الكتب قامت فى الجزائر حركة الاصلاح التى قادها عبد الحميد بن باديس ، وهو من أجلاء قادة الاصـلاح والنهوض فى تاريخ العرب الحديث ، ومما يجهله الكثيرون أن محمد عبده زار الجزائر من منفاه فى باريس واجتمع بعلمائها وأخذوا عنه ، فكانت زيارته القصيرة للجزائر من أكبر بواعث النهضة الفكرية الجزائرية •

واذا استطردت الى مايلى ذلك غربا ، أى الى المملكة المغربية ، أحسست بالأثر المصرى يبدو من جديد ، والسبب فى ذلك أن المغرب الأقصى قطر منظم قوى ، ومركز للممالك والدول من أقدم العصور الاسلامية ، وهو الذى شاد دولا مجيدة كالدولة الادريسية ثم الدولة المرابطية ــ وهى دولة اسلامية باسلة أنقذت مصير الاسلام فى الأندلس من الضـياع فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وفتحت أبواب أفريقيا المدارية للاسلام ــ ثم الدولة الموحدية التى تعد من أجل دول الخلافة فى تاريخ الاسلام شرقا وغربا ، ثم تلتها دول مجيدة أخرى أهمها الأشراف السـعديون ثم الأشـراف العلويون ، والى المغرب الأقصى صار جزء كبير من تراث الأندلس بعد ضياعه ، والى بلاده كانت هجرة الألوف من أهل الأندلس حاملين تراثا حضاريا ضخما •

واذا كانت مصر قطب حضارة الشمال الأفريقى من ناحية الشرق ، فان المغرب الأقصى قطبه الغربى ومنتهاه ، والتبادل بشتى صوره السياسية والحضارية يكون على أقواه وأدومه بين الجماعات القوية المنظمة • ومن ثم فلا غرابة فى أن نجد الاتصال الحضارى بين مصر والمغرب ظاهرا متصلا نستطيع أن نؤرخ له • ويكفى أن نذكر فى هذا المقام ركب الحجاج المعروف بالركب المغربى ، الذى كان يخرج من فاس ومراكش للحج ، ويلم بمصر شهورا طوالا فى الغدو والرواح ، فقد كانت القافلة تصل فى بعض الأحيان الى الخمسين ألف انسان ، وتصـور أنت ما يمكن أن يكون من الأثر لخمسين ألف انسان ينتقلون كل عام من المغرب الى مصر فالحجاز ، ومن الحجاز الى مصر فمراكش •

وفى أثناء عصور الاستعمار الفرنسى الأسبانى للمغرب ، كانت المنطقة الشمالية التى كان الاسبان يحتلونها ـ وكانت تسمى بالمنطقة الخليفية ـ على أوثق الصلات الثقافية بمصر ، فقد سمح الأسبان لأهلها بالاتصال بمصر ، فأنشأ أهلها دار المغرب فى القاهرة ووفد طلابهم على مصر يدرسون فى معاهدها جيلا بعد جيل ، ودخلت الأفلام المصرية بلاد المغرب ، حاملة اللهجة المصرية التى أصبحت مألوفة عند معظم الناس هناك ·

ولقد زرت هذه المنطقة ونزلت تطوان سنة ١٩٥٣ فأحسست بتطلع شديد نحو مصر ، وراعتنى مظاهر التأثير الفكرى المصرى ، بل استرعى انتباهى ذات مرة أن « السلام » القومى الذى كانوا يعزفونه للخليفة (أى ممثل سلطان المغرب فى المنطقة) كان السلام المصرى القديم ·

وعندما انتقلت الى طنجة ، عجبت لما وجدت فيها من مظاهر الاتصال الروحى بمصر ، وبحسبى أن أقص هنا قصة ، يغنى مغزاها عن كلام كثير : ففى سنة ١٩٤٧ ألم بهذا البلد الصحفى المصرى المعروف المرحوم محمود عزمى فى وفد صحفى ، ووقف ذات مرة بساحل البحر يستجم وحده ، فاذا بصوت يهيب به : « أين القبعة يادكتور ؟ » فوجم الرجل ، اذ ان قائل هذه العبارة لابد أن يكون قد تابعه فى حياته كلها ، فان محمود عزمى رحمه الله عندما عاد من دراسته فى أوربا كان متحمسا للحضارة الغربية وأصر على أن يحتفظ بالقبعة فى مصر ، فكان ذلك مثار أحاديث الناس وتنادرهم ، وكتبت الصحف فى ذلك ، واشتهر أمر الرجل بذلك ، وقد خلع محمود عزمى القبعة بعد ذلك وتطربش ، ومرت على ذلك سنون ، حتى نسى الناس فى مصر قبعته وحكايتها ، ولهذا كانت عبارة هذا الطنجى مثار أعمق عاطفة انسانية فى قلب ذلك المصرى الكريم ، الذى أطربه أن يجد على ساحل الأطلسى من يعرف عنه ذلك كله ، فاعتنقه اعتناق الشقيق ! وقد قص على هذه القصة صاحبها الطنجى ، وهو معروف لكل من يلم بطنجة من المصريين ·

ويتصل بهذا الاشعاع الحضارى المصرى نحو الغرب اشعاع آخر يتجه غربا بجنوب ، فيصل الى نواحى السنغال · وربما دهش المصرى اذا علم أن هناك ـ بين السنغال وما يتصل به من ليبيريا وساحل العاج وساحل الذهب ، من ناحية ، ومجرى النيجر الأعلى من ناحية أخرى ـ اقليما يكاد يكون ذراعا حضارية طويلة لمصر هو اقليم شنقيط أو شنجيط ، وهو اليوم جزء من جمهورية موريتانيا الاسلامية ، وأهله هم الشناجطة المعروفون فى مصر ، فلهم فيها جالية تمصرت من زمن طويل ·

والقرون الماضية تقص قصة الركب الشنجيطى الذى كان يخرج من هذه الناحية القصية ليحج الى بيت الله الحرام ، فيلم بمصر ويطيل المقام

بها ، وربما تخلف الكثيرون من أفراده أعواما فى مصر ريثما يتزودون بزاد العلم ، ثم يعودون الى بلادهم ٠

ولقد ازدهر أمر شنقيط وزخرت نواحيها بالعلم والعلماء ، وكلهم تلاميذ مصر فى العلم وطراز الحضـارة ٠ والتاريخ الوحيد الذى كتب لشنقيط وعلمائها وحضارتها كتب فى مصر ، كتبه شنقيطى فاضل استقر فى بلادنا وتمصر ، واسم كتابه « الوسيط فى معرفة أدباء شنقيط » ، وأنت لا تقلب من ذلك الكتاب صفحة الا خيل اليك أن قطعة من مصر قد انتقلت الى حدود السنغال !

وعلى طول طريق الركب الشنجيطى قامت أمم مر بها نسيم مصر الرقيق عاما بعد عام وقرنا فقرنا ، أمم لا تعرف غير مصر مطلعا لنور العقيدة وموئلا لذخائر العرفان ٠ وقد ذكر ابن خلدون هذه الشعوب على أيامه ، وأورد ما أمكنه من أخبارها كما سمعها ممن وفد على مصر للدرس من أبنائها ، وسنذكرها بترتيبها الذى ذكره فى تاريخه ، مع مخالفته للنسق الذى نسير عليه ٠

فنحن الآن بسبيل حصر هذه الأمم من الغرب الى الشرق ، أما ابن خلدون فيرتبها على العكس ، من الشرق الى الغرب ، فيبدأ بالحبشـة « ويليهم البجارة ، وهم نصارى ومسلمون ولهم جزيرة بسواكن فى بحر السويس ، ويليهم النوبة اخوة الزنج والحبشة ، ولهم مدينة دنقلة غرب النيل وأكثرهم مجاورون للديار المصرية ، ومنهم رقيق ، ويليهم زغاوة ، وهم مسـلمون ، ومن شـعوبهم تاجوه ، ويليهم الكانم ، وهم خلق عظيم ، والاسلام غالب عليهم ، ومدينتهم حيمى ، ولهم التغلب على بلاد الصحراء الى فزان ، وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية من أولها ، ويليهم من غربهم « كوكو » وبعضـهم نغالة والتكرور ولى وللم وجاى وكورى وأفكزاو ، ويتصلون بالبحر المحيط الى ناحية الغرب » ٠

أى أن أفريقية المدارية كلها كانت ، فى القرن الرابع عشر الميلادى ، شديدة الصلات بمصر ، كان أهلها يفدون على بلادنا للعلم والتنور ٠ وقد بقيت فى مصر جماعات كبيرة ممن وفد منهم عليها ، ولازالت نواح من مصر تحمل أسماء أولئك الأقوام ، خذ مثلا الناحية المسـماة ببولاق الدكرور ، فهى منسوبة الى أمة التكرور ، وكانت تسكن غربى كردفان ، فيما يعرف الآن باسم جمهورية تشاد وجمهورية النيجر ٠

بل ان الصلات بين مصر وتمبوكتو ، كبرى مدائن حوض النيجر الأوسط فى العصور الوسطى ، كانت طوال هذه القرون موصولة لم يوقفها الا التدخل الأوربى فى العصر الحديث ٠ وقد كان الأوربيون يظنون أن تمبوكتو هذه ناحية مجاهل لا يعلم أمرها الا خالقها ، وتصدى نفر من الأوربيين لكشفها ، فلم يجدوا اليها سبيلا الا عن طريق القاهرة ، وتستطيع

أن تقرأ قصص الكاشفين من أمثال مونجو بارك وفردريك هورنيمان ورينيه كاييه وهاينريخ بارث لتتبين تعجبهم من وصول نور القاهرة الى هذه النواحى القاصية الخافية وراء الرمال ، ولكن هؤلاء جميعا ، بل أوربا كلها ، لا تعلم شيئا عن سر مصر ورسالتها فى القارة التى جعلها الله فيها :

انها الأم ومنبع النور ، وهذا فى ذاته حقيقة يثبتها التاريخ فى كل حين ، وتحمل مصر على ادائها واعية أو غير واعية ، كما تغذو الأم بنيها بطبع ساذج ركبه الله فى خلقتها ٠

ونحن لو استرسلنا مع ابن خلدون فيما يذكره عن ارتباط هذه الأمم بمصر فى العصور الوسطى ، وما كان بينهما من علاقات لملكنا العجب ، مع أن مصر لم تكن لها اذ ذاك سياسة مرسومة فى هذا الصدد ، وهو يروى ما يقوله عن رجل من أهل التكرور يسميه « صاحبنا المعمر ابا عبد الله بن خديجة الكومى » كان يقيم فى مصـــر ويقوم بعمل المترجم بين أهل هذه النواحى والمصريين ، ولا يتسع المقام للتفصيل ، وانما حسبنا ما تدل عليه السطور ، وهو ليس بالقليل ٠

ونجتزىء من ذلك كله بمثلين يسيرين نتخيرهما لأنهما يدحضان زعمين قد يلجأ اليهما الناس ، أولهما أن وقوع مصر فى طريق الحج هو الذى هيأ لها القيام بهذا الدور ، والثانى أن مصر لم تقم بهذا الا فى عصور الاسلام ٠

فأما المثل الذى يدحض الزعم الأول فهو انتشـــار المســـيحية ثم الاسلام فى السودان الشمالى عن طريق مصر ، فلقد دخلت المسيحية بلاد النوبة تنفيذا لسياسة الكنيسة المصرية ، ولقد جاهد أحبار هذه الكنيسة جهادا طويلا حتى نشروا المسيحية فى ممالك السودان الثلاث فى العصور الوسطى ، وهى ـ بحسب ترتيبها من الشمال الى الجنوب ـ النوبة ثم مقرة ثم علوة ٠ وقد كتب الرحالة المصرى كوسماس المعروف بالبحار الهندى بين سنتى ٥٣٧ و ٥٤٧ الميلاديتين يقول ان الكنائس المســـيحية منتشرة بين النوبيين وكذلك الأساقفة والرهبان والشهداء ٠ هذا ، ولم يكن فى المسيحية اذ ذاك مواضع حج يرحل الناس اليها ، وانما الحقيقة هى أن المصريين هم الذين أوغلوا فى السودان ونشروا المسيحية فيه ٠

وحدث مثل هذا فيما يتصل بانتشار الاسلام فى شمال السودان ، فقد حمله المصريون أو العرب النازلون بمصر ، وهم مصريون ، دفعتهم الى ذلك طبيعة البلد الذى استقروا فيه واتخذوه وطنا ، والا فلماذا لم يدخل العرب الاسلام من جزيرتهم ، والعبور منها الى السودان أيسر ، وكانت حركة انتقالهم من الجزيرة الى السودان عبر البحر الأحمر مستمرة طوال العصور الوسطى ؟ لماذا لم يحمل الاسلام الى النوبة ومقرة وعلوة

الا عرب مصر دون عرب الجزيرة أجمعين ؟ ولماذا تسود ثقافة مصر بلاد السودان ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادى ـ مع أن مصر ليست فى طريق الحج من السودان ، وانما كان الناس هناك يحجون عبر البحر ؟

والمثل الثانى ادخال المصريين للمسيحية فى الحبشة • وأين مصر وأين الحبشة ؟ ولكن طبيعة مصر ووظيفتها فى القارة الافريقية فرضت عليها هذا الواجب ، فلقد حمل هذه الديانة الى الحبشة حبران مصريان فى خبر لطيف أسطورى الطابع ، ولكنه لا يخلو من دلالة ، وهذان الحبران هما اللذان أنشآ الكنيسة الحبشية • وجعلاها تبعا للكنيسة المرقسية المصرية ، ومازال الأمر على ذلك الحال الى الآن ، وهو يدلنا على أن مصر تقوم بهذه الرسالة فى افريقيا من قبل الاسلام بزمن طويل ، ولأسباب اخرى غير وقوعها على طريق الحاج ، وهذه الأسباب هى موقعها الجغرافى وطبيعة أهلها واتجاه تاريخها •

ونحن لا نذكر هذا الكلام تغنيا بفضل ، وانما تقريرا لحقيقة ، حقيقة مسعدة لأهل هذا البلد ، لأن السعيد فى الدنيا من كانت حياته رسالة خير للآخرين ، وينبغى أن تكون مسعدة لجيرانها ، لأن الجار الذى لا يحمل الا الخير انما هو نعمة من نعم الدنيا • وليت العالم كله جيران على هذا المنوال !

ورب من يقول ان مصر قامت بذلك لخيرها المباشر أو لنفعها المادى، والتاريخ الصريح أمامك ، لا تجد فيه دليلا واحدا يؤيد ذلك ، ولو من بعيد • فان مصر أعطت افريقيا هذا الذى رأيته كله ، فماذا كسبت منها ؟ لقد أنشأت مصر امبراطوريتها دائما فى بلاد آسيا ـ وسنفصل أمر ذلك فى حينه ـ ولكنها لم تطمع يوما ما فى جار أفريقى ، ولم تقتض أحدا منهم شيئا ، وأنصع الدلائل على ذلك أن الفتح المصرى للسودان على أيام محمد على كان فتح حضارة لا فتح سياسة ، وقد رافق الحملة المصرية نفر من علماء مصر أفاد منهم السودان بعد ذلك أعظم الفائدة •

أما ما وقع فى أثناء الحملة من بعض أعمال القسوة ، فالمسئولون عنه نفر من أتراك محمد على نفسه وأهل بيته ، وقد ظلموا أهل مصر قبل أن يظلموا أهل السودان • ولكن يكفى مصر من حملت الى السودان من أهل العلم ، ويكفيها أن مهندسيها ـ وهم من أبناء الفلاحين المصريين ـ هم الذين أنشأوا الخرطوم عاصمة السودان اليوم وأكبر مدائن أفريقيا فيما بين أسيوط ومدينة الكاب • ولو لم يكن للمصريين غير هذا لكان حسبهم ، وهو أنصع دليل على طبيعة رسالتهم فى السودان أولا وفى بقية القارة الأفريقية بعد ذلك : رسالة خير وعمران وانشاء •

ونحن قد أنشأنا فى السودان هذا البلد ، فأين ما أنشأه غيرنا ممن يزعمون أنهم أكثر حضارة منا ، وأنهم أهدوا الى السودان فوق ما أهدينا

اليه ؟ ان المسألة ليست بما عندك بل بما تعطى مما عندك ! فقد نكون أقل من أولئك الخصـــوم مالا وثروة ، ولكننا أعطينا القليل الذى لدينا ، أعطيناه كله ، وهذا ــ آخر الأمر ــ محك القيم الانسانية وميزان العواطف البشـــــرية ٠

ويصعب الأمر لو ذهبنا نستقصى اشعاعات مصر فى أفريقية ، فان القارة ضخمة وتاريخها طويل ، وعلاقات أجزائها جميعا بوادى النيل أوغل فى القدم وأبعد فى الاتساع من أن نستطيع احصاءها كلها ، وانما أردنا بهذا أن نصل الى تأييد هذه الحقيقة التى ترسم رسالتها فى أفريقية : وهى أن مصر كانت ــ دائما وفى كل عصر ــ منبع الحضارة الأفريقية ومصدرها ، فما اتصل بمصر من بلادها تحضر وتقدم فى مدارج الرقى ، ومالم يتصل بها بقى مكانه حتى استولى عليه أهل الغرب واستعمروه وفرضوا عليه لغتهم وحضارتهم فرض سياسة واستغلال ، ليصبح فى عداد المستعمرات ، يجرى فيه الناس على الفطرة ، ويستغلهم الأوربى كيف شاء ، بل يرفض أن يساويهم بنفسه ، ويحرمهم من أن يكون لهم صوت فى ادارة بلادهم ، ويسن قانونا يعتبرهم به مواطنين من الدرجة الثانية ، بل لا يعتبرهم مواطنين أصلا ، أين هذا كله من بلد يقف الآن على قدميه ويجرى فى ميدان الحضارة أشواطا ما كانت تخطر بالبال ؟

فاذا لم يكن هذا أثر مصر فأثر من يكون ؟

* * *

وهنا موضع كلمة لابد أن نقولها فى علاقة مصر بالسودان ٠

فان مصر والسودان شعبان شقيقان يعمران وادى النيل من منبعه الى مصبه تقريبا ٠ ومصر لم تطمع أبدا فى وطن السودانيين ٠٠ ومحمد على عندما بدأ فتح السودان كان يرمى الى استقلاله ، أما المصريون الذين ساروا معه فما فكر واحد منهم فى أن يصبح السودان جزءا من مصر بل هم ذهبوا الى وطن ثان لهم ، بل ان معظم الضباط والجنود المصريين فى السودان تزوجوا هناك وأنشأوا أسرا ٠ ولو سارت الأمور سيرها الطبيعى لصار البلدان بلدا واحدا ، ولكن الانجليز تدخلوا وفصلوا مصر عن السودان ليجعلوا منه مستعمرة انجليزية ، ثم ركزوا جهودهم على جنوب السودان على أمل أن يجعلوا منه وطنا انجليزيا نصرانيا ، ولم يكن هذا حبا فى أهل جنوب السودان أو رغبة فى تحضرهم ، بل ســـعيا الى تفتيت وادى النيل ، ومن أسف أن بعض اخواننا فى جنوب السودان جازت عليهم الحيلة وظنوا أن مستقبلهم هو الانفصال عن السودان وانشاء دولة خاصة بهم ، وهذه دسيسة انجليزية أوربية ، فلاضير فى أن تكون فى جنـــوب السودان جماعات مسيحية ، فان فى مصر أيضا اخوة مسيحيين يفخر بهم

هذا البلد ولا يجعل بينهم وبين اخوانهم المسـلمين أى فاصل ، فكلنا مصريون ، وكلنا مشاركون فى بناء مصر ، وهذا وطننا جميعا وليس لنا وطن غيره ، ونحن فخورون بأقباطنا سعداء بهم ومعهم . وفى ثورة سنة ١٩١٩ أثبت أقباط مصر أنهم أصدق وطنية مما ظن الانجليز ، فقد هبوا للدفاع عن وطنهم المصرى جنبا الى جنب مع اخوانهم ، وبهذا ضربوا للدنيا كلها مثلا عاليا فى الأخوة الوطنية وكيف تسمو على أى اعتبار(١) .

وليس فى مصر رجل واحد يطمع فى شبر من أرض السودان ، فأرض السودان لأهل السودان ، وانما نحن أخوان شقيقان لكل منهما بيته وأهله، ولا كلفة بينهما فمصر بلد كل سودانى ، والسودان بلد كل مصرى ، ومهما بلغ حب الواحد منا لأخيه فان هذا لا يأذن له فى أن يمس شعور أخيه بالسيادة فى بيته .

ان هذا هو عصر الدول الكبرى ، فمصر كبيرة بالسودان والسودان كبير بمصر ، ونحن معا يمكننا أن نحمى وادى النيل كله لشعبينا دون أن يجور أحد منا على أحد ، واذا تصـور سودانى من أهل الجنوب أنه يستطيع أن ينشىء وطنا مسيحيا جنوب السودان فلينظر فى أمر بوتسوانا وأنجولا وموزامبيق وسـوازيلاند وليسـوتو مما يجاوز جنوب أفريقية ويخضع لها ويأتمر بأمرها فعلا ، فهل هذا هو ما يسعون اليه ؟

اننا لا نرضى لهم هذا المصير ، ومن واجبنا أن نقول لهم : ان الغرب يلقى بدسائسه فى قلوبهم ليفتت وادى النيل ، وينفرد أهل الغرب بشعوبه واحدا واحدا ، ونحن أقوياء اذا اجتمعنا ، وضعفاء اذا تفرقنا ، والدين لا يمكن أن يكون فاصلا بين مواطن ومواطن .

لقد كان وادى النيل كلا واحدا من مائة عام ، ففرقتنا بريطانيا الى دولتين ، والآن تحاول أوربا كلها أن تجعلنا ثلاثة ، وهنا يضيع أمرنا جميعا .

فلنحافظ على وحدة مصر ووحدة السودان ، وليأت الى مصر أى سودانى يريد أن يطلب العيش ، ويذهب الى السودان أى مصرى يطلب أرضا يزرعها ، فستظل الأرض دائما سودانية ، ولكن الخير سـيعمنا جميعا ..

---

(١) ولفظ الاندوجو لفظ سواحلى ، وهى اللغة العربية الافريقية . وقد نشأت فى جنوب مصر ، وامتدت منها الى البلاد التى ذكرناها وفى أيامنا هذه تنشأ جماعة الاندوجو ، أى جماعة حوض وادى النيل وهى مصر والسـودان وأوغندة وكينيا وزائير وجمهورية أفريقيا الوسطى والحبشة ونيجيريا .

فلننشىء شــــركات مصــــرية ســــودانية كما ينشىء الفرنسيون والبلجيكيون شركات أوربية ٠ اننا أهل وادى النيل نســــتطيع أن نطعم أنفسنا وأهل أفريقية كلها اذا كنا عقلاء أذكياء ، وكفانا أن الانجليز عبثوا بنا مرة ، فحذار أن تعبث بنا أوربا وأمريكا مرة ثانية ٠ لنؤمن بوحدة وادى النيل : وحدة قلوب ومصالح وتعاون مع استقلال كل منا بوطنه ، واذا أصغى بعضنا لنداء الحبشة ، فهو جد واهم ، فالحبشة تستعمر بلدا عربيا كريما هو أريتريا ، والحبشة ليست مستقلة فى الرأى أو السياسة وهى دولة صديقة ولا أكثر ٠ وهى دولة فقيرة تعيسة ٠٠ فكيف تعين غيرها على الخروج من الفقر والتعاسة ٠

ان هدفنا الأخير ينبغى أن يكون اتحاد وادى النيل : مصر والسودان وأريتريا وأوغندا وروواندا وبوروندى ٠ اتحاد قلوب واقتصاد ومصالح لا يمس الاستقلال القومى لكل منا ، ولو وفقنا فى ذلك لأبرزنا للعالم قوة أفريقية كبرى تساهم فى تقدم أفريقيا بأكبر نصيب ٠ هنا تحل رسالة وادى النيل محل رسالة مصــر لأن الخير والحضــــارة والرخاء هى الغاية فى النهاية ٠

مصر والبحر المتوسط

خطر ببالى أن هذا العنوان قد يثير فى ذهن القارىء سؤالا أساسيا فى دراستنا هذه : أنحن من الشرق أم من الغرب ؟

ان المفهوم الشائع أننا من الشرق ، بل اننا درجنا فى السنوات الأخيرة على أن نعتبر ذلك جزءا من كياننا الذى يقرر مصايرنا ، ورسمنا جانبا كبيرا من سياستنا على ذلك الأساس ، واعتبرنا أنفسنا ممثلين للشرق ، فاذا قيل : الشرق ، صغت آذاننا وقلوبنا ·

والواقع أن ذلك الوضع فى الشرق ليس « طبيعيا » بالدرجة التى نتصور ، ولم يكن هو وضعنا دائما على مدار التاريخ ·

وحضارتنا – الى ما قبل الفتح العربى – لم تكن شرقية ، واتجاهنا – من مطالع العصر الحديث – ليس اتجاها شرقيا خالصا ·

بل كان العرب أنفسهم فى حيرة من وضعنا ، فجعلنا بعضهم فى المغرب ، ومن أولئك ابن سعيد المغربى ، وهو من كبار الجغرافيين المسلمين، وتبعه فى ذلك أبو الفدا · وقد فعل ابن سعيد ذلك عندما قسم العالم الى قسمين ليختص كلا منهما بكتاب ، فوضع مصر فى المغرب ·

وعندما قسم الرومان دولتهم – على أيام دقلديانوس – قسمين كبيرين : أحدهما شرقى والآخر غربى ، جعلوا مصر فى الشرقى ، ولكن ذلك لا يعنى شيئا ، لأن دقلديانوس اختار أن يكون امبراطورا على القسم الشرقى نظرا للأخطار التى كانت تتهدد الدولة كلها ، وترك زميله يحكم القسم الغربى · وقد وضع مصر فى قسمه لأنها كانت أغنى ولايات الامبراطورية ، ولم يكن من الحكمة أن يدعها من نصيب شريكه فى الدولة · ولكن الواقع أن علاقات مصر بما يليها شرقا كانت قليلة جدا ، وانما كانت علاقاتها المتصلة مع أمم البحر المتوسط ، وكان مجال حياتها أيضا حوض ذلك البحر ·

وعندما انفصل قسما الامبراطورية الرومانية أحدهما عن الآخر ، كانت مصـــر طبعا من نصـــيب الشرق ، وأصبحت بذلك تعيش فى مجال الدولة الشـــرقية التى عرفت بالبيزنطية ، وهى المعـــروفة عند العرب بدولة الروم ، وأخذت تتصـــل علائقها بما يليها من بلاد آســـيا ، فكأنما كان ذلك تمهيدا للفتح العربى ، ولانضـــواء مصـــر تحت راية الشرق جملة ، وبدء ذلك التاريخ المصرى الشرقى الطويل ·

ونحب الآن أن نمضى مع حضارة مصر الأصيلة ، حضارتها قبل الرومان واليونان ، لنرى أين تضعها هذه الحضارة ، والى أى الجانبين تميل بها :

واذا أنت تأملت آثار مصـــر القديمة لاحظت أنها تبعد فى روحها ودلالتها عن المتعارف عليه من طبائع الشرق القديم المعروف ·

فان مجتمع الشرق قام على أساس ابعاد المرأة عن الحياة العامة ، واعتبارها جزءا من البيت لا جزءا من الحياة ، وقام على أساس السماح للرجل بالاستكثار من النساء كما يستكثر الناس من المتاع ، وفى مصر القديمة لم يفعل هذا الا كبار الأغنياء ، وهم يفعلونه فى كل مكان وزمان ·

ونحن لا نذكر ذلك لمجرد أنه حقيقة من حقائق شتى ســـتنتهى بنا الى تحديد طابع الحضـــارة المصـــرية الذى ســيعين لنا مكانها بين حضـــارات البشـــر ، بل لأنه ناحية هامة من نواحى امتياز هذه الحضارة التى جعلتها أساسا لأعرق وأخلد ما عرف من حضارات ·

ذلك أن المجتمع الانســـانى لا يســـتقيم ســليما صحيح التكوين الا اذا قام على أسس انســـانية ســـليمة ، والأسس الانسانية السليمة لا تكتمل للمجتمع الا اذا أخذت المرأة مكانها الطبيعى فيه ، وســـاهمت فى جهد المجتمع كله على أســـاس الحرية والانســـانية والمساواة التى لا يقوم مجتمع بغيرها ، فلم تعـرف الحضـــارات البشـــرية مجتمعا ســـليما ثابت الأركان قام على الحجر على النســـاء أو امتهانهن أو ابعـــادهن عنه ميدان العمل والـــكفاح ، ولم تعرف مجتمعا ســـليما لا تتمتع المرأة فيه بالســـيادة التى تمكنها من القيام بواجبهـــا الطبيعى كأم وسيدة بيت أو كمكافحة فى سبيل العيش ·

وقد انهارت معظم المجتمعـــات الشـــرقية بســـبب ظلمها للمرأة وحرمانها اياها من مكانها وحقهـــا الطبيعيين ، وهذه حقيقـــة لم يتنبه لها معظم من يدرســـون تواريخ هذه الدول الشـــرقية من المشـــارقة ، ولكنها معروفة للدراســـين من أهل الغرب ·· لأن مجتمعهم يقـــوم على المرأة والرجل مجتمعين ، ومن ثم فهم يعـــرفون أهمية المرأة فى المجتمع

الانســـانى ، ويشـــيرون الى ذلك ويقررون أنه أساس تقدم مجتمعهم على غيره من المجتمعـات • وهذه الحقيقة ـ على ما يبدو من بساطتها ـ تفرق بين مجتمع ومجتمع ، وحضــارة وحضــارة ، بل هى الحد الفاصــل بين الحضــارات التى أينعت وعاشــت ، والحضارات التى ذبلت وماتت ، والأمر هنا ليس أمر مناقشــة وحجج بل أمر واقــع واحصــاءات ، فأمامك حضــارات التاريخ فانظر فيها كيف شــئت لتتبين ذلك ، ومنطق الواقع ـ آخر الأمر ـ أحق من كل كلام •

والحضــارة المصرية القديمة من الطراز الذى أعطى المرأة حقها ، واعــترف بهـــا ، ومنحهـــا حقها كاملا فى البيت وفى ميدان العمــل والحياة • بل ان عينك لا تقـــع على رســـم مصـــرى قديم الا وجدت المرأة فيه الى جـــانب الرجل ، ورأيتها رافعة الرأس تســير معه وتعمل معه وتحتمل من الحياة نصيبها الذى يقابل ما تتمتع به من حقوق ، وأنت تجد المرأة فى مناكب الحياة المصرية كلها • وأنت تجد فى مصر القديمة عددا من الأرباب فى صور نساء ، وتجد ملكات عظيمات يضاهين الملوك عظمة وسلطانا ، وتجد عصورهن مشرقة ، مما يدل على احترام رعاياهن لهن ، وانتظامهم فى طاعتهن ، وأنت تجد الأدب المصرى القديم يضع المرأة فى موضع التكريم والاعزاز •

* * *

وهذا لا يتعارض فى شىء مع ما يقوله الــكثيرون عندنا من أن مكان المرأة فى البيت ، وأن واجبها الأول هو خدمة الزوج ورعاية الأولاد والمشاركة فى تربيتهم • فهذا كله طبيعى يقول به الاسلام ، لأن الاسلام دين واقع ومنطق حياة • والمرأة العاقلة بطبعها تضع بيتها وزوجها وأولادها فوق كل اعتبار ، ولكنها تفعل ذلك فى اطار الاحترام الكامل ، فهى ينبغى أن تكون ربة البيت فعلا لا مجرد كلام ، وليس للرجل أن يهينها أو يعاملها على أنها واحدة من الأولاد : يأمرها ولابد أن تطيع ، وليس لها أن تناقش كما يظن بعض الناس عندنا • والمرأة اليابانية من أطوع النساء لزوجها وأكثرهن اخلاصا لأولادها ، ولكنها فى البيت والحياة العامة محترمة جدا ، وهى تعمل فى المكتب والمصنع ، ولكنها اذا وضعت أعطوها اجازة بمرتب لمدة سنتين ، لأنها فى خلال هذه المدة تقوم للمجتمع بواجب أهم من واجبها فى المكتب والمصـــنع : انها تربى يابانيين صـــالحين ، واليابانى الصالح رأس مال قومى ••

والقرآن الكريم يقول : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) (النســـاء ٣٤) فهنا شرط وجواب شرط ، ولا يستقيم الشرط بدون جوابه : فالرجال قوامون

على النساء وهذا جواب الشرط ، أما الشرط فهو أن يكون الرجل أفضل من المرأة عقلا وعلما وفهما وقدرة ، وأن يكون هو المنفق على المرأة من ماله ، فاذا كان أفضل منها فعلا وكان ينفق عليها حق الانفاق جاز له حق القوامة والا فلا ، فلا يكون الرجل أحمق جاهلا عاطلا ثم يقول انني القيم على امرأتي · هنا نقول له انك تخالف روح النص القرآني · أضف الى ذلك أن أى امرأة طبيعية المزاج تحب أن يكون لها زوج فاضل محترم يملأ عينها لتطيعه وتسند حياتها اليه وتستظل بظله ، فهذه هى طبيعة المرأة ، فنجيء نحن ونبدل الشيء الطبيعي بالقوة والاكراه والغلظة ونحجر على النساء ظلما وتعسفا ، وننسى أن المرأة بطبعها مخلوق عفيف لا يميل الى التبذل أو امتهان نفسه ، فاذا رأيت امرأة تبتذل نفسها أو تباع فى سوق الرقيق ، فاعلم أن السبب فى ذلك هو الرجل · ولم يكن الحجاب قط دليلا على عفة المرأة وفضلها ، فان العفة تنبع من داخل المرأة لا من حجابها ، وانما أمر الله بالحجاب صيانة للمرأة من عدوان الرجل عليها ، فالحجاب ليس فيه سوء ظن بالمرأة ، وانما فيه دليل على أن العدوان على المحارم طبع مركب فى الرجل · ومن هنا فاننا نقول : اذا أردت أن تعرف مستوى ارتقاء شعب من الشعوب فانظر مكانة المرأة فيه ، فاذا كانت محترمة حرة موقرة فهو مجتمع صالح · واذا كانت ممتهنة يسيء الناس الظن بها ، فهو مجتمع غير فاضل ، والمرأة الأيرلاندية مشهورة بأنها من أطوع النساء لأزواجهن وأحسنهن تربية لأولادهن ، وهن مع ذلك من أقدر نساء الدنيا على العمل وأمهرهن فيه ، واذهب الى دبلن أو بلفسات وانظر بنفسك لترى صحة ما أقول ·

وهكذا كانت المرأة فى مصر القديمة ، كانت سيدة بيت ، وأم أولاد ، وعاملة حقل ومشاركة بنصيبها الكامل فى الحياة ، ومن أغرب الظواهر أن مصر القديمة لم تعرف البغاء أو تجارة النساء ولا أسواق الرقيق · وعندما فتح العرب مصر لم يتخذوا من المصريات جوارى قط · وظاهرة دخول الشعوب فى ولاء العرب الفاتحين عرفتها كل بلاد الاسلام الا مصر · فليس هناك موال مصريون · والبيت المصرى حافظ على وحدته واحترامه وسلامته طوال عصور المحن والمظالم ، وهذا تقليد ورثناه عن أجدادنا المصريين القدماء وزاده الاسلام قوة ، وهو يصدق اليوم كما صدق بالأمس ·· ولازال المجتمع المصرى من أسلم المجتمعات وأوفرها فضيلة ، فيما يتعلق بخلق النساء وحسن تصرفهن وصيانتهن لأنفسهن ، والذين يزعمون أنهم يصونون المرأة نقول لهم : صونوا أنتم أنفسكم ودعوا المرأة المصرية ، فهى تعرف كيف تصون نفسها ، واذكروا هذين البيتين البليغين :

عفوا تعف نساؤكم عن محرم
وتجنبوا مالا يليق بمسلم

ان الزنا دين ، اذا أقرضته
كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

وحضارة مصر مشتركة فى هذه الناحية الأساسية مع حضـــارتنا الراهنة ، وأنا أقول « حضارتنا » لأنك سترى مانسميه اليوم بحضـــارة الغرب ان هو الا الحضـــارة المصـــرية القديمة متطورة فى اتجاه واحد مســــتقيم ٠٠

والحضارة المصرية القديمة قامت على الأسس الثلاثة الصـــحيحة التى بدونها لا تستقيم حضـــارة تكتب لها الحياة ، وهى العلم والفن والعمل ٠

فأما العلم فأيسر تأمل فيما بين أيدينا من آثار هذه الحضـــارة يتحدث عن العلم القائم على الحساب والدرس الطويل ٠ هذه الأهرامات والمنشآت ، كيف تقوم دون هندسة ؟ وهذه الرسوم ، كيف تتم دون آلات دقيقة ؟ وهذه الأدوات البديعة التى تتراوح بين آنية البيت والســـفين الضخم ، كيف تصنع ـ وبهذه الكثرة ـ الا عن علم بالأخشاب والمعادن وغير المعادن واتقان للحساب الذى لا يستغنى عنه فى حقل هذه الصناعات؟ وهذا التحنيط وما يحيط به من الطب المصرى القديم ، كيف يتم بغير تشريح وادراك كامل لما ينبغى أن يعرف من حقائق عن بدن الانسان ؟ بل ان شيئا من ذلك لا يتم بغير معرفة بالكيمياء والنبات وما الى ذلك ٠ وهذا كله فى مجموعه « علم دقيق » ٠٠ «Exact Science» لم تعرفه حضارات كثيرة ، فلم يتقدم سيرها الا قليلا ، وتكنولوجيا لم تعرفها الا أمم قليلة ٠

والنصوص المصرية القديمة تنم عن ترتيب ذهنى منطقى دقيق ، يدل على أن العقلية المصـــرية القـــديمة كانت علمية ولم تكن غيبية ، وهى قد بدأت بالغيب الأكبر ـ ماوراء الموت ـ فحلته حـــلا قبله منطقها ، ولم تجعله غيبا محجبـــا بل مصـــيرا واضحا معروف البداية والنهاية ، وقد أعد المصـــرى القديم لهذه النهاية ما هى بحـــاجة اليه ، فقد حسب أن الميت يعود الى الحياة بعد فترة طويلة أو قصـــيرة فى العالم الآخر ٠

فالمصـــرى القديم كان يعيش على هدى من علم قليل أو كثير ، وقلته أو كثرته لا تعنى شـــيئا فى هذا الحســـاب ، لأن المهم انه كان يؤمن بما يعلم ويعيش بمقتضاه ٠

وهنا أيضا تشترك الحضارة المصرية مع الحضارة الراهنة ، تلك التى نســـميها الحضارة الغربية ، التى نحســـب فى بعض الأحيان أنها غريبة عنا ، وما هى الا غرس يدنا وامتداد لهذه الحضـــارة الباهرة التى أقامها أجدادنا على ضفاف النيل ٠

ولابد هنا من وقفة طويلة بعض الشىء تنير جوانب هذه الناحية ، وما أظن أن أحدا عنى بأن يســـتقصى أمرها ويأتينا بالقول الفصـــل فى أمرها ٠

ذلك أن الذين يقومون على تكوين عقولنا حرصوا منذ زمن بعيد على أن يقرروا فى أذهاننا بضع مسائل أضرت بنا أشد الاضرار ، وأعطتنا فكرة سيئة عن طبيعة حضارتنا ، وعن علاقتنا الذهنية بما حولنا شرقا وغربا ٠

حرص أولئك الناس على أن يقرروا فى أذهاننا المسائل الآتية :

أولا : أن هناك حضارة شرقية وأخرى غربية ، وأن هاتين الحضارتين تتعارضان ولا تتلاقيان ٠

ثانيا : اننا ــ نحن المصريين ــ ننتمى الى الحضارة الشرقية ، وحدها ، ولا صلة لنا على الاطلاق بتلك الحضارة الغربية ٠

ثالثا : أن الحضارة الشرقية ، ويقصدون بها الحضارة العربية على وجه التحديد ، لم تأخذ شيئا عن غيرها ، وانما هى نبتت من تلقاء نفسها ولا فضل لحضارة أخرى عليها ، ولا يدانيها شىء من أعمال البشر ٠

رابعا : أن هذه الحضارة العربية هى أصل كل حضارة أخرى ، وأن العالم لم يضف اليها شيئا الى الآن ، بل انه أفسد بعض نواحيها ٠

خامسا : اننا اذا كنا نريد أن نعيش ، فواجبنا الأول هو مطاردة كل أثر من آثار الحضارة الحديثة من بلادنا ، وتنقية « حضارتنا » العربية والعودة بها الى جوهرها السليم الصافى الذى كانت عليه ٠

وهذه المسائل كلها ليست حقائق ، وانما هى أوهام أو دعايات صدرت عن عقول لا تفهم طبيعتها المصرية حق الفهم ، وعن قلوب لا تعرف كنه الحضارة العربية فى ذاتها ، ولا تستطيع أن تدرك الناحية الانسانية فى الحضارات ٠

وسأجتهد أن أعرض لكل من هذه الدعاوى فى السطور التالية ، لأن ذلك يعيننا على تحديد طبيعة حضارتنا المصرية أولا ٠ ثم تحديد علاقتنا بالغرب وبالحضارة الراهنة ثانيا ، وهو موضوع على أكثر جانب من الأهمية بالنسبة لمن يطلب تحديد رسالة هذا البلد على مدار الزمن الطويل ٠

* * *

فأما عن المسألة الأولى ، فأقرب الآراء فى أمرها الى الصحه هو أن تاريخ البشر لا يعرف هذا التفريق الحاسم الفاصل بين

الحضـــارات • لأن الحضارة معناها كل جهد يبذله الانســان لتحســين ظروف معاشـــه على الأرض ، ســـواء أكان ذلك التحسين معنويا أم ماديا : فالانســـان الذى اكتشـــف الزراعة ـ أى تنبه الى أنه يستطيع أن يزرع نباتات يستفيد منها ـ خطا بذلك الاكتشاف خطوة حضارية مادية واسعة الى الأمام • والانسان الذى تفطن الى أن يتفق مع جاره على أن يعيشا فى سلام جنبا الى جنب ، هو أيضا خطا بذلك التفطن خطوة حضارية معنوية واسعة الى الأمام •• وهكذا •

فالحضارة البشرية ـ على هذا ـ تبدأ منذ اللحظة الأولى لوجود الانسان على هذا الكوكب : تبدأ منذ اهتدى الانسان الى تهذيب قطعة من الحجر ليستعملها ســـلاحا ، وتتصل الى يوم عرف كيف يفجر الذرة ، وستتصل الى يوم يبعثون •

وقد تعودنا نحن أن نقول « حضارات » بالجمع ، فهناك حضارة العصر الحجرى القديم ، وحضارة العصر الحجرى الحديث ، وحضارة عصر البرونز ، ثم حضارات العصور التاريخية ، ونحن نطلق عليها أسماء الشعوب التى استحدثتها على سبيل التقسيم والتبويب لا على سبيل الفصل والتمييز ، فهناك حضارة مصر القديمة ، وحضارة اليونان ، وحضارة الرومان وما الى ذلك حتى حضارتنا الراهنة • والواقع أن هذه كلها حضارة واحدة وسلسلة متصلة مترابطة لا تنفصل حلقة من حلقاتها عن الأخرى ، وما من حضارة الا أخذت عن التى قبلها أو التى عاصرتها وصبت فيما تلاها وأثرت فيما جاورها أيضا •• ولا يعرف التاريخ حضارة كانت وحدها وتلاشت دون أن تصب فى التيار العام الا مرة واحدة ، وفى هذه أيضا شك ، وهى حضارة الأزتيك التى قامت فى المكسيك •

ومع ذلك فان المكسيكيين والبيروانيين يبذلون جهودا عظيمة للكشف عن طبائع حضـــارات الأزتيك والأنكا واحياء ما اندثر من مظاهر هاتين الحضارتين ، وأثبتوا بالفعل أنهما لاتزالان حيتين فى كيان أهل بلادهما ، وفى تيار الحضارة الانسانية جملة •

فحضارة مصر القديمة قامت على أساس من تجارب البشر فى عصور ما قبل التاريخ ، وهى قد أفادت على طول تاريخها من كل ما عاصرها من الحضـــارات : أخـــذت عن الليبيين والنوبيين والعـــبرانيين والحيثيين والميسنيين ، بل اتصلت بها تيارات مقبلة من بعيد ، كهذه العجلات الحربية التى حملها الينا الهيكسوس ، وهم لم يخترعوها ، وانما أتوا بها من أمم قلب آسيا ، التى تحركت من بلادها فدفعت ما يليها من الشعوب غربا ، وتدافعت الأمم غربا فغربا حتى بلغت الموجة مداها فى بلادنا ، فوصلتنا ـ عن هذا الطريق الطويل ـ العجلة الحربية التى غيرت مجـــرى تاريخ مصر •

والحضارة التى نسميها عربية ونحاول أن نفردها عن غيرها ليست بعربية خالصة ولا بشرقية خالصة ، وانما هى أخذت من كل ناحية وأفادت من اليونان والرومان والصقالبة وشعوب الشمال ·· وهى لم تفعل ذلك عن فقر فى طبعها ولا هو يضيرها أن نقول انها فعلته ، بل تلك هى طبيعة الحضارات وهذه سيرتها ، ولا يمكن أن تكون الا كذلك ·

والحضارة التى نسميها غربية ، ونحاول أن نقول انها شىء قائم بذاته ، ليست غربية خالصة أيضا ، فقد أخذت عن الشرق كثيرا واعترفت هى بذلك الاقتباس ، لا عن فقر فى طبيعتها ، ولا عن ضعف فى بنيتها ، بل لأن هذه هى طبيعة الحضارات على ما قلناه ·

واذن فليست هناك حضارة شرقية على حدة وأخرى غربية على حدة ، بل الشرقية شرقية وغربية ، والغربية غربية وشرقية ·

ولما كانت الحضارات ثمرات تجارب الانسان فهى تحمل صورة نفسه وتجمع بين الخير والشر ، فلم يعرف التاريخ حضارة يستطيع أن يصفها بأنها خير خالص ، ولا حضارة يعتبرها شرا خالصا ، وانما الحضارات كلها مزاج من هذا وذاك · ولا معنى والحالة هذه لأن نصف حضارة من الحضارات بأنها شريرة أو خادعة أو زائفة ، لأن ذلك غير معقول ، والمعقول أن جوانب الخير فى كل عمران انسانى أغلب من جانب الشر ، الا فى أعصر الانهيار والانحلال ·

* * *

وأما عن المسألة الثانية ، وهى أننا ــ نحن المصريين ــ لا ننتمى الا الى الحضارة الشرقية الخالصة ، ولا صلة لنا بالحضارة الغربية الراهنة ، فقول خاطىء من أساسه ، وهو يتضمن انحرافا مقصودا بطبيعة حضارتنا عن مجراها ، وفيه توجيه غير نافع أيضا لحضارتنا ·

ذلك أن حضارتنا المصرية ولدت ونمت وازدهرت قبل أن تزدهر واحدة من حضارات الشرق التى اتصلت بنا فيما بعد ، ولقد قامت هذه الحضارة ــ على ما قلناه ــ على أساسين ثابتين : أولهما أفريقى ، والثانى بحرى أو متوسطى ، نسبة الى البحر المتوسط · ولقد أخذ التيار البحرى من حضارتنا كثيرا عن أهل جزائر البحر المتوسط ، وتمثله فى كيانه ، وامتزج هو بعد ذلك بالتيار الأفريقى ، ومن هذين التيارين تكون تياره القوى الأصيل ، ثم أخذ الجانب البحرى يقوى ويشتد ، ومازالت مصر البحرية تشتد حتى جذبت مصر كلها وأدخلتها نطاق البحر المتوسط ·

ولقد انصبت فى تيار حضارتنا - على الزمن الطويل - روافد آسيوية بعضها بحرى أقبل من الشام وأرض الحيثيين فى جنوبى آسيا الصغرى ، وبعضها قارى أقبل من جزيرة العرب وأرض الرافدين وما يليهما من بلاد القلب الآسيوى ، ولكن هذه الروافد لم تلبث أن ذابت واختفت فى غمار التيار المصرى العام الذى استبحر شيئا فشيئا ، حتى اذا كانت أيام الأسرة الحادية والعشرين كانت مصر قد أصبحت - كما قلنا - دولة متوسطية خالصة ، عاصمتها فى الوجه البحرى ، وصلاتها ببلاد البحر وجزائره أكثر من صلاتها بالنوبة وما يليها وبلاد الليبيين فى الغرب .

وكانت الحضارة المصرية قد بلغت اذ ذاك مداها ، واستهلك كفاح الزمن الطويل أجيال مصر القديمة بعد أن صمدت للزمان آلافا من السنين متوالية .

وكانت أمم شرق البحر المتوسط البحرية قد اشتد عودها ، وقامت فى بلاد اليونان وفى كريت وآسيا الصغرى أمم وليدة انتقل اليها جوهر الحضارة المصرية ورواؤها ، فأضافت اليه من عندها وأنشأت تبنى عليه لبنة فلبنة ما عرف فيما بعد بحضارة اليونان .

وكان ضعف مصر - على أيام الأسرة السادسة والعشرين وما تلاها - شيئا عاديا عرض لها قبل ذلك مرارا ، وعرض لغيرها من أمم الأرض أجمعين ، والتاريخ المصرى القديم ليس الا ارتفاعات وانخفاضات شأنه فى ذلك شأن غيره من تواريخ الأمم العريقة التى تطاول الزمن السرمدى .

ولقد كانت مصر قمينة بأن تنهض من هذه الكبوة وتعود سيرتها الأولى لو لم ترزأ بنكبة الغزو الفارسى المخرب سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، وهى نكبة لم تتكرر فى تاريخنا بعد ذلك الا مرتين ، احداهما سنة ٣٠ قبل الميلاد عندما غلب الرومان على مصر وبدءوا ثلاثة قرون من التاريخ الدامس ، وثانيتهما كانت سنة ١٥١٧ عندما دخل العثمانيون هذه البلاد .

ولقد كسر هذا الغزو الفارسى شوكة مصر كسرا لم تفلح فى علاجه الا بعد قرون ، لأنه أتاها فى أعقاب موجات من الغزو الليبى والنوبى، وبعد منافسات داخلية محزنة أصابها من ورائها بلاء شديد ، ولأنه كان غزوا دمويا مخربا عنيفا قاسيا ، حمل الى هذا البلد الطيب - مصر - مساءات الحكم الآسيوى القديم كلها ، فكان مثل جراد انتشر أرجالا على أرض مخضرة فلم يبق على شىء .

وكان من أثر هذه الغارة المخربة أن مصر لم تستطع أن تغالب الاغريق الناهضين على تلك الأيام وعجزت حتى عن المغالبة ، وشف أولئك عليها بعض الشفوف ، وبدا وكأن مصر خرجت من ميدان الأمم الحاملة لحضارة البشر ·

بيد أن مصر لم تلبث أن نهضت من جديد ، وبأسرع مما كان يتوقع ، فلقد دخل الاسكندر مصر غازيا ، وأخرج الفرس منها ، وأعادها الى عالم البحر المتوسط ، فلم تكد تعود وينقطع عنها ذلك البلاء الآسيوى حتى نهضت من جديد · وعلى أيام البطالمة تألقت حضارة مصر مرة أخرى بكامل لألائها ، وعاد زمام العمران الانسانى الى يد بلادنا ، وانتشر النور من الاسكندرية وغيرها من مراكز الحضارة المصرية ·

ومعنى ذلك أن حضارتنا كانت ــ الى الغزو الرومانى سنة ٣٠ قبل الميلاد ــ بحرية متوسطية ·

ثم اتصلت الحضارة المصرية بعد ذلك على أيام الرومان خافتة أول الأمر بسبب ما عرف عن الرومان من شدة وعنف ، ولكنها لم تلبث أن استقامت من جديد ، وأصبح بلدنا ، فى العصور الرومانية المتأخرة ، مركز الحضارة المتوسطية ، ذلك أن المسيحية التى ولدت فى فلسطين لم تلبث أن وجدت التربة الصالحة فى وادى النيل ، وعلى بلدنا وفدت السيدة العذراء مريم مع ابنها المسيح هاربة من ظلم هيرود ، ثم أقبل بعض الحواريين الى بلادنا فوجدوا القلوب ممهدة لتلقى تلك الرسالة السماوية ، فكثر المسيحيون فى مصر ، وأقبل الى هذا البلد الحوارى مرقص ، فأنشأ الكنيسة المرقصية فى الاسكندرية وهى التى انتقلت اليها زعامة المسيحية كلها بعد قليل ، وفى مصر كتب مرقص انجيله المعروف ، وهو أبلغ الأناجيل أسلوبا وأوفرها حكمة ، وربما كان ذلك أثرا من آثار مصر عند ذلك الحوارى الجليل الذى مات فى بلادنا ودفن فيها ، ثم سرق أهل البندقية رفاته وفروا به الى بلادهم حيث أنشئوا باسمه كنيستهم الكبرى « سان ماركو » ، أى القديس مرقص ·

وقد نهضت كنيسة الاسكندرية خلال قرنين متواليين (هما القرنان الرابع والخامس الميلاديان) تنافح عن العقيدة القويمة ، وناهضت كنيستى القسطنطينية وروما زمانا طويلا ، وظهر فيها أحبار أجلاء بهروا الدنيا بعلمهم وصلابتهم فى الحق ، من أمثال كيرلس الاسكندرى وديوسقوروس ويوتيخيوس وأنطونيوس المصرى والأنبا بولا · والبابا اسكندر والأنبا أثناسيوس · هؤلاء رجال لهم فى بناء الحضارة العالمية نصيب كبير لا يتسع لتفصيله هذا الكتاب ·

وفى هذا العصر عادت مصر بكليتها الى البحر المتوسط وقادت حضارته ، واحتلت مكانها بين بناة عمرانه ، وابتكرت الرهبانية الديرية ، وأطلعت رجالات يعدهم الغرب اليوم من بناة حضارته ، من أمثال القديس أنطونيوس وباخوميوس والأنبا بولا كما قلنا ، وأنجبت من المفكرين الذين يذكرهم الفكر الأوربى بالاجلال نفرا غفيرا من أمثال آريوس ٠

وقد ظلت مصر تعيش فى عالم البحر المتوسط حتى الفتح الاسلامى ، وورثت القسطنطينية والكنيسة الرومانية ثمرات كفاحها الدينى الطويل ، كما ورث اليونان جانبا عظيما من تراث مصر القديمة الفنى العلمى ٠٠ وهذان العنصران اللذان خلفتهما مصر للاغريق أولا ، ثم للعالم المسيحى الوسيط بعد ذلك ، يعتبران من أمكن الأسس التى قامت عليها حضارة الغرب الراهنة ، التى يقال لنا انها غريبة عنا ولا صلة لنا بها ، وماهى فى الواقع الا بناء على أساس وضعناه ، و اكمال لصرح ثبتنا قوائمه على طول القرون ٠

ثم كانت الحضارة الاسلامية ، وأسهمنا فيها بالنصيب الذى هيأته لنا ملكاتنا وتجاربنا فى الحضارات ، وازدهرت هذه الحضارة فى بلاد المشرقين الأوسط والأدنى ، وامتدت على ضفاف البحر المتوسط حتى جدود فرنسا الجنوبية ، وشملت حوض هذا البحر كله وجزائره ونواحى من ايطاليا والبلقان ٠

وبلغت هذه الحضارة الاسلامية أوجها ابتداء من القرن العاشر الميلادى ، واجتمع لها من الجديد مما صدر عن عبقريتها الخاصة ، ما هو جدير بأن ينصب فى نهر الحضارة البشرية العام ، وبدأ ذلك فعلا منذ القرن العاشر الميلادى ، فأخذت روائع الفكر الاسلامى تترجم الى اللاتينية والعبرية منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، وتنبه الناس فى العالم أجمع الى قيمة هذا التراث الحضارى العظيم ، فأقبلوا على عالم الاسلام يدرسون ويقتبسون وينقلون ، فما انتهى القرن الثالث عشر الميلادى حتى كان خير ما فى الحضارة الاسلامية قد ترجم الى غير العربية من اللغات ، وأصبح ملكا مشاعا للبشر أجمعين ٠ هذا على حين كان أمر المسلمين أنفسهم قد بدأ يضمحل ، وأنتهى عصر الابداع فى تاريخهم الفكرى ، ولم يعد لديهم بعد ذلك الا تكرار لما فات ، أو تقليد لما أبدعه الأسلاف ، الا فيما ندر ٠

ومن الغريب ـ فى قصص انتقال ثمرات الحضارة من شعب الى شعب وتوارث الأمم أمجاد بعضها البعض ـ أن الأمم بطبعها تعرف الجيد فتنقله ، وتدع الردىء أو الخاص بقوم دون قوم فلا تقبل عليه ، ومن ثم فانك تجد ما تنقله الأمم بعضها عن بعض هو النافع ، وهو الذى يلائم البشر أجمعين ٠ فقد أخذت اليونان مثلا عن مصر القديمة المثالة والتصوير والطب والصناعة الدقيقة ، وتركت نظم الحكم وطقوس الدين ،

لأن هذه الأخيرة لم تكن تستحق أن تتوارث ، ثم انها كانت مصرية خالصة تلائم مصر وحدها ولا تنفع من عداها · فأما المثالة والتصوير والطب والصناعة الدقيقة ، فهى خير ما يصدر عن العبقرية المصرية ، وهى تراث انسانى خالد تعاقبت عليه الأمم ، وهى فى ازدهار ونمو حتى يومنا هذا ·

وكذلك يقال فى الحضـــارة الاســلامية ، فان فيها ماهو عالمى ينفع البشر أجمعين ، وفيها ماهو خاص بالعرب والمســـلمين دون غيرهم · فأما العالمى الذى ينفع البشـــر أجمعين فالطب والرياضـــيات والنبات والفلســـفة والتصوف والأدب الشـــعبى ، وأريد بالأدب الشعبى ذلك الانتاج الســـاذج البســـيط الذى صدر عن جماهير مملكة الاسلام دون تكلف ، فخرج طبيعيا انسانيا يلائم مزاج الشـــعوب عامة ، كالقصص البسيط الذى يتمثل لنا فى ألف ليلة وليلة وما جرى مجراها ، وكالشعر الشعبى الذى يمثله الزجل والموشحة ·

فأما ماعدا ذلك فقد يكون عظيما فى ذاته ، ولكنه ليس انســـانيا عاما فى جوهره ، وهو قد أعجب العرب لأنهم عرب ، ومن أمثلة ذلك شعر الفطاحل ممن يتعجب الناس عندنا من انصراف الدنيا عن أدبهم على مايحدثونه فى العالم العـــربى من دوى ، كالمتنبى والبحترى وأبى تمام مثلا ، وهؤلاء وانداهم لا يســـاوون فى ميـــدان الحضـــارة العالمية شـــاعرا كعمر الخيام الذى جمع أهل الأرض جميعا على رباعياته ، أو الفردوسى الذى تغنى ببطولة البشـــر فى قالب من بطولة الفرس ، كما تغنى قبله هوميروس ببطولة بنى آدم فى أعمال أبطال الالياذة ·

وقد يحســـب البعض أن العـــالم لم يقبل على المتنبى والحريرى مثلا لأنه لم يعرفهما ، لكن الواقع أنه عرفهمـــا وبذل جهدا عظيمـــا فى تفهمهما ، ولكنه انصرف عنهما آخر الأمر ، لأنهما انما يمثلان ذوقا عربيا فى صميمه ولبابه وشكله ، وعبقرية خاصة بأمة العرب وحدها ·

ولعل من يسأل : وما القول اذن فى ابن خلدون ، وهو امام من أئمة الفكر البشـــرى ، وما له لم يترجم الى اللاتينية والعـــبرية كغيره ، وما له لم يأخذ مكانه من الفكر العالمى كله ، والجواب عن ذلك أن ابن خلدون ظهر بعد انقضاء عصر انتقال الفكر الاسلامى الى الفكر العالمى ، فقد ظهر فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فظل مجهولا من الفكر العالمى حتى القرن التاسع عشر ، واكتشفوه قبل أن نكتشفه نحن ! وهم الذين قدروه ووضعوه مكانه بين فلاسفة التاريخ ، ونحن اليوم نتابعهم فى ذلك ونفاخرهم برجل هم كانوا أول من نبهنا الى قدره ، وهذا من أغـــرب ما يروى فى مثل هذا الباب ·

وهذه الحقيقة الأخيرة التى ذكرناها عن ابن خلدون تنطبق على غيره ممن يعتز بهم تراث الفكر الاسلامى اليوم ، فلو ذكرت ابن سينا والفارابى وابن رشد وابن طفيل لواحد من المثقفين المسلمين فى القرن الخامس عشر الميلادى مثلا لاستعاذ بالله ، وربما تلطف فذكر كلا منهم بشىء غير الفلسفة · فابن سينا هو صاحب الأرجوزات فى الطب وابن رشد هو صاحب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ، وابن طفيل هو صاحب « حى بن يقظان » ، فأما آراؤهم ومذاهبهم فى الفلسفة ، وهى التى تعطيهم قيمتهم الحقيقية ، فقل من كان يذكرها بين ناس ذلك الزمان من العرب ·

ولو أنك ذكرت أسماء أبى على بن سينا أو أبى نصر الفارابى وأبى زكريا الرازى والحسن بن الهيثم وعلى بن نفيس ومسلمة المجريطى وابراهيم بن أزراقيل المعروف بالزرقالى ، وجابر بن أفلح وابن السمح وأبى القاسم الزهراوى وابن وافد وابن العوام والغافقى وابن البيطار ومن اليهم ، وهم من أعلام الطب والرياضيات والفلك والنبات فى تاريخ العلوم عند البشر ، لو أنك ذكرت أولئك فى نفس ذلك القرن الخامس عشر لوجدتهم مجهولين فى عالمهم الاسلامى الذى أطلعهم ، وهم أشهر من نيران على أعلام خارج حدود ذلك العالم ، ومن عجب أيضا أننا نفاخر الدنيا بهم اليوم ، كأن الدنيا تجهلهم وكأنما نحن أصحاب الفضل فى كشفهم ، ومانحن فى ذلك الا متابعين لما قاله أهل الغرب عن أجدادنا الأعلام !

السبب فى ذلك راجع الى أن الأوربيين أنفسهم يعتبرون الحضارة تيارا انسانيا عاما صبت وتصب فيه جهود البشر أجمعين ، ولهذا فهم يدرسون تراث غيرهم من السابقين عليهم ومعاصريهم وفى جملتهم العرب · لهذا درسوهم واستخلصوا ثمار جهودهم ، فى حين أن موقفنا من تراثنا يشبه أحيانا موقف البخيل الذى يخزن ماله دون أن يستثمره ·

وخلاصة هذا الكلام أن الجزء العالمى الهام من الحضارة الاسلامية ، قد انصب منذ زمن طويل فى نهر المعرفة البشرية الخالد ، وأصبح جزءا من مائة ، وارتوت به أرض البشر ، وأطلعت منه ثمارا مما نراه اليوم ، فالرياضيات التى تقود الحضارة العالمية اليوم تحمل فى أطوائها آثار ثابت بن قرة ، وابن السمح ، ومسلمة المجريطى ، والكرمانى ، والبيرونى وكثيرين غيرهم ، وهى تحمل من بعيد تراث أجدادنا الأوائل من أهل مصر القديمة ، أى أن لنا رافدين فى نهر الحضارة الراهنة : رافدا مصريا ورافدا اسلاميا ، ولم يسهم الانجليز أو الفرنسيون فيه بأكثر من ذلك بكثير ·

فهذه الحضارة الراهنة حضارتنا أيضا ، وهى ليست من ابتداع الغرب ، بل ثمرة تجارب البشر على الزمن الطويل ، وهى ليست أوربية أو غربية ، وانما هى انسانية ، وحقنا فيها لا يقل عن حق غيرنا ، وكل ما فى الأمر أنها أخذت فى أيامنا ثوب الغرب كما لبست ثوب مصر

القديمة أيام مصر القديمة ، وكما كانت اغريقية أيام الاغريق ، ورومانية أيام الرومان ، واسلامية أيام العصور الزاهرة من تاريخنا ٠

ومعنى ذلك أن هذه الحضارة التى تسمى اليوم غربية ليست غربية الا بثيابها ، وأما صميمها فانسانى ، ونحن ــ كمصريين ــ أصحاب حق فيها كغيرنا ممن ينسبونها الى أنفسهم ، بل ان حقنا فيها أكبر ، فقد ساهمنا فيها عن طريقين ، ولم يسهم غيرنا فيها الا عن طريق واحد ، ونحن وضعنا الأسس وجزءاً كبيرا من البنيان ، ثم جاء غيرنا فأعلى وزاد ٠ وذلك كله يرجع الى مكاننا فى البحر المتوسط ونصيبنا فى بناء حضارته وقد سماه الرومان « بحرنا » (مارى نوستروم) ونحن أولى منهم بذلك ٠

وأولئك الذين يزعمون لنا أن لنا حضارة أخرى تختلف عن هذه ــ وهى التى يسمونها شرقية ــ مخطئون ، لأن مصر التى ساهمت فى بناء الحضارة الانسانية بهذا القدر العظيم لا تفرق بين شرق وغرب : الكل أبناؤها ، وكل ما أبدعوه انما هو بناء على ما أسسه أهلها ٠

واذا كنا نأخذ جانب الشرق اليوم ، فلأننا منذ بزوغ فجر الاسلام دخلنا فى رحابه واستعربنا وساهمنا فى تاريخ الاسلام وحضارته بأوفر نصيب ، وأصبحنا ــ منذ زمن طويل ــ جزءاً من الأمة العربية المجيدة ، وتقاسمنا مع اخواننا العرب حلو الحياة ومرها ، وقدنا صراع العرب والمسلمين ضد الصليبيين والمغول ، وأصبحنا نعد أنفسنا مشارقة كسائر اخواننا العرب ، تجمعنا معهم أمجاد الماضى وصراع الحاضر وآمال المستقبل ٠ ثم ان التقسيم الى شرق وغرب أمر آن أن نتخلى عنه ، لأنه لا معنى له جغرافيا ولا حضاريا ، فكل غرب بالنسبة لبلاد انما هو شرق بالنسبة لبلاد أخرى ، ثم ان شجرة الحضارة انسانية عامة ، لا هى شرقية ولا هى غربية ٠

ورسالة مصر الحقيقية ــ اذن ــ ليست رسالة الشرق أو رسالة الغرب ، بل رسالة الانسانية كلها ، وهى اليوم تعمل جهد طاقتها ، فتأخذ من الغرب قدر حاجتها وتعطى الشرق أقصى ما تستطيع ، وهى لا تعطى لهدف أو غاية ، بل لأن هذه هى طبيعة رسالتها فى هذا الوجود ، بل هى فى الغالب تعطى دون أن تدرى ، كما تطلع الشجرة الثمر الشهى ، لأن الأثمار وظيفتها فى الحياة ٠

وقولنا اننا شرقيون انما هو موقف سياسى ساقتنا اليه ظروف التاريخ ووضعتنا فيه أحوال السياسة العالمية الراهنة ، فنحن شرقيون لأننا جزء من أمة العرب ، وأمة العرب شرقية فى أصولها ، ونحن شرقيون لأن غالبية أمم الشرق فى مثل ظروفنا : تخلصت

من لعنة الاستعمار السياسى العسكرى الصريح وبدأت معركتها من الاستعمار الجديد ـ النيوكولونيالزم ـ وهو استعمار مقنع يتلخص فى استغلال أوضاع بلاد الشرق التى أخر الاستعمار نموها العلمى والاقتصادى ، وارغامها على السير فى ركابه ، واطلاق يده فى خيرات بلادها ومنابع ثروتها ، واستنزاف أموالها أولا بأول حتى لا تتخلص من ربقة الفقر أبدا ، ومع الفقر تأتى لعناته : الجهل والمرض والضعف السياسى والعسكرى ٠

وهذه كلها لعنات يريدها لنا الغرب ليظل سيد الأرض وماعليها ومن عليها ، ولا تصدق غربيا يزعم لك أنه يريد خدمة الشرق حتى ولو كان اسم ذلك الرجل البرت شفايتسر ، الذى يقال انه أنفق حياته فى خدمة الأفريقيين، وما فعل فى الحقيقة الا خدمة بنى قومه بادخال من استطاع من أهل أفريقيا فى تبعية الغرب دينيا وحضاريا ٠ والبرت شفايتسر كان طبيبا ، ولكنه كان قبل كل شىء مبشرا دينيا ورجل استعمار غربى ، وليس له أى نصيب فى تحرير شعوب أفريقيا ٠

وأسوأ ما يفعله أولئك الرجال هو التبشير بمذاهبهم المسيحية ، لأن المبشر يسعى الى خلق أقلية مسيحية وسط أكثرية غير مسيحية ، وهو اذ يفعل ذلك يفصلها عن قومها ويجعلها أقلية ٠وهم لم يكونوا قبل ذلك اقلية، انما كانوا جزءا من شعوبهم أو قبائلهم ٠ والأقليات فى أى بلد من بلاد الدنيا فى وضع غير سعيد ، اللهم الا اذا كانت أقليات أصيلة مثل اقباط مصر الذين احتفظوا بعقيدتهم ، فى حين انتقلت الأكثرية الى الاسلام ، فنحن هنا لسنا أمام أقلية ، بل أمام مصريين كغيرهم ، وهم أهل بلد ومواطنون لم يفصلهم أحد عن جذورهم ، ولكن تأمل التعاسة التى ألحقها التبشير بشعب الزولو الذى أصبح اليوم مفروضا عليه أن يكون أقلية فى بلاده التى تنتمى الى الغرب لا الى أوطانها ، وانظر ما يفعله المبشرون بالنيوير فى السودان الجنوبى ، وما يزرعه المبشرون فى قلوبهم من العداوة لبقية أهل السودان ، أو انظر الى الابيو فى نيجيريا ، فهم تعساء بما زرعه المبشرون فى قلوبهم ٠ وهذا كله من فعل المبشرين ٠ وهذا لا ينطبق على الاسلام ، فان الاسلام لا يعرف التبشير ، ولم يكن للمسلمين أبدا تنظيم دعاية ، وانما هم المسلمون يدخلون البلد ويمارسون ديانتهم فيعجب بها من يريد الله هدايته من الناس ، فيدخل فى دينهم دخولا طبيعيا دون أن تكون وراء ذلك غايات مرسومة أو سياسات مدبرة ، واهتمام المسلمين اليوم بالدعاية لا يقصد من ورائه خلق أقليات سياسية ، بل تنظيم دخول الناس فى الاسلام ، حتى لا يدخلوه على يد مشعبذ أو جاهل لأننا نقول ان الاسلام هو دين الفطرة ، وان الهدى هدى الله ٠ ومن أسوأ ما يفعله الأمريكيون فى أندونيسيا اليوم هو التبشير هناك بالمسيحية ، فهم اذ ينقلون مسلما الى المسيحية يفصلونه عن قومه وحضارته ويجعلونه أجنبيا فى بلده ٠ ومع الزمن ستكون هناك أقلية مسيحية فى أندونيسيا ، وستعانى

ما تعانيه الأقليات من غربة فى وطنها وتبعية لغير وطنها ، وهذا خطر أنبه اليه حكومة أندونيسيا ، لا بدافع الدين بل بدافع الحرص على مستقبل أندونيسيا ، وأحب أن أؤكد أن كل مبشر جاسوس لقومه ودسيس سياسى فى النهاية حتى لو كان اسمه الأخت تيريسا التى تنفق عمرها فى خدمة المساكين من الهنود وادخالهم فى المسيحية فى بومباى ، وربما كانت نيتها هى سليمة ، ولكن الفاتيكان وهو دولة خطـــيرة ، لا يرى هذا الرأى ، والأخت تيريسا ربما لا تشعر بذلك ، ولكن رجال الفاتيكان قطعا يعرفونه ويحـــاولون جنى ثمرات جهودها ، وهذا هو البابا يوحنا بولس الثانى يفرض زيارته على الهند فرضا ، وهو يعرف أن الناس يستقبلونه كارهين ، ولكنه يصر على الذهاب ٠

وقد آن أن نفرغ من حكاية الدعوة الى الأديان على أساس التفاضل ٠٠ ونحن المسلمين يقول قرآننا : (ن عليك الا البلاغ) أى تعريف الناس بديننا ، أما الهدى فمن الله ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، وهذه حكمة وضعها بارىء الكون ، فلماذا نريد نحن أن نخالف حكمة الله ونجعل الناس أمة واحدة بالعنف أو الحيلة أو الدعاية أو التستر وراء المستشفيات أو مراكز العلاج ٠ وبرنارد شو وكان من أكثر الناس صراحة قال : ان الانجليز يستعملون الدين أداة استعمار : يرسلون القس ليدعو بالمسيحية بين البدائيين فيقتلونه فيكون هذا ذريعة لغزو البلاد واحتلالها ٠ وتأمل والله الحصاد المر الذى يعانيه أهل لبنان نتيجة لبذور جماعات التبشير ما بين فرنسية وأمريكية ٠

* * *

وانه لمن مفاخرنا ومفاخر اخواننا العـــرب أننا كنا من أوائل من تصدى للاستعمار الأول وتنبه للاستعمار الثانى وخضنا المعركة معهما ، مما زاد فى نقمة الغرب علينا ، وهى نقمة تكلفنا غاليا ولكنها لا تخيفنا ، فهى ليست الأولى ولن تكون الأخيرة ، ونحن ــ كما قلنا ــ بنو الدنيا من ألوف السنين ، نخوض معارك الحياة غير هيابين لا تروعنا هزيمة ولا يخيفنا عدوان ، لأننا نؤمن بأنفسنا وببلادنا ، والنصـــر لنا ــ باذن الله ــ طال الزمن أو قصر ٠

وبعد هذا كله ، فقصارى القول فى أمر وضع مصر الحقيقى بين العالمين ، أنها أشبه بالشجرة المباركة التى ذكرها الله ــ سبحانه وتعالى ــ فى سورة النور : فهى لا شرقية ولا غربية ٠

ولعل هناك من يسأل : أفنأخذ الحضارة الراهنة على علاتها ، ونعمل على نشرها لأنها حضاتنا ؟

والجواب عن ذلك ، أن لحضـــارات البشـــر جوهرا ومظهرا ، فالحضارة الاسلامية مثلا جوهرها التوحيد والعدالة والمساواة وكرامة الانسان واجلال العلم واتصال المخلوق بالخالق ـ وهو المثل الأعلى ـ دون وسيط ، وأما مظهرها فالملابس والمساجد والعادات والتقاليد ٠ فأنت تستطيع أن تكون مسلما دون أن تلبس العمامة ، وتستطيع أن تصلى دون مسجد ، وتستطيع أن تكون مسلما دون أن تعرف العربية ، وأنت قد تلبس العمامة الضخمة وتصلى فى مسجد يرفع سقفه ألف عمود ولا تكون بعد ذلك مسلما صادقا ٠

العبرة فى هذه الناحية بالجوهر ، وما يعنينا فى الحضارة الراهنة هو جوهرها ، وهو انسانى سليم عملى تقدمى لأنه علمى ، شاركت فيه أمم الشرق كلها بنصـــيب ، أما ما أضـــافته اليها بعض أمم الغرب من أساليب الاستعمار ، وما أضافته أمم غريبة أخرى من ولع بالاستمتاع بالحياة ، وأنانية وجشع شديدين ، وجنون السيادة ، وما أضافه الأمريكيون من تفنن فى أساليب جمع المال واستعماله أداة للسيطرة على الأمم ، فهذه كلها أعراض تصور الجوانب الضعيفة من نفوس تلك الأمم ، ومن الخطأ أن نعتبرها هى لباب الحضـــارة الغربية ، وأن نعتبر المظهر جوهرا ٠ وأولئك الذين يصيحون فينا : ان حضارة الغرب رقص ومخاصرة ومعاقرة بنت الحان ، انما هم مخدوعون أو خادعون ، لأن هذه كلها أعراض بعيدة عن الجوهر ، واذا صدق هذا على تلك الحضـــارة ، فهو يصدق على حضارتنا أيضا ، فقد كان فيها أيضا رقص ومعاقرة بنت الحان ٠

هؤلاء جميعا ينبغى أن يعلموا أن الحضارات من صنع البشر ، وأن البشر ليسوا ملائكة ، وليسوا شياطين ، وانما ركب الله فى طباعهم الخير والشر بحسبان قدره علمه الواسع ، وهو قد أودع فى الانسان شيئا من الشر لأن الانسان يحتاج فى كفاحه الى نصيب من الشر يتقى به الأذى ، وسبحان من خلق هذا الكون وبرأ الانسان ليعيش فيه بالخير والشـــر معـــا ٠

وأولئك الذين يدرسون الحضارات ينبغى ألا يغفلوا عن ذلك أبدا ، وينبغى أن يعلموا أن كل ما صدر عن الانسان لابد أن يكون فيه من هذا وذاك ، والعبرة بعد ذلك بالاختيار والانتقاء ، ونحن لا ندع زراعة الأرض ، لأن زارعها يتعرض لبعض الأمراض ، بل نزرع ونتوقى ٠

وأختم كلامى عن هذه المسألة بخلاصة هذه السطور السالفة كلها ، وهى أننا نحن المصريين ننتمى الى الانسانية جمعاء ، وهى تضم الشرق والغرب ، وحضارتنا هى الحضارة الراهنة التى تسمى غربية لأنها تضم خلاصة تجارب الأمم كلها ، بما فيها أمم الشرق ٠

* * *

وأما المسألة الثالثة ، وهى القول بأن « الحضارة الشرقية ـ والمقصود بها الحضارة العربية على وجه التحديد ـ لم تأخذ شيئا عن غيرها ، وانما هى نبتت من تلقاء نفسها ولا فضل لأحد عليها ، وأنها فريدة فى بابها لا تشبهها ولا تدانيها حضارة أخرى » ، فتحتاج الى شىء من تأمل واستدراك · وقد ناقشت بعض نواحى هذه المسألة فيما سلف ، وأثبت أن الحضارة العربية ، كأى حضارة أخرى ، لا يمكن أن تطفر من تلقاء نفسها ، كأنها شهاب هبط على الأرض من كوكب بعيد ·

وهذا القول غير جائز فى طبائع الأشياء جملة وتفصيلا ، لأن الحضارة هى تجارب البشر وأجيالهم ، يتوارثونها جيلا بعد جيل ، وقد أقام العرب مملكتهم فى عالم متحضر كان يتألف من شعوب ساهمت فى بناء صرح الحضارة الانسانية ، فورثوا ذلك وأقاموا عليه ، ونفخوا فى كيان هذه الأمم نفسها روحا جديدا جدد من نشاطها ووهبها مثلا عليا جديدة لتسعى اليها ، ومن ذلك كله تكونت ذخيرة الحضارة الاسلامية : فهى مدينة لغيرها ، وغيرها مدين لها ·

ونحن اذا قلنا انها قائمة بذاتها لم تأخذ عن غيرها شيئا فنحن نظلمها ولا ننصفها ، لأن الانسان انسان بقدر ما يأخذ من الناس ويعطيهم ، وأما المتأبد فى القفر لا يأخذ ولا يعطى فلا فضل له على أحد ، وليس هو بالرجل الذى ينفع الناس أو الذى يعولون عليه ، وكذلك الأمم ، لا تمتدحها بقولك انها لم تأخذ من الناس شيئا ، وأن الناس يعيشون على فتات موائدها ·

وانما القول الصحيح أن هذه الحضارة العربية ـ كغيرها من حضارات البشر سواء بسواء ـ أخذت وأعطت ، وورثت وورثت ، فيها ما ينفع البشر أجمعين ، وفيها ما يقتصر نفعه على العرب وحدهم ـ كأدب المقامة مثلا ـ وفيها ما يضر ، كما أن فيها ما ينفع ·

وأما القول بأن شيئا من أعمال البشر لا يدانيها ، ففيه من الناحية الانسانية استعلاء على البشر مرذول ، وعصبية كئيبة حقيقة بأن تثير العداوات ، وليس من خصال الانسان المهذب أن يتمسك بما يثير العداوات ·· ثم ان هناك كثيرا جدا من أعمال البشر يدانيها ، ومهما يبلغ من تقديرنا لأنفسنا ، فلا ينبغى أن يصل هذا التقدير الى حدود الأنانية أو التصور الصبيانى للأمور ·

وأولئك الذين يتسامون بالحضارة الشرقية الى هذا الأوج المفتعل ، انما يعتمدون على قضية غير سليمة ، هى اننا روحانيون والآخرين ماديون ، وأن حضارتنا حضارة الروح وحضارة الآخرين حضارة المادة ·

وأبسط علم « بما جرى فى التاريخ » ــ على حد تعبير جوردون تشايلد ــ يدلنا على أن حضارات البشر أجمعين تكونت من عناصر روحية وعقلية وأخرى مادية ، وأن عناية أجدادنا بالمادة لم تقل عن عنايتهم بالروح ، وأنهم حرصوا على الطعام الذى يؤكل بقدر حرصهم على الكتاب الذى يقرأ ، وأن الرجل منا ليس بدعا فى تكوينه ، وأن فينا من تستغرقه أمور الروح وفينا من تستهلكه شئون المادة · واننا اذا فاخرنا غيرنا بالحسن البصرى ، وابراهيم بن المبارك ، وعمر بن الفارض ، وذى النون المصرى ، ومحيى الدين بن عربى ، لفاخرنا غيرنا بالقديسين أمبروزيو ، وفرنسيسكو الأسيسى ، وتوما الأكوينى ، والقديسة تريسا دخيسوس ، ويوحنا الصليبى · واذا فاخرناهم بابن سينا ، وابن رشد وأضرابهما ، لفاخرونا بديكارت وكانت ومن اليهما ·

وشعوبنا ــ كبشر ــ فيها هواتف الروح ونوازع المادة ·

وانما البشر جميعا ــ شرقيين وغربيين ــ تغلب عليهم اليوم نوازع المادة ، لا عن انحطاط فى طبع البشر أو عن غلبة العناصر الغربية « المادية » فيما يزعمون ، بل لأن تطور الأحوال على ظهر كوكبنا ينحو بنا جميعا نحو هذا الاتجاه ·

ذلك أن البشر تضاعفوا بنسبة لم تكن متوقعة فقلت فرص الرزق أمام الناس ، فبينما كانت الأرض براحا أمام الزارع فيما مضى يستطيع أن يزرع منها قدر طاقته ، وحسبه أن يطلق فيها بعض الدواجن والماشية ليعيش فى سعة ، أصبح المقدور له اليوم من ذلك كله شيئا يسيرا ، لابد أن يجتهد فى استغلاله الى أقصى حد ، ولابد أن يعمل من البكور الى الغروب حتى يطمئن على رزقه ورزق عياله ، وينبغى أن يحسب حساب كل بيضة أو حفنة من دقيق أو اثارة من لبن ، حتى يستطيع أن يعيش ·

وبينما كان الأوساط فى المدن فى الماضى قليلين والخير من حولهم كثيرا ، مما يسمح لهم بالتأمل والاستمتاع بندوات الأدب وسهرات المنادمة ، أصبح عددهم اليوم ضخما والأسعار من حولهم غالية ، ولابد لهم من النضال طول اليوم حتى يحصلوا رزقهم ، فلا يتسع وقتهم لأدب أو مطارحات شعرية أو منادمات ، ولا تأذن لهم الظروف بالمكارم وألوان التوسعة التى كانت شائعة بينهم فى الماضى ، وهذا أمر يشاهده كل منا فى نفسه ·

والأمر بالنسبة الى الجماعات شبيه بذلك ، فلم يتغير البشر ولم يفسد طبعهم ، وانما تغيرت الظروف من حولهم ، ومع تغير الظروف تغيرت الاهتمامات ·

ثم ان العلم والصناعة غيرا وجه الحياة ، فكثرت المخترعات والمبتكرات وجدت أجهزة وأدوات لم يعرفها الناس فى الماضى ، وانتشر العلم بين الناس وتفتحت أبواب المدارس والجامعات للناس أجمعين ، فطمح الجميع الى المراكز العالية والعيش الرخى وطلبوا أدوات الحضارة الراهنة من سيارة وثلاجة ومذياع وتلفاز وأشياء أخرى كثيرة ، فتزايد الطلب عليها واشتد اجتهاد الناس فى الحصول على المال لشراء هذه الأدوات ، فاتجهت الحياة كلها وجهة مادية غالبة ·· فأين هذا من الحياة البسيطة فيما مضى ، عندما كان الطعام يطبخ على موقد حطب ، والماء يوضع فى قلة ، والطعام يؤكل على خوان خفيض (طبلية) ، فكان المال اليسير يغطى مطالب الحياة ؟

هذا ما يجعل بعض الناس ينظرون الى الماضى فى حسرة ، حاسبين أن زمان الخير والفضيلة قد ولى ، وما ولى قط ولكن الدنيا تغيرت وتقدمت وأخذت وجهة أخرى ·

ثم ان الانسان مضطر الى مسايرة ذلك التطور والقيام بكل تكاليفه ، لا لأن قانونا يقسره على ذلك ، بل لأنه لا يستطيع الا المضى فى ذلك الطريق · فهب أن رجلا منا أراد أن يستغنى عما استحدثته الحضارة من وسائل اعداد الطعام وأراد أن يعود الى تهيئة طعامه فى القدر يضعها فوق موقد الخشب ، فأين له الخشب ؟ وأين له الخادم التى تقوم على نظام الموقد ؟ وأين له البيت الذى يستطيع أن يسود حيطانه بالدخان كيف شاء ؟

وهذا مثل تستطيع أن تقيس عليه ·

فنحن نعيش فى عالم قد تغيرت ظروفه ، وتغير سلوك الانسان فى هذه الظروف · وليس معنى ذلك حتما أن طبع الانسان قد فسد ، أو أننا نعيش فى عصر مادى يوجه أموره نوع من البشر تغلب عليهم نوازع المادة ·

فلا محل للابتئاس ، ولا موضع للتشاؤم ·

وليس من صالحنا أبدا أن نتخذ من ظواهر الأمور حججا نستند اليها فى القول بعصبية لا معنى لها ، وترديد أنشودة تضر ولا تنفع : أنشود الشرق الروحى والغرب المادى ·

لأننا اذا أردنا أن نقدم لأنفسنا ولأولادنا فلسفة صالحة تنفعنا وتنفعهم فينبغى أن تكون هذه الفلسفة صحيحة لا زائفة ، وهى لا تكون صحيحة الا اذا قامت على مقدمات سليمة تطابق الواقع ،

والا كفر بها من أنار الله بصيرته من الأبناء ، وعاش أسير أوهامها من ختم الله على قلبه ، فلم ينتفع بها هذا ولا ذاك ·

* * *

وأنتقل بعد ذلك الى القضية الرابعة التى تقول بأن « هذه الحضارة العربية هى أصل كل حضارة أخرى ، وأن العالم لم يضف اليها شيئا الى الآن ، بل أنه أفسد بعض نواحيها » ·

فأما أنها أصل لكل حضارة ، فقد عرضنا لذلك فيما سلف بما فيه كفاية ، وأما أن العالم لم يضف اليها شيئا الى الآن ، فزعم استحدثه نفر ممن يحسبون أن المبالغات تزيد الحق بيانا والحجج قوة ، غير عالمين أن ذلك الأسلوب يضعف القضايا ويلقى فى النفوس شكا فى قيمتها ·

وهم يحسبون أن الايمان بحضارتنا وحقوقنا لا يستقر الا اذا شددناه بأمثال هذه الأقوال ، وهو أمر لا تحمد مغبته ، لأن سامع هذا الكلام لا يلبث أن يرى من واقع الأمور ما ينقضه ، فيعسر بعد ذلك حمله على الايمان بشىء · وهو فى ذاته أمر خطر ، لأن الشعوب اذا فقدت الثقة فيما يلقى اليها من القضايا ، دخل نفوسها الشك فى كل شىء ، وأصبح من العسير ردها الى الايمان بالمبادىء السليمة والكرامة الانسانية ، وهو أمر لا يستقيم معه أمر جماعة انسانية ·

ولقد فسد أمر مصر القديمة عندما فقد الصفوة من أهلها الايمان فى كهانها ، بسبب اسراف أولئك الكهان فى عصور الاضمحلال فى الدعوة لآلهتهم · وحدث مثل هذا للاغريق بعد القرن الخامس قبل الميلاد ، عندما أوغل الشك فى قلوب الناس من ناحية السياسة ورجالها ، بسبب اسراف هؤلاء فى الوعود والتهاويل · وهذا أيضا هو الذى اجتاح أوربا خلال القرن السابع عشر نتيجة لاسراف رجال الدين فى الحديث عن القديسين والأحبار والبابوية ، وقد سخر فولتير من تلك الروح فى قصته اللطيفة « كانديد » ·

وليس أسلم فى مثل هذه القضايا من أن نقرر الواقع ، فان الواقع أقوى الحجج ·

ونحن اذا ذهبنا نقول ان العالم لم يستحدث بعدنا شيئا ، وان الطائرة أشار الى فكرتها ابن فلان ، والقاطرة ذكرها أبو علان ، والنظرية الذرية نجدها بحروفها عند الفلانى ، لم يلبث الناس أن يتخذوا من ذلك المذهب منا مادة فكاهة · وخير من ذلك أن نصل بالأمور الى مداها المعقول ، وندعها هى تدعو لنفسها بنفسها ·

ومن مخاطر الدعوات أن يلجأ أصحابها الى ما يلجأ اليه محدث النعمة الذى يملك القليل ، فلا يكف عن الحديث عنه ، فيركبه الناس بالسخرية ، أو المفتون بأبيه أو جده ، فلايزال يتحدث عنه حتى يسأم الناس حديثه ، أو الشكاك فى أصالة نفسه ، فلايزال يلتمس لنفسه الأحساب ينمقها ويزوقها ، على مثال شجرات الأنساب التى كانت تباع وتشترى • أما صاحب النسب الصريح فقلما يتحدث عنه ، وهو اذا ذكره لم يحاول انكار ما عسى أن يؤخذ على بعض أجداده ، ثقة منه فى نفسه وفيهم •

ونحن لا يصدقنا أحد اذا قلنا ان أحدا لم يضف الى ما وصل اليه أجدادنا شيئا ، لأن الناس كلهم يرون أن البشر أضافوا بعدنا كثيرا ، وها نحن نأخذ عنهم العلم ومذاهب الفكر ، ثم أن الناس يرون أن الذين أتوا من بعدنا لم يفسدوا شيئا من نواحى حضارتنا الماضية ، وانما هى بلغت الحد الذى قدر لها أن تبلغه ، ثم كلت قواها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من حضارات البشر ، وتلك سنة البشر مع العمران منذ بدء الخليقة ، فلا يقلل من شأننا أننا وقفنا عند حد بعينه ، وليس لغيرنا أن يفخر علينا بأنه سار من حيث وقفنا •

***

والمسألة الخامسة التى أعرض لها هنا ـ وهى آخر ما أمر به فى سياق تحديد علاقتنا بحضارة الغرب ـ هى قولهم اننا اذا كنا نريد أن نعيش ، فواجبنا الأول هو القضاء على كل أثر من آثار الحضارة الحديثة فى بلادنا ، وتنقية حضارتنا العربية والعودة بها الى جوهرها السليم الصافى الذى كانت عليه •

وهذا الزعم نادت به جماعات من السلفيين الذين أحسوا فى أنفسهم العجز عن مواجهة الحاضر ، فهرولوا الى الماضى ليدفنوا رءوسهم فيه •

وغالب أولئك من طلاب المجد عن طريق جهاد الكلام وشقشقة اللسان ، أو طلاب السلطان عن طريق تضليل الناس وخلق الأوهام فى أذهانهم والتصدى لمحاربتها بعد ذلك •

وهؤلاء جميعا انما يستغلون ناحية العاطفة عند الناس ، وهم يحسبون أنهم يفعلون خيرا عندما يثيرون فى قلوب الناس كوامن الحسرات على ما فات ، ثم ايهامهم بأن العودة الى الماضى ممكنة ، وأن السبيل الى ذلك هو اسلام القياد لهم ، وهم يعرفون كيف يقودون أهل القرن العشرين الى عز القرن العاشر •

وقد جنى علينا أولئك الناس جنايات شديدة ، وسيطروا على عقول نفر من الشبان وزعموا لهم أنهم يقودونهم الى المجد ، فلم يقودوهم الا الى العطب • وقادهم الى المجد الصحيح بعد ذلك رجال صدقوا فى كلامهم وأخلصوا فى جهادهم ، ونقلوا أمم العروبة والاسلام من عالم الأوهام والتضليل وجهاد الكلام الى عالم الحقائق والواقع ، وعلموها ما هو الجهاد الصحيح وما هو العمل المثمر ، فلم تلبث الآمال أن بدأت تتحقق ، ولم يلبث وضعنا العام أن صحح ، وأخرجنا المستعمرين من بلادنا وانتهجنا سياسة الانتاج والتعمير والانشاء ، وهى وحدها كفيلة بتحقيق الآمال ، ووصل ما انقطع من تاريخنا الطويل •

وقد وقفت هنا هذه الوقفة الطويلة ، لكى أعبر بالقارىء المصرى فجوة اوجدها نفر ممن لا يتمثلون فى أذهانهم شخصية بلدنا على وجهها الصحيح ، ولا يتصورون — لذلك — اتجاه هذا التاريخ فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، ويحسبون أن لا صلة لنا بهذا الغرب ، بل يرون أننا لابد أن نعادى حضارته ونحاربها ، لأنها غريبة عنا منافية لطبيعتنا •

وقد بينت الآن — بالقدر الذى سمح به هذا الحيز — أن هذه الحضارة الغربية انما هى حضارتنا نحن ، وأن أبوتنا لها تفرض علينا اتصالنا بها والاسهام فيها •

بقى أن أضيف بضعة سطور عن حضارة البحر المتوسط ، التى هى أساس حضارة الغرب اليوم :

ذكرت كيف وضعت أسس حضارة البحر المتوسط ، وكيف رسمت لها من بعيد خطوطها الرئيسية • وحضارة البحر المتوسط هذه هى الحضارة الراهنة محسنة مزيدة ، فقد انتقلت من المصريين الى الاغريق ثم الى الرومان ، ثم احتفظت الكنيسة الكاثوليكية بلبابها عندما غزا الجرمان أراضى الدولة الرومانية ، فلما استقرت ممالكهم أخذوا هذه الحضارة عن طريق رجال الكنيسة وأحبارها ، وأضافوا اليها القليل الذى كان لديهم ، ومن هذا وذاك كانت نهضتهم الكبرى التى تسمى بالـ « رينيسانس » — أى الميلاد مرة أخرى — وقد كان الناس يقولون انها بدأت خلال القرن الخامس عشر الميلادى ، ولكن المؤرخين أثبتوا أنها بدأت فى القرن العاشر الميلادى • وقد بعثت هذه النهضة الغرب بعثا جديدا ، ووصلت ما كان قد انقطع من سير الحضارات القديمة • ومضى الناس يبحثون عن تراث الفكر اليونانى القديم فوجدوا جانبا كبيرا منه فى صورته العربية • واستفاقت العقول ونشطت من عقالها ، واتجه الناس الى العلم اتجاها شديدا ، وفتنتهم فلسفة الاغريق وعلومهم وطبهم فتنة بالغة ، فتحدثوا عما سموه بالمعجزة الاغريقية le miracle grec وفى أثناء بحثهم تبينوا أن المعجزة الاغريقية ترتكز على أساس من

حضـــارة مصـــر القديمة فتحدثوا عما ســـموه بالمعجزة المصـــرية le miracle egyptien · وقد بســـط الكلام فى ذلك جـــاك بيرين Jacques Pirenne فى كتابه المعـــروف « التيـــارات الـــكبرى للتاريخ العالمى » Les grands courants de l'histoire universelle وفى هذا الـــكتاب ــ الذى يقرأ الآن فى كل لغة كبرى ــ من الحـــديث عن فضل مصـــر على حضـــارة العالم ما يرفع هامة كل مصرى ، وقد اختص حضـــارة مصر بكتاب آخر من ثلاثة أجزاء يسمى Histoire de la Civilisation Egyptienne أتمنى أن يجد من يترجمه الى العربية ليعمق احساس المصرى ببلاده وبقدرها فى التاريخ ·

واذن فهذه الحضارة الأوربية التى نراها اليوم انما هى حضارة البحر المتوسط ، التى وضعنا نحن أسسها فى الأعصر القديمة ، وأسهمنا فيها فى الأعصر الوسطى بما قمنا به فى ظل الاسلام ، فكيف يقال لنا انها حضارة غريبة عنا وأننا غرباء عنها ، وأنها تتعارض مع طبائعنا وجوهر تمدننا ؟ ·

ولقد رأيت مرة رجلا يتهكم على صاحب له لأنه يأكل على خوان بالملعقة والشـــوكة والسكين ، ويقول له ان هذه فرنجة لا معنى لها ، وان الخير فى العودة الى « البلدى » والأكل بالأصـــابع على الطبلية ، فهذه طريقة الأجداد وهى مبروكة ، و « من فات قديمه تاه » ، فقلت له : أخطأت يا هذا مرة بعد مرة ، فان أجدادنا الفراعنة كانوا يأكلون على الخوان ويســـتعملون الملعقة والســـكين ، أما الأكل بالأيدى على الأرض فقد ارتقوا عنه ، فطريقة الأجـــداد اذن هى تلك التى تعتبرها أوربية وتنهى صـــاحبك عنها ، ثم ان الأكل بالأيدى قذارة ومضـــرة بالصـــحة ، والأكل على الأرض يجعل المعدة فى وضع غير مريح ، فهو ضـــرر خالص ، وهو من أكبر أســـباب تدلى الكروش والافراط فى السمنة وترهل الجسم ، وكلها مقاتل ، فكيف تنصح صاحبك بها ؟

وكيف تقف حدود رســـالتنا عند ابواب هذه الحضـــارة ؟ كيف لا نعتبر أنفســـنا من بناتها ومن المســـئولين عن مصـــايرها ؟ وكيف لا نقوم بنصيبنا فى قيادتها ؟

ان مصر التى أنشأت هذه الحضارة ، وأســـهمت فى حضـــارة الشـــرق بأوفر نصيب ، وجاهدت فى سبيل حضـــارة أفريقية ، لا يمكن أن تقصـــر رســـالتها على جانب دون جانب من هذه العوالم ، وموقعها نفســـه يملى عليها ذلك ، فهى ميزان هذا العالم القديم ونقطة ارتكازه وملتقى قاراته الثلاث ، وواجبها حيالها كلها واحد : واجب الأب نحو الأبناء ، ورسالتها فيها كلها واحدة : سلام وعرفان ·

فان قال قائل : ان ذلك مبالغة منا فى تقدير رسالتنا ، فليأذن لى فى أن أقول له انه لم يدرك بعد كنه تاريخنا ولا العوامل المحـــركة له على طوله ، وليأذن لى فى أن أقول له ان أى تحديد لمدى رسالتنا هذه لا يعود علينا بغير الكوارث ·

أتدرى كيف ؟

اليك البيان ··

***

وقفت معك بالكلام عن نصيب مصر فى حضــــارة الأعصـــر القديمة والوســـطى عند أبواب مصر الاســـلامية ، ولكنى لم أقل لك شيئا عن هذه ، وأنت حقيق بأن تعرف حقيقة ما جرى فى ليل ذلك التاريخ الطويل ·

عندما فتح العرب مصر عام ٦٤٠ م كانت ولاية بيزنطية تحكم من القسطنطينية ·

وعندما غزا الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨ وجدوها ولاية عثمانية تحكم من نفس القسطنطينية التى حملت اسما جديدا هو استنامبول ، أو الآســـتانة ·

ولم يكن حالها عام ١٧٩٨ بأحسن من حالها عام ٦٤٠ ، كان الناس فى بؤس وذل ، وكان البلد فى خراب ·

فكأن اثنى عشر قرنا من تاريخ هذا البلد ضاعت سدى · كأن هذه السنوات الكثيرة قد انقضت ونحن نيام بعيدون عن الوجود !

شى لم يحدث فى تاريخ بلد مثل مصر قط ·· تصور اثنى عشـــر قرنا ونصفا تذهب سدى !

قد يقال : قامت خلالها دول وكانت أمجاد ·· ولكنها تلاشـــت كأن لم تغن بالأمس ، وعاد المصـــرى - وهو مدار هذا التاريخ المصرى ومقياسه - بالضبط كما كان فى أواخر أعصر الرومان ·

ما الذى حدث ؟

الذى حدث أننا تخلينا عن رسالتنا ، وغلب علينا شعور بأننا لسنا الا جزءا من دولة كبرى هى دولة الخلافة ، واندرجنا مع التيار ، وسادنا شعور أمة تابعة لغيرها ، فكان ذلك الانكسار الخطير فى سير تاريخنا ·

ذلك أن حكام مصـــر الاســــلامية ـ من الفتح العربى الى أوائل القرن التاســـع عشـر ـ كانوا آسيويين · بعضهم أتى من آسيا واستقر فى بلادنا حاكما ، والبعض الآخر ولد فيها وظل محافظا على آسيويته · صحيح أن الكثيرين منهم تمصروا ، ولكن هذا التمصـــر لم يتعد بعض المظاهر ، ولم يمس الروح الا فى النادر ، لأن الأمور فى مصر وسائر العالم الاسلامى كانت من القلق بحيث لم تسمح لأولئك الحكام بأن يتشربوا روح البلد الذى استقروا فيه وقاموا على مصايره ·

وقد تعاقب حـــكام العرب ـ فى عصـــر التبعية للخلافتين الأموية والعباســـية ـ فى ســـرعة حالت بينهم وبين أن يتأثروا مجرد التأثر بهذا البلد ، ثم بدأت الدول المستقلة ، ومعظمها قصير العمر قليل القوة بحيث لا نستطيع أن ننتظر منه شيئا ، ولم ينفسح الأجل الا لواحدة منها ، هى الفاطمية ، قد حكمت مصر ٣٠٢ سنة تقاسمها فيها فيما بينهم أحد عشر خليفة ، لم تستقر الأحوال الا للثلاثة الأول منهم ، وهم المعز والعزيز والحاكم ، ثم بدأ القلق والخوف والاضطراب الذى لم يســـمح لخلفاء الفاطميين بالتأثر بطبيعة بلادنا ·

ومثل هذا يقال عن الايوبيين : فقد شغلتهم أمور الحرب الصليبية والأخطار المتوالية عن النظر فى أمور مصر بعيون مصـــرية · وكذلك المماليك : لا نستطيع أن نعتبر حكمهم عصرا واحدا أو عصرين ، وانما هو عصور متلاحقة قام على توجيه سياسة مصر خلال كل منها سلطان لا يختلف فى الغالب عن سابقه فى المزاج والتكوين والاتجاه ، بل فى الجنس ·· ولم يتأثر أولئك المماليك فى مجموعهم بمصر الا على نحو ضئيل جدا لا يكاد يذكر · فقد أراد لهم الحظ السيىء أن ينهجوا فى حياتهم العامة والخاصة نهجا غير سليم ولا انسانى ، وما رأيك فى ناس كانت حياتهم كلها فوق ذلك التل القاحل الذى هو جبل المقطم ؟ هناك ـ حول قلعة صلاح الدين ـ أنشئوا معسكراتهم المعروفة بالطباق وبيوتهم · وكان الماء يصل اليهم على سقاية عالية تأخذ الماء من النيل ويرفع اليها بواســـطة سواق بعضها فوق بعض لازال موضعها يعرف الى اليوم « بالســـبع سقايات » فى مدخل مصر القديمة · وكان الطعام يحمل اليهم يوميا من الوادى كأنهم جيش محاصر ! هذا والوادى من تحتهم أخضـــر زاهر ، والناس حضر فيهم أنس وبركة ، ومع ذلك فقد ظلوا حياتهم بعيدين عن الناس وظل الناس بعيدين عنهم ، لا الناس متأثرون بهم ولا هم متأثرون بالناس · والواحد منهم يؤتى به صـــبيا ، فينشـــأ كاليتيم ، يربيه مملوك عجـــوز لا يعـــرف غير العصـــا ، ويقضون حياتهم كالزنابير فى عش ، لا هى تألف ما حولها ولا ما حولها يطمئن اليها · ولهذا فقد ظلوا تاريخهم كله أغرابا عن مصر وأغرابا بعضهم عن بعض ·

ثم كان الأتراك العثمانيون ، وهم خاتمة المطـــاف . ونهاية هذا الخيط الطويل من أولئك الآسيويين . ولقد عاش ولاة الأتراك وجندهم فى مصر ما قدر الله لهم أن يعيشوا ، دون أن يقبســـوا حتى لغة البلاد ، فكيف نرجو ـ وهذا حالهم ـ أن يأخذوا عنا أو يتأثروا بنا أو يتعرفوا الينا ؟

وليس هنا موضع تحليل سياسات أولئك الحكام أجمعين ، ولكنه موضع الاشارة الى حقيقة واحدة هى التى تعنينا هنا : هى أن أولئك الناس جميعا أقاموا فى مصر ما أقاموا ، وعيونهم مثبتة نحو الشرق ، نحو آسيا ..

كان همهم جميعا موجها نحو جناحنا الشرقى ، وظلت اهتماماتهم آسيوية . ولقد أنفق أحمد بن طولون على بلد مثل طرسوس أضعاف ما أنفق على القاهرة نفسها ، واستنفد جزءا كبيرا من قواه فى التنافس مع رجل كابن رائق . وقضى الأيوبيون والمماليك معظم أيامهم فى الشام ، ولقد كان ذلك ضروريا لتأمين مصر من الأخطار من هذه الناحية ، ولكنه شغلهم تماما عن الاتجاهات الأخرى التى ينبغى أن تشـــغل حاكم بلد كمصر ، يقوم وسط الدنيا : له شرق وغرب وجنوب ، كلها فى حاجة الى التفاتة وعناية ، وشماله بحر هو من بناة حضارته ، وله فى مصايره كلمة يقولها . شغلهم الاستغراق فى الناحية الآسيوية عن جبهات مصر الأخرى : الجبهة الأفريقية وهى ذات شقين : واحد فى الجنوب وواحد فى الغرب ، وشغلهم عن جبهة البحر المتوسط ، فانصرفوا عنها تماما ، وضاعت علينا بذلك ميزات ذلك الموقع الجغرافى الهام ، ولم نجن من خيراته شيئا . بل تعرضنا بعد ذلك لعواقب اهماله ، اذ نهضت الأمم على سواحل ذلك البحر ونحن فى سبات عميق ، وأفقنا آخر الأمر فاذا أقوام من وراء ذلك يطرقون أبوابنا غزاة فاتحين ..

ولكن ، ما السبب فى ذلك الخط غير المصرى الذى سار فيه تاريخ مصر منذ الفتح العربى ؟

لكى أجيب عن هذا السؤال أحتاج الى مجلد كامل لأشـــرح لك الانكسار العظيم الذى أصاب تاريخ أمم الاسلام ، ولكنى أقول لك بضع كلمات موجزة تتناسب مع حجم هذا الكتاب وموضوعه :

فى أثناء النزاع المحـــزن والحـــرب الأهلية التى دارت بين على ومعاوية ، فقدت أمة العرب طريقها السليم الذى رسمه لها محمد صلوات الله عليه وسار فيه الخلفاء الراشدون .

فقد بدأت الثورة على عثمان رضى الله عنه فى صورة بحث عن الحق ومحاولة لتصــحيح ما تصور الثائرون أنه انحــراف عن الطريق

الاسلامى ، والمناقشات التى دارت بين عثمان والثائرين عليه لم تكن حول الخلافة ومن يستحقها أو لا يستحقها ، وانما كانت حول تصرفاته هو : هل كانت متفقة مع ما سنه الرسول وسار عليه الشيخان أم لم تكن ، أى أن الفتنة بدأت فى صورة بحث عن الطريق الاسلامى السليم ومحاولة لاقناع الخليفة بالتزامه ، وهى ـ من هذه الناحية ـ ثورة طبيعية بل واجبة ، فان من واجب الأمة أن تناقش أولى الأمر فيها فى أمر سياستها ومصيرها ٠

ولكنها لم تلبث أن تحولت الى تصادم عنيف ، كما حدث فى كثير من الثورات ٠ واندس فى صفوفها ناس لا يطلبون الحق ، وانما هم طلاب فتنة وباحثون عن مكاسب ومغانم ، فاجتهدوا فى اثارة النفوس وحولوا الحركة الى عدوان دموى على خليفة جليل ، وفى أثناء هرج الفتنة عدا عليه بعضهم فقتلوه ، دون أن يكون لهذه الجريمة أدنى داع أو أبسط مبرر ، وقد وقع الأمر بغتة والناس أبعد ما يكونون عن تصور امكان وقوعه ٠٠ وماج الناس موجا ، وتهددت جماعة الاسلام مخاطر كبرى ٠

وفى هذه الظروف تمكن نفر من عقلاء الأمة الحريصين على خيرها من مبايعة على بن أبى طالب ، فقامت خلافته وسط زوابع وزعازع ، ولكنها أنقذت جماعة الاسلام من كارثة محققة ٠

وحاول على أن يعود بالأمور الى سيرتها الراشدية السليمة ، فبدأ بعزل الولاة الذين كثرت منهم الشكوى ، وهذا حقه ، فان أبابكر وعمر كانا يعزلان ويوليان دون أن يناقشهما أحد فى أسباب ذلك ، فهذا حق الخليفة ولى الأمر المؤتمن على مصالح الأمة ٠

وهنا فوجىء على بأن بنى أمية ـ بقيادة معاوية بن أبى سفيان والى الشام ـ يعصون أمره ويزعمون أنهم أولياء دم عثمان ، والحقيقة أن ولى دم عثمان وأهل دولة الاسلام جميعا انما هو الخليفة الشرعى ٠ واعتز معاوية بقوة الجند الذين كانوا معه ، ووجد على نفسه مضطرا لأن يفرض سلطانه بالقوة ، فانتقل الى الكوفة ، وكانت مركزا من مراكز تجمع القوى ٠ وبدأت الحرب الأهلية بين الخليفة الشرعى ووال متمرد عليه ٠

وتطورت الأمور تطورا سريعا ، من حرب تأديبية يقوم بها خليفة على وال خارج على دولة الجماعة الى صراع حول الخلافة نفسها ، وهذا هو الانكسار الخطير الذى أخرج جماعة الاسلام ودولته عن خطها الطبيعى الذى كان ينبغى أن تسير فيه ٠

بدأت الفتنة اذن بداية طبيعية ومشروعة فى صـــورة محاســـبة الجماعة لخليفتهم على أمور لم يرضوا عنها ، ثم تحول الأمر الى نزاع حول الخلافة نفسها أو حول السلطان ، وتشاء الظروف أن يستشهد على فى وسط النزاع على يد مغتال اثيم ، ويخلو الجو لمعاوية فيصبح خليفة بالمغصب وقوة السلاح لا بالحق ولا بالاختيار ولا حتى بالتراضى ٠

وليس هنا مجـال الحكم على خـــلافة بنى أمية وما قامت به من الأعمال وما لم تقم ، فهذا موضـــوع آخر ، وانما الذى يعنينا هنا أن الخلافة أصبحت ملكا دنيويا – أو عضـــوضا كما يقال – يفرض على الناس بالقوة ويفرض بالقهـــر ، ومادام يقوم على القوة فهو لا يزول بغيرها ، وهنا تبدأ قصة التطاحن الطويل حول السلطان ، وتخرج من خلافة تقوم على الحق والاختيار والرضـــا الى ملك يقوم على القوة والقهر ، أى أن التجربة الاسلامية المجيدة التى بدأت عندما أنشأ الرسول صلى الله عليه وسلم جماعته فى المدينة ، انتهت بكل ميزاتها وخصائصها الانسانية الاسلامية ، وأصـــبحت لها قواعد أخرى غير العدالة والمحبة والشورى ومكارم الأخلاق أو المروءة ، قواعد أخرى هى القوة والعنف والبطش وما لابد أن يتأتى عن ذلك من ظلم وعدوان ، لأن الذى يجعل السلطان غايته يستهين بكل شىء فى سبيل المحافظة عليه ٠ وزاد الأمر بلاء أن خلفاء بنى العباس استوحوا قواعد الحكم الســـاسانى العقيم ، فاعتمدوا على الجند المرتزق ، وحكموا بالرهبة لا بالمحبة ، وساموا الناس بالخوف لا بالاقتناع ٠

وهذا لا يمنع من القول بانه كان هناك خلفاء أو سلاطين من أهل العدل والخير والفضل ، ولكن العدل فى هذه الحالة كان تفضلا منهم على الناس ، لاحقا للناس عليهم كما كان الأمر أيام عمر رضى الله عنه ٠

ومن خصـــائص حكم البطش والقوة أنه يســـير دائما من سيىء الى أســـوأ ، لأنه يقوم أولا على اخراج الأمة من ميدان الســـياسة وحرمانها من حقها فى تســـيير شـــئونها ، بل معاقبة من يتطلع الى المطـــالبة بهذا الحق ، ويعتمد ثانيا على الجندى المرتزق ، والجندى المرتزق فى العادة مغامر لا مكان للضمير فى تصرفه ، وقد انتهى الجند العباسى المرتزق الى اذلال الخلفاء أنفسهم ، فأصبح بعضهم فى يد الجند أسوأ حالا من رعاياهم ٠

المهم لدينا أن الأمة أخرجت من ميدان الســـياسة وحرمت حقها من المشاركة فى تســـيير شـــئونها ، وأصبحت الأمة عدوا للسلطان ، والسلطان عدوا للأمة ، فلا تعاون ولا ثقة بين الجانبين ، الا فيما تدعو اليه الضرورة التى لا مفر منها ٠

واذا كان الأمر قد وصـــل الى ذلك الحد فقد حرص الحاكم على الا يدخل رجال الأمة وشبابها فى الخدمة العسكرية ، وهكذا انتهى هذا الطريق السيىء الى حرمان شباب الأمة من شرف الانضمام الى جيوش الاسلام ، وبينما كان عمر يعاقب من يتخلف عن الالتحاق بصـــفوف المجاهدين ، أصبح الخلفاء والسلاطين يحظرون على الأمة حمل السلاح ٠

وهذا ينطبق على كل البلاد الاسلامية : هكذا كان الأمر فى دول العراق وفى الشـــام وفى مصر وفى المغرب والأندلس وفى كل نواحى دولة الاسلام ٠ فى كل هذه البلاد أصـــبح الحكم وكأنه كرة يتبادلها ناس محترفون لهذه اللعبة السياسية الســيئة ، غالبيتهم العظمى أجانب أو يعتبرون أنفسهم أجانب أو غرباء ، يقضون عمرهم بين جندهم وحواشيهم وخدمهم ونسائهم ، ويشاورون فى أمور الدولة الخدم والرقيق ومن هم فى مستواهم ، ولا يستشيرون ــ الا فى النادر ــ أهل العلم والفضل والمروءة ، واذا فعلوا ذلك كان تفضلا منهم وشيئا نادرا يســـجله المؤرخون كأنه عجيبة ٠

وشيئا فشيئا فقدت الأمة احساسها بأن الحكم من حقها وأنها لابد أن تشـــارك فيه ، وأصـــبح الطبيعى أن يكون الحاكم انسانا غريبا عن الناس لا يعرفهم ولا يعرفونه ، بل جاء وقت أصـــبحت فيه أســـماء حكامهم غير عربية ، من أمثال بغا ويلبغا وخمارويه وأونوجور وبيبرس وقلاوون وأنر وأرتق وسنقر وخوشقدم وقنصوه وباغيسيان وسقمان وهم الزمان ٠

وانتهى المطاف بأن صار الحكم فى يد المملوك الذى اشترى بالمال ليخدم الدولة فأصبح سيدها ، وكان ذلك الانتقال طبيعيا ، لأن صاحب السلطان ــ فى أنانيته وكلبه على الحكم ــ استعان بالمملوك على اذلال الأمة ، أى أن المملوك أصبح أداة السلطان وعماده ، وعندما تنبه المملوك الى ذلك فطن الى أن السلطان نفسه عالة عليه وزائدة لا لزوم لها ، فألغاه وحكم بنفسه مباشرة ٠

ولم يكترث أحد لذلك ، فهذا غاصب ظالم وذلك غاصب ظالم ، ثم ان الأمة عندما حرمت من حقها فى ممارسة الحكم فى بلادها فقدت نتيجة لذلك أدوات هذه الممارسة ، فأفرادها لا يتلقون أى تدريب عسكرى ولايملكون سلاحا ، وليست لديهم أى مؤسسات أو تنظيمات يصلون عن سبيلها الى هذه المشاركة ، والدول ينبغى أن تقوم على مؤسسات institutions لا على أفراد ، وقد خلت نظمنا السياسية الماضية من المؤسسات السياسية خلوا تاما ، بل لم يكن فى أى منها حتى مجلس عرش ، وأقل المؤسسات السياسية شأنا أبرك للأمة من أعاظم العباقرة ، وبدون مؤسسات لاثبات ولا تقدم ٠

ولقد كانت فى فرنسا فى عهد الملوك مؤسسة شكلية تقريبا هى مجلس الطبقات ، كانت مجرد مجلس استشارى للملوك ، ولكن الثورة الفرنسية كلها ولدت فى هذه الجمعية الوطنية • ولعلك تذكر أن الحـــركة القومية المصـــرية ولدت ميلادها الحقيقى فى مجلس شورى النواب ، وهو كان مجرد مجلس أعيان ، ولكنه كان مؤســـسة على أى حـــال ، ولابد من مؤسسات ونظم حتى تتحرك عجلة الاصلاح والتقدم •

كان لابد من هذا الاستطراد حتى تفهم السبب فيما وصـــلنا اليه خلال العصور الوسطى ، وحتى تعرف أن أمتك غير مسئولة عما يقال أحيانا من أن الأجانب كانوا يحكمونها طوال العصور الوسطى ، أو أن المصرى لم يساهم فى جيوش بلاده الا فى العصر الحديث • فقد فهمت الآن أن ذلك كان أمرا لا ذنب لنا فيه ، وكان أمرا عاما جـــرى علينا وعلى غيرنا ، وفرض علينا فى ظروف سيئة استمرت بعد ذلك أحقابا •

* * *

ونعود الى ما اســـــتطردنا عنه فنقول ان معظم هؤلاء الحكام ، وخاصة بعد انتهاء عصر الخلفاء العظام وتقاســـم المســـتبدين المحليين لنواحى دولة الاســـلام وانشـــائهم دولا خاصة بهم فيها ، معظم هؤلاء الحكام وجهوا ســـياستهم نحو ما يخدم أســـراتهم وحدها دون اهتمام بمصالح الأقطار التى حكموها أو بشعوبها •

وفيما يتصـــل بمصـــر مثلا ، لا يمكن القول بأن أحمد بن طولون وجه سياستها وجهة مصـــرية ، وكذلك فعل الاخشـــيد ثم الفاطميون ، بل لقد حارب الفاطميون الخلافة العباسية السنية مع أن عواطف أهل مصر جميعا كانت معها • فاذا كانت مصـــر قد حققت بعض التقدم فى عصور هؤلاء أو هؤلاء ، فان الفضل فيه يرجع الى شعب مصر نفســه وماركبه الله فيه من صفات وخصائص •

من الخطأ ـ لهذا ـ أن يقال مثـــلا ان أحمد بن طولون ارتفـــع بمصر ، لأن الصحيح هو أن مصر هى التى رفعته وجعلت منه شيئا ، ومصر كانت عظيمة قبله وظلت عظيمة بعده ، أما هو فقبل أن يدخلها لم يكن شيئا ، وكل ما وصل اليه انما هو أفضال مصر وخيرها عليه •

وقد كان المعز لدين الله الفاطمى ملكا غاصبا خبيثا جماعا للأموال مزعزع السلطان مضطرب الأحوال فى المغرب ، وكانت الدنيا ضيقة به وبآبائه فى أفريقية (وهى تونس) ، وفيما وصل الينا من مذكرات رجال الفاطميين وخدمهم وبعض مؤرخيهم نقرأ عبارات اليأس والضياع والعوز المالى ، وكان هو وأهل بيته يتاجرون فى الأخشاب وغيرها ، وكان قائده

جوهر الصقلى مغامرا عسكريا مرتزقا يضرب شمالا ويمينا دون أن يصل الى نتيجة ، فلما دخل المعز مصر أصبح خليفة ذا شأن · وهو وقائده لم يعطيا مصر شيئا ، بل مصر أعطتهما كل شىء ·

وما كان ليخطر ببال المعز أن ينشىء عاصمة كبيرة كالقاهرة ، بل هو أراد أن ينشىء معسكرا وحصنا لأسرته فى بلد تصور أنه احتله بالقوة، وقد أنشأ آباؤه فى أفريقيا ـ قبل مجيئهم مصر ـ مدنا هناك ولدت ميتة فيماعدا المهدية التى كانت حصنا فاطميا هائلا قائما على يد ممتدة فى البحر · وقد كان للمهدية دور طويل فى تاريخ البحر المتوسط ولكنها ماتت فى النهاية ، أما القاهرة فقد ظلت بلدا صغيرا ومعسكرا للخليفة وجنده أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان ، وقد وصف الادريسى مصر فى عصر المستنصر الفاطمى فلم يقف بالقاهرة الا وقفة قصيرة ، وانما كانت العاصمة والمدينة ذات الشأن هى الفسطاط ، وهى عاصمة المصريين · وكذلك زار الادريسى مصر سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ووصفها فى كتابه « نزهة المشتاق » ، فأطال الكلام عن الفسطاط والاسكندرية وكل مدينة ذات شأن فى مصر ، أما القاهرة فلم يذكرها الا ذكرا عابرا ·

وانما أصبحت القاهرة بلدا عظيما عندما دخلها أهل مصر فمدنوها وحولها من معسكر الى مركز حضارة وعلم، فلا المعز ولا جوهر أنشآ القاهرة ، وانما نحن أنشأناها ، وهذا هو القول الفصل فى هذا الموضوع ·

والسبب الرئيسى فى ضعف الأثر الذى تركه أولئك الحكام فى مصر ، هو أنهم أرادوا توجيه سياسة مصر وحياتها وجهة آسيوية ، وآسيا تعتبر بعدا واحدا فقط من أبعاد تاريخ مصر ، والبعدان الآخران هما أفريقيا والبحر المتوسط ، فكأننا عشنا هذه القرون كلها على بعد واحد من أبعاد تاريخنا الحقيقية ، فكان حالنا كحال رجل يقتصر فى غذائه على طعام واحد لا يتغير ، فيصيبه الضعف والهزال نتيجة لذلك ، وهذا بالضبط ما كنا فيه : ضعف وهزال يتزايدان مع السنين ، وما انتعشت مصر من جديد الا عندما عادت الى نشاطها الافريقى ، وانفتح أمامها باب البحر المتوسط من جديد من أوائل القرن التاسع عشر · هنا ولدت مصر من جديد وبعثت بعثا حقيقيا ·

وقد يدهش القارىء اذا علم أن بلاد النوبة ظلت مسيحية حتى القرن الرابع عشر الميلادى مع أن الاسلام فى مصر منذ القرن السابع ، ومع ذلك لم يعن واحد من حكام مصر هؤلاء بالالتفات نحو هذه الناحية ، وظلوا قانعين بشىء يسمى « البقط » وهو هدية من العبيد تقابلها هدية من بقول مصر ، وكان الله يحب المحسنين ، كما يقولون · واذا كان الاسلام قد انتشر فى النوبة بعد ذلك ، فقد كانت لذلك عوامل أخرى غير عناية الحكام ··

ويستوقف النظر أيضا أن جناح الاسلام الغربى انهار حجرا حجرا ونحن لا ندرى ! سقط الأندلس وضاعت جزائر البحر المتوسط واحتل الاسبان بعض شواطىء المغربين الاقصى والأوسط ـ وهما ما يعرف اليوم بالمملكة المغربية والجزائر ـ بل غزا النورمان من صقلية بلاد تونس أكثر من مرة • واحتل الاسبان طرابلس الغرب ثم اقطعوها لفرسان مالطة ، ونحن لا ندرى ••

وجدير بالذكر أن صريخ أهل الأندلس وصل الى بعض سلاطين المماليك فما تحركوا لعمل ولا قاموا بمجهود ، لأن عيونهم كانت مثبتة على الشرق وحده دون أن يدخل البحر المتوسط فى حساب سياستهم • والاسكندرية عروس موانى البحر المتوسط انحدرت فى أيامهم الى قرية صغيرة ، بل كانوا يستعملونها منفى لمن يغضبون عليه ! وعندما نزل الفرنسيون الاسكندرية سنة ١٧٩٨ لم يكن عدد سكانها ليزيد عن ستة آلاف •

وليس معنى ذلك أنى أقول أن مصر كان ينبغى أن تستنقذ الأندلس وتحمى جزائر البليار وصقلية وشواطىء المغرب ، فهذا لم تكن تستطيعه قواها ، ولكن مصر لو كانت يقظة منتهية لما يجرى هناك لاستطاعت أن تنبه عالم الاسلام الى الخطر الماثل ، وتدفعه الى حشد قواه لتلافيه ، ولو أنها فعلت ذلك لنجت الجبهة الغربية الاسلامية من شر كثير •

ولست ألقى هذا الكلام على سبيل الفرض والاحتمال ، بل أقوله وبين يدى البرهان ، وهو برهان واضح نستخرجه من حادث معروف هو الحروب الصليبية •

فقد انصرف حكام مصر من أول العصر العباسى عن البحر المتوسط انصرافا يكاد يكون تاما ، وتركز انتباههم كله نحو آسيا ، فلم يفطنوا الى شىء من يقظة أوربا فى القرن العاشر الميلادى وبدء انهيار الأندلس خلال العصر الفاطمى فما اهتم له أحد ، ثم سقطت صقلية فى يد النورمان ابتداء من سنة ٤٢١ هـ/١٠٣٠ م فلم يكترث الفاطميون لذلك ، مع أن المفروض أنها كانت من توابعهم ، وتحولت معركة الأندلس الى حرب صليبية دون أن يتنبه لذلك أحد من أهل المشرق • فلما آنس الغربيون غفلة من حكام مصر وبقية أهل بلاد الاسلام عما يجرى وراء البحار ، نبتت فى أذهانهم فكرة غزو فلسطين وانتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين • وفجأة ـ والعالم الاسلامى مستغرق فى سبات محزن ـ نزلت الحملة الصليبية الأولى بلاد الشام سنة ١٠٩٧ م فذعر الحكام والناس فى الشام ذعرا يدل على أنهم كانوا فى غيبوبة أو سبات •

أى أنه فى أثناء هذا السبات الذى استولى على مصر نزل الصليبيون الشام فلم يجدوا من يردهم ، وما هى الا سنوات حتى تقاسموا معظم أراضيه وحولوه الى امارات صليبية ٠

ثم استيقظ المسلمون وأخذوا يجمعون قواهم لدرء الخطر الداهم ، وقد بدأت اليقظة فى الموصل على يد حكامها - وكانوا يعرفون بالأتابكة - وأخذ هؤلاء يغالبون الصليبيين ، وأسعفهم الحظ برجال من خيرة من أطلع العالم الاســـلامى ، من أمثال عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود ، وفى أيام هذا الآخير بلغت اليقظة الشرقية ذروتها ، وتمكن من استخلاص الشام وضمه لامارته فى حلب ، وكان أبوه قبل ذلك قد استولى على امارة الرها ، ولكن الجهود كانت مفـــرقة مبعثرة برغم جهود نور الدين ، وبفضله وعلى يد قائده أسد الدين شيركوه انضمت مصر الى جبهة الكفاح ضد الصليبيين ، ولم يكد هذا يتم حتى انفتح باب النصر وقام صلاح الدين بعد نور الدين بقيادة الكفاح ٠

وعلى يده انتقل مركز القيادة الاســـلامية الى مصــــر ، وتولاها هذا المجاهد الخـــالد ٠ ولقد تعودنا أن نرد بطولة صــــلاح الدين الى شخصه فحسب ، دون أن ندخل العامل المصرى الذى جعله ذلك البطل العظيم ٠ ولو أن صلاح الدين اعتمد على ملكاته وحدها لما وفق الى أكثر مما وفق اليه عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ، لأن هذا الأخـــير خاصة لم يكن أقل عبقرية من صلاح الدين ، ولكن مصر هى التى مكنت لصلاح الدين من القيام بذلك العمل العظيم ، وبدونها ما كان ليتم قطعا ٠

ذلك أن بلدنا هذا قاعدة عظمى ومركز توازن من الطراز الأول ، من يستقر فيه يكسب شيئا عظيما بمجرد هذا الاستقرار ، مثله فى ذلك مثل الربوة العالية فى الميدان ، من ملكها فقد ساد الميدان كله ، ومن لم يملكها ظل الأمر خارجا عن يده ولو ملك كل شبر من الأرض عداها ٠

ومن هذه القاعدة الكبرى استطاع صلاح الدين أن يمسك بزمام الموقف ويوجه قوى الشرق كلها ، فلم يلبث أن اقتلع جذور الصليبيين ٠

ومعنى هذا أن الشرق الاسلامى نجا من الصليبيين بفضل التفات مصر نحوه ، وهو لم ينج منهم وحدهم ، بل نجا أيضا من المغول لهذا السبب عينه ٠

بل حدث بعدذ لك ما يؤيد ما نقول بأجلى بيان :

حدث أن أهملت مصر تلك الجبهة الشرقية أواخر عصـــر المماليك اذ كانت هممهم قد فترت ، فاكتفوا بعد أيام السلطان قايتباى ، أى بعد سنة ١٤٩٦ ، بأقل الجهد فى بلاد الشام ، وفسدت طبائع المماليك وداخلت

الخيانة قلوبهم فضعفت وتراخى الاتحاد بين مصر والشام . وفى ذلك الحين التفت الأتراك العثمانيون الى الشرق وأقبلوا يغزون بلاده بلدا بعد بلد ، ولميقدر المماليك الخطر العثمانى قدره الصحيح ، فكانت النتيجة أن وقع هذا الشرق العربى كله فى يد العثمانيين ، وسقطت مصر نتيجة لهذا أيضا .

ولو أن التفات مصر لأمور الشرق ظل كما كان أيام المماليك الأول ، فأغلب الظن أن سلاطين بيت عثمان ما كانوا ليطمعوا فى هذا الشـــرق العربى ، وما كانوا ليتجهوا اليه .. فقد كان اتجاههم ـ منذ ظهروا على مسرح التاريخ ـ غربيا يمضى بهم نحو التوسع فى الغرب ، وما لفتهم الى الشرق الا ما لاحظوا من ضعفه ، وهو لم يضعف الا عندما انصرفت عنه مصر ، أو حكامها بتعبير أدق .

ولقد كانت مصر قمينة أن تؤدى للجبهة الغربية الاسلامية مثل هذه الخدمة لو أن عيون حكامها فى العصور الاسلامية كانت ملتفتة اليها ، لو أن عنايتها بشئون البحر المتوسط اتصلت على ما كان ينبغى أن تتصل عليه ، لأن مصر هى التى كسبت للاسلام سيادة الحوض الشرقى للبحر المتوســـط ، ولو أنها مدت يدها لأهل المغرب والأندلس فى أثناء محنتهم الطويلة لما حدث هذا الذى كان ، أو لنجونا من بعضه على أقل تقدير .

وقد لا يعلم بعض الناس شـــيئا عن أثر مصـــر فى بناء البحرية الاسلامية ، قد لا يعلمون أن مصر كانت مصنع السفن الحربية لأساطيل الخلافة الأموية : كان الجزء الأكبر منها يصنع فى « دور صناعة » أو « ترســـانات » عند جزيرة الروضـــة ، ثم تصعد فى النيل الى البحر ، وبفضل هذه السفن المصرية ومن كان يعمرها من الملاحين المصريين كسب المسلمون موقعة ذات الصوارى سنة ٣٤ هـ وهى التى ثبتت أقدام المسلمين فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، وهى من المواقع الحاسمة فى تاريخه ، لأنها انتزعت سيادة البحر من أيدى البيزنطيين وأسلمتها الى المسلمين ، فبدأت فى تاريخ هذا البحر الفترة الاسلامية المعروفة التى استمرت حتى نهاية القرن العاشر الميلادى ، وقد كشفت أوراق البردى عن أن بحارة الأسطول الذى كسب هذه المعركة الفاصلة كانوا من المصريين ، وقد أتينا ببراهين ذلك فى بحثنا « المسلمون فى حوض البحر المتوسط الى الحروب الصليبية » .

والملاحون المصريون هم الذين أنشـــئوا ميناء تونس ، فقد روى المؤرخون أن عامل افريقية « وهى تونس » حسان بن النعمان ، لما هدم ميناء قرطاجنة البيزنطى وأراد أن ينشىء للمسلمين ميناء جديدا ، كتب

الى عبد الملك بن مروان بذلك ، فبعث هذا الى عامل مصر يطلب اليه نفرا من المصـــريين المدربين على مثل هذا العمل ، فأرســـل اليه ألفا منهم بعائلاتهم ، وهم الذين أنشئوا ميناء تونس قاعدة الاسلام فى الجزء الأوسط من حوض البحر المتوسط ·

* * *

ومن غريب الأمر أن ذلك العبقرى صلاح الدين أوحى اليه المقام فى مصر فكرة الالتفات نحو الغرب ، وربما كان هذا الرجل أعظم من تنبه الى أهمية موقع مصر فى العصور الوسطى ، فبعث من يستطلع له الأحوال فى برقة ، وبعث من يمهد له أمر النوبة ، بل مد بصره الى اليمن ·· أى أنه تصور موقع مصر جيدا ، ونظر فى كل وجهة ، ويقال ان دافعه الى ذلك كان الخوف من نور الدين محمود ، أى أنه كان يبحث عن قطر يلجأ اليه مع آله اذا وقعت الخصومة بينهما ·

ولكنها لفتة عجيبة منه على أى حال ، يزيد فى قدرها فى نظرنا أن بصـــره ترامى الى قاصـــية هذا البحر فى الغـــرب ، وبعث الى خليفة الموحدين يعرض عليه أن يتعاونا فى القضـــاء على الصليبيين وانتزاع سيادة البحر من أيديهم · ولم يوفق المشروع ، ولكن ذلك لا يقلل من قيمة هذا التفكير الفريد ، وهو يدل على أن رجلا واحدا فقط من بين العشرات الذين حكموا مصر خلال العصور الوسطى ، قد تفطن الى معنى موقعها ، وفكر فى الافادة منه ، وليس بغريب أن يكون هذا الرجل هو صلاح الدين ·

ويحكى ابن شداد ـ كاتب صلاح الدين وصاحب ترجمته المعروفة بالمحاسن اليوسفية ـ أنه كان يسير مع صلاح الدين قرب شاطىء البحر فى يوم عاصف ، وان شداد خائف من الأمواج الصاخبة المتهيلة ، فقال له صلاح الدين مامعناه : يجرى فى خاطرى أن أركب هذا البحر وأذهب الى أولئك النصارى وأغزوهم فى دارهم !

وهذه العبارة وحدها قمينة بأن تضع صلاح الدين فى الصف الأول من عظماء التاريخ ـ وقد قالها صلاح الدين بعد حطين ، أى بعد أن أصبح سلطان مصر وتحول التحول العميق الذى عرفه كل من اتصلوا بمصر من العظماء ، وقد أشرنا فيما مضى الى أن الاسكندر دخل مصر قائدا

عاديا وخرج منها يحمل تاج مصر القديمة وقد ثبت أقدامه على سلم المجد ، وحدث هذا ليوليوس قيصر ونابليون وغيرهم كثيرين ٠

ولم يجن على مصر شيء قدر انصرافها عن جبهة البحر المتوسط فقد قلنا ان لمصر فراغا فى هذا البحر عليها أن تملأه ، ولها رسالة فى حوضه عليها أن تقوم بها ، وعليها مسئولية عن حضارته لابد أن تنهض بها ، فاذا هى قصرت فى ذلك أصابها ما يصيب الرجل الذى يتخلى عن مسئوليته وينسى واجبه ويهمل رسالته ، فيحل غير محله ويخمله الناس ويذهب أمره ٠

لقد استمرت مصر تحمل مسئوليتها عن حضارة البحر المتوسط حتى الفتح العربى وفترة طويلة خلاله ، ولكن ذلك الاهتمام بالبحر لم يلبث أن تضاءل ، لأن العرب حرصوا على أن يقطعوا صلات مصر بالبحر وما يليه ، قطعا لكل أمل للروم فى العودة الى مصر ، وتأمينا لها من أخطار الغزو من وراء البحر ٠

وشيئا فشيئا أقفل هذا الباب ، وانقطعت علاقات مصر بالبحر ، وفقدت الاسكندرية أهميتها ، وتحولت الى قرية على البحر ٠ أجل ! هذا البلد الذى كان درة البحر المتوسط ، والذى وجده العرب لدى دخولهم عجيبة من عجائب الزمان : بيوته من المرمر وقصوره من الفضة والذهب ـ كما يقولون ـ هذا البلد الذى هو رئة مصر التى تتنفس بها ، لم يعد له فى تاريخ البحر المتوسط مكانة تذكر ٠

وكان هذا الفصل بين مصر وعالم البحر المتوسط نذيرا بالنكبات ، لأن هذا البحر ظل مهد الحضارة الانسانية حتى نهوض الولايات المتحدة وانتقال مراكز القوة ـ والحضارة معها ـ الى المحيط الأطلسى الشمالى ، وقد ظلت الحضارة تنتقل على ضفافه من بلد لبلد ، وكلما وهن أمر شعب من شعوبه وعجز عن السير بالشعلة الخالدة تناولها منه شعب آخر وسار بها ، وعندما أهملنا نحن البحر المتوسط ، واتجهنا ببصرنا الى الشرق وحده ، نهض بعبئه غيرنا ، وكان لهذا أسوأ الأثر على مصيرنا ٠

ذلك أن شعوب أوربا التى ولدت خلال العصر الوسيط الأول فيما بين القرنين الثالث والسابع الميلاديين وجدت نفسها عندما ثبتت قوائمها

عاطلة عما ينبغى للدول من نظم وآلة ، فأمدها رجـال الدين ـ وكانوا أهل الفكر والفهم فى أوربا خلال العصـر الوسـيط ـ بما حضـرهم من بقايا النظم الرومانية وقوانينها · ولم يكف هذا القليـل من تراث الرومان لكل مطالب هذه الدول ، التى نشأت فى ظروف جديدة تختلف عن ظروف الرومان ، وكان لابد لها من توسيع أفق هذه البقايا من حضارة البحر المتوسط بأشياء مما جلبته معها من مهاجرها الأولى ، وامتزج هذا بذاك ، ونشأ من هذا المزيج ذلك النظام الفريد الذى يعرف بنظام الاقطاع ، الذى ساد أوربا الغربية والوسطى كلها حتى نهاية القرن الخامس عشر على الأقل ·

وليس هنا موضـع الكلام عن نظام الاقطاع ، ولكن الذى يهمنا هنا أن نقرر أنه نظام زراعى مقفل تحولت معه أوربا الى شعوب من الزراع ، يحكمها نفر من محترفى الحرب يعرفون بالفرسـان ، ونفر من محترفى الدين هم رجال الكنيسة : لأولئك السيف ولهؤلاء القلم كما نقول ، وبقية الناس أتباع وخول ، متدرجين فى هرم اجتماعى ، قاعدته الزراع ورقيق الأرض والعبيد ، وقمته أصحاب الاقطاعات الكبيرة ، ومنهم الملك ، وهو أكبرهم ··

وفى داخل المجتمع الزراعى الحزين ، بدأت تظهـر جمـاعات من الصناع ، ما بين نجار وحداد ونساج وصـانع جلود وما أشبه ، مما لا تستغنى عنه جماعات البشر ، ونظرا لوفرة المعادن والأخشاب والجلود فى أوربا ، ونظرا لما تتطلبه الظروف الجغرافية من تجويد الصنعة ، فقد خطا صناع ذلك العالم الاقطاعى خطوات فسيحة فى سبيل تجويد صناعاتهم ·· ذلك أن الذين يعيشون فى جو لين كجونا لا يعرفون قيمة تجويد الصنعة، ولهذا لا يعرفون قيمة الصانع الماهر ، فأنت اذا طلبت من يصنع لك نافذة لم تتحر أن ينجزها لك محكمة أشد الاحكام ، لأن تيار الهواء الرفيـع الداخل لن يؤذى أذى بالغا ، أما لو كنت فى هذه البلاد الباردة ، فان هذا التيار الذى يهس فى الليل هسيسا انما يحمل اليك الزمهرير ، وقد يكون خطرا على الحياة · ومثل هذا يقال عن نجارنا ونجـارهم واسـكافنا واسكافهم ، ومن ثم فلا حياة للصانع غير المجود فى مثل ظروفهم ، ومن ثم أيضا وصل صناعهم الى درجة عالية من الحذق فى صياغة المعادن ، وسبقونا فى هذا الميدان ، ونحن لا ندرى ، فابتكروا من السيوف والحراب ودروع الحديد ما فاق فى الصلابة والاحكام أحسنما عرفنا من السيوف المشرفية أو الهندية أو الردينية وما اليها مما يتغنى بذكره الشعراء ، وهذه الأسلحة المتقنة الجديدة كانت حاسمة الأثر فى تقرير مصير العالم فيما بعد ··

وعندما التقى المسلمون مع النصارى فى الأدوار النهائية التى قررت مصير الأندلس ، أدرك المسلمون هناك خطر هذه الأسلحة الجديدة التى توصل اليها خصومهم ، وفقدوا المعارك واحدة بعد أخرى ، وخرجت البلاد من أيديهم بلدا بعد بلد • ولقد استهلك كفاح الاســـلام للنصرانية أهل الأندلس الاسلامى واستنفد قواهم ، واضعف ـ الى جانب ذلك ـ جيرانهم من أهل المغرب ممن خفوا لنصرتهم • واذا كان المسلمون قد فقدوا صقلية أولا ، والأندلس ثانيا ، فان العامل الأقوى فى ذلك يرجع لسلاح النصارى ، فان جموع المسلمين فى المعارك لم تكن أقل من جموع خصومهم ، وظلوا كذلك على ما عهدناهم عليه من شجاعة وبسالة ، ولكن الآخرين كانوا يلقونهم بدروع لا تنفذ فيها السيوف ، وحراب مصمية وسيوف مرهفة وأدوات حرب أخرى كانت تحصد المسلمين حصدا • ولم يقبس المسلمون فى الغرب الاسلامى هذا السلاح الا بعد فوات الأوان : بعد أن انكمش الاسلام الأندلسى ، واقتصر أمره على قطعة من الأرض فى الجنوب هى مملكة غرناطة •

هذا كله حدث ونحن لا ندرى ، ولو عرفنا بأمره لتداركنا أمرنا ، ولكننا كنا قد أغلقنا أبواب البحر فلم نعد نعلم مما يجرى وراءه شيئا •

وقد فوجئنا بذلك أول نزول الصليبيين ديارنا ، وفى أثناء الصراع بيننا وبينهم جددنا سلاحنا ، واقتربنا منهم ، وتعادلنا معهم ، ثم غلبناهم وأخرجناهم من ديارنا بعد كفاح مرير •

أخرجناهم من ديارنا ولم ننتبه الى ضرورة الالتفات الى ما يجرى فى بلادهم من وراء البحر ، أخرجناهم وأغلقنا بابنا مرة أخرى ، ووقعنا فى نفس الخطأ • ولو أننا لم نغلق الباب هذه المرة وتركناه مفتوحا لنعلم ما يدبرون وما يصـــنعون لما فاجئونا هذه المفاجاة الهائلة خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فكسروا الدولة العثمانين وأوقفوا تقدمها ، ثم أخذوا يستولون على ما افتتحه سلاطينها فى أوربا شيئا فشيئا •

وكنا نحن فى مصر نحسب أن الأوربيين ـ بعد أن عادوا الى بلادهم بعد الحروب الصليبية ـ قد ظلوا على حالهم كما ظللنا نحن على حالنا ، فعـدنا الى ما درجنا عليه من تفاهات الخصـــومات ومظالم الحكام ، حاسبين أن الدنيا كلها هكذا ، وأننا مادمنا نتقن المبارزة بالسيوف وركوب الخيل وشئون الفروسية فلن يغلبنا أحد •

وعلى هذا الحال من الاغترار بانفسنا وبالدنيا فاجأنا الفرنسيون عندما نزلوا بلادنا فى صيف ١٧٩٨ • ولقد بلغ من غفلة القائمين على أمورنا اذ ذاك ـ وكان يمثلهم المملوكان مراد وابراهيم ـ أن سخر أولهما من الفرنسيين وقال انهم « كحب الفستق للكسر والأكل » ، ثم لم تلبث معركة شبراخيت أن أيقظته من سباته ، وأفهمته أنه هو ورجاله هم « حب

الفستق » • وفى معركة الأهرام ـ أو امبابة ـ تقرر المصير فى ضحوة نهار : تطاير فرسان المماليك هباء ، وانتهت الى غبار تجربة سياسية طولها عشرة قرون ، ودخلنا فى عصر جديد ، وكان علينا نحن المصريين أن نبدأ فى بناء وطننا على أســـاس ما علمنا أجدادنا وما تعلمناه فى عصـــر الخلفاء الراشدين ، ثم تنبهنا الى أهمية علم الغرب فبدأنا نتعلم على يديه !

هذا كله أتانا من اغلاق باب البحر المتوسط واغفالنا ملاحظة ما يجرى فى حوضه ، ولو أن بابه ظل مفتوحا ، ولو أن ناســـا منا كانوا يجوسون خلال دياره لما حدث ذلك ، أو لما حدث على هذه الصورة المزرية على الأقل •• ورب قائل : ان المماليك كانوا على صلات بالبنادقة ، وأنهم أخذوا عنهم استعمال البارود وبعض السلاح • ولكن ذلك كان ضئيلا جدا من ناحية ، ثم ان المماليك لم يتصلوا بالبنادقة للاطلاع على ما يجرى فى بلادهم وما صاقبها من ناحية أخرى ، بل للاشتراك معهم فى تجارة آسيا ، وكان اشتراكنا فى هذه التجارة على صورة تبعث على الأسى : لم نشترك فيها كتجار بل كمساهمين فى غنيمة ، لم يكن لنا تجار أو تجارة ، بل كان لنا سلطان يبتز أموال الناس ، وأعوان سلطان هم شر على الناس من البلاء •• فلم يبلغ ربحا من هذه التجارة الا شيئا قليلا ، ثم انه كان ـ بعد ذلك كله ـ ربحا غير كريم ، أو قل : غير شريف ، أو قل : ان المماليك كانوا يحصلونه بطرق غير شريفة •

ومع ذلك ليت هذا القليل دام ! مازال سلاطين المماليك يعســـفون التجار حتى زهدوهم فى المرور ببلادنا جملة ، ودفعوهم الى البحث عن طريق آخر للوصول الى الشرق غير طريق البحر المتوسط ، فكان ما كان من كشف طريق رأس الرجاء الصالح ووصول أوربا الى الهند مباشرة • أى أن سياسة أولئك المماليك الآسيويين انتهت بالغاء وجود البحر المتوسط جملة من وجودنا ! لم يكتفوا بالغاء وجود مصر كدولة بحرية ، بل حكموا بالخـراب على دول أخـــرى كانت تعيش فى هذا البحـــر ومنه ، وهى الجمهوريات الايطالية •

واذا جاز لنا أن نستنبط من ذلك شيئا يتصل ببلدنا ، قلنا انها ليست مفتاح عمران الشرق الأوسط فقط ، بل مقياس عمران البحر المتوسط كله • فاذا هى استسلمت للفتور او الفوضى أو تخلت عن مكانها فى حوض هذا البحر ، تأثرت دوله جميعا بذلك •

فماذا حدث بعد أن اســـتغنى الناس عن البحر المتوســـط كطريق للملاحة وأصبح بركة فسيحة راكدة المياه ؟

حدث أن سيطرت أوربا على الهند وجنوبى آسيا كله دون أن ندرى . نعم ان المماليك حاولوا انقاذ بقية ضـــئيلة من الأرض ، فتعاونوا مع الجنويين فى حملة انتهت بكارثة عند جزيرة « ديو » · محاولة ضـــعيفة مشئومة من أولها ، أشبه بهرولة مسافر فاته القطار ·

وماذا حدث بعد أن سيطرت أوربا على الهند وجنوبى آسيا ؟

حدث أن أولئك الذين ملكوا زمام آسيا ، فكروا فى السيطرة على الطريق الطبيعى اليها ، طريق البحر المتوسط · وهنا جاء دورنا نحن ، وكان ما كان من وقوع بلادنا بين أيدى الفرنسيين أولا فالانجليز ثانيا ·

كل هذه المصائب المتتابعة نشأت عن اقفال باب البحر المتوسط · نشأت عن توجيه قوانا نحو ناحية واحدة واهمالنا تلك النواحى التى يجب علينا الا تغمض عيننا عنها أبدا ·· أهملنا ناحية البحر ، وتخلينا عن مكاننا فى البحر المتوسط ، فاختل توازننا ، فكان هذا الانكسار المحزن فى تاريخنا ·

* * *

وخلاصة هذا الكلام كله أن البحر المتوسط هو « البعد الثالث » من أبعاد كياننا العام : الأول أفريقية ، والثانى الشـرق العربى الاســلامى ونحن لا نستطيع أن نتخلى عن مكاننا فى ذلك البحر الا اذا أردنا ان نتخلى عن كياننا كله ·

ومادام الأمر كذلك ، فلنا فى هذا البحر رسالة هى التى يكتمل بها وجودنا ، ويستقيم كياننا وميزان حياتنا ··

وســـنفصل أمر ذلك فى الفصـــل الأخير من هذا الكتاب ، وبالله التوفيق ·

مصـــر والشـــرق

ليس من قبيل المصـــادفات البحتة أن هاجر أم اســـماعيل عليه الســـلام كانت ــ فيما يقال ــ مصـــرية ، فان اسماعيل هو جد العدنانية ، وجد قريش ، فكأن لنا نســـبا موصولا بهذه الذؤابة العربية التى جمعت أمجاد العرب كلها فى صعيد واحد ٠

وليس من قبيل المصـــادفات أن مارية القبطية زوج النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مصرية ، وهى احدى اثنتين من أمهات المؤمنين أنجبتا أطفالا : خديجة ومارية ٠ ولم يكتب أحد تاريخ مارية الى الآن ، ولم يكن من الممكن أن تصل الى مكان يضارع مكان عائشة رضى الله عنها ، ولكن الرسول ــ صلوات الله عليه ــ اختصها بمكان لطيف ، وابتنى لها دويرة صغيرة فى طرف من أطراف المدينة ٠ وقد ظلت هذه الدويرة قائمة حتى القرن الرابع الهجرى ، وزارها وأعجب بها الفيلسوف الأندلسى محمد بن مسرة ، وعندما عاد الى الأندلس ابتنى لنفسه فى جبل قرطبة دارا على مثالها ٠

وعجيب اصرار الفقهاء على وضع مارية خارج نطاق أمهات المؤمنين مع حب الرسول ــ صلى الله عليه وسلام ــ لها واعزازه اياها ، وقد أسلمت مارية وأختها سيرين وحسن اسلامهما ، وأنجبت الولد للرســـول ٠٠ ولا ندرى كيف يضعون صفية بنت حيى بن أخطب بين أمهات المؤمنين ولا يضعون مارية ، وما كانت مارية بأقل منها بل كانت من بنات الأسر فى مصر ، وقد شهد لها بذلك نفر من المؤرخين ، وقد أوصى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالقبط لصـــهره اليهم ، ولم يوص باليهود رغم صهره اليهم ٠ ومارية ــ أم ابراهيم ــ لا يمكن أن تكون أقل من صفية بنت حيى ، فمن عجب أن هذه تحســـب فى عداد أمهات المؤمنين ومارية الحفنية الصعيدية لا توضع بينهن ٠

وهاتان الحقيقتان تقومان كالرمز على نوع صـــلاتنا بالعـــرب ، فهى صلة نسب قبل أن تكون صلة عقيدة ولغة وحضارة ، ونحن بحمد

الله أصهار ابراهيم خليل الله ، وأصهار محمد رسول الله ، ومريم العذراء وابنها عيسى ـ عليه السلام ـ وجدا الأمن فى أرضنا ، فلا عجب أن الله سبحانه لم يذكر فى القرآن الكريم بلدا باسمه غير مصر ٠

واذا رجعنا الى الوراء وجدنا هذا النوع من الصلات قائما بيننا وبين جيراننا فى الشرق ، ولست أقصد المصاهرات العادية ، بل أقصد العلاقات ذات الصدى الملحوظ فى مجالات السياسة والثقافة ومصاير الشعوب ، ومثال ذلك زواج أمنحتب الثالث من أميرة سورية ، يعزى اليها بعض الفضل فيما نادى به ابنها أخناتون من التوحيد والرمز الى الخالق سبحانه بقرص الشمس « آتون » وهو أمر فريد فى بابه يذكره الذين يؤرخون للأديان يعتبرونه ثورة فكرية كبرى لا تضارعها ثورة فكرية أخرى فى تاريخ العالم القديم ٠

ومن المؤكد أن بعض أهل الدلتا يرجعون الى أصول آسيوية ، دخلوا مصر عبر شبه جزيرة سيناء ، وتؤكد الحفائر والكشوف الأثرية ذلك ، ويؤيده ابن خلدون ، فيذكر أن صحراء مصر الشرقية وشبه جزيرة سيناء كانتا عامرتين بالضجاغم ، وهم من عرب الشمال ٠ وذلك هو الطبيعى ، خاصة اذا ذكرنا أن تلك الصحراء لم تكن فى القديم قاحلة بالصورة التى نراها عليها اليوم ، وانما كانت مخضرة فى كثير من أجزائها ، وكانت كثيرة الواحات والأودية ، وليس الى الشك سبيل فى أنها كانت تصلح لمقام جماعات صغيرة من الناس ، بدليل أن طوائف كثيرة من رهبان مصر خلال القرون الثانى والثالث والرابع الميلادية قضت حياتها فى تلك الصحراء ، وقصة الأنبا بولا أول « السياح » أشهر من أن نذكرها هنا ، فقد قضى عمره كله فى هذه الصحراء جولا ، وكان يقيم فى موضع غيضة صغيرة فيها نخل وعين ماء ، وفى ذلك المكان لقيه القديس انطونيوس المصرى منشىء الرهبانية العالمية ٠

ولقد عرفت مصر قبل الاسلام فرعى العرب الكبيرين ، عرفت عرب الجنوب القحطانية ، اذ انهم كانوا يعبرون البحر الأحمر ويستقرون فى الوادى يختلطون بالسكان لأنهم ـ كأهل مصر ـ أهل استقرار وزرع وضرع ، وعرفت عرب الشمال العدنانية ، اذ كانوا يجوبون الصحارى الشرقية المصرية على ما ذكرناه ، وأولئك لم يختلطوا بالسكان كثيرا ، لأنهم أهل بداوة ورحلة وخيام ، وأولئك هم بدو الصحراء الشرقية الذين حاربهم الفراعنة طوال تاريخ مصر القديم ٠

وبعد الاسلام وفدت الى مصر جماعات جديدة من العرب استقرت فى نواح شتى منه صر السفلى ومصر الوسطى ، وكان لها فى التاريخ المصرى أثر معروف ٠

وعندما تفككت وحدة الدولة الاسلامية خلال النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى ، بدأت مصر تتحول الى قاعدة اسلامية كبرى ، فقد ظهرت ميزاتها الخاصة وسط ذلك العالم الاسلامى الذى كان يتسع شيئا فشيئا ، وعلى الرغم من أن الدولة الأموية كانت فى الشام فان مصر كانت قاعدتها ومركز ثقلها ، فمعاوية بن أبى سفيان لم يهتم بشىء أثناء صراعه مع على قدر اهتمامه بانتزاع مصر · وعندما انضمت اليه مصر ثبت مركزه وقوى أمره وطمع فى الخلافة · وحدث مثل ذلك أيام عبد الملك بن مروان ، فقد تقرر مصير المعركة بينه وبين عبد الله بن الزبير عندما استخلص مصر ، وتولاها له أكبر رجال دولته وهو أخوه وولى عهده عبد العزيز بن مروان ·

وطوال العصر الأموى كانت مصر قلب هذه الدولة ومعتمدها : كانت بلدا مستقرا غنيا يمد الدولة بأسباب الغنى والقوة ، فى حين أن الشرق كان مصدر متاعب لها ، ومن مصر وبأموالها تمت فتوح المغرب ، وبمالها فتح الأندلس ·

وعندما قامت دولة بنى العباس نقلت مركز الخلافة الى العراق ، وكان ذلك خطأ جسيما ، لأنه أبعد الدولة عن البحر المتوسط وجعلها فى وسط آسيوى خالص ، لأن العراق فى ذلك العصر لم يكن وطن شعب واحد متجانس ، بل كان مجمع أجناس وملتقى تيارات ، فلم تستقر الدولة العباسية على قاعدة بشرية سليمة وظلت دائما مزعزعة البنيان نهبا للعواصف وتيارات هجرات الشعوب الآسيوية من أصناف الترك أولا ثم المغول بعد ذلك · فكان معظم جهد بنى العباس منصرفا الى الحفاظ على كيانهم فى بلادهم ، فشغلوا بذلك عن الحفاظ على ولايات الدولة ، ثم ان قيام الدولة العباسية فى مهد الدولة الساسانية أورثها تجارب ايران السياسية ، وهى تجارب تقوم على البطش والظلم وارهاق الناس ، وقد امتصت الدولة العباسية ذلك كله ، فكانت دولة اسلامية فى طيلسان كسروى ، وكان لهذا أسوأ الأثر على مصير بنى العباس أولا ثم الدولة الاسلامية كلها بعد ذلك ·

وقد ظهرت نذر تفرق وحدة الدولة خلال السنوات العشر الأول للخلافة العباسية ، فانفصل الأندلس ، وينظر المؤرخون الى هذا الانفصال على أنه مجرد استقلال « ولاية » من الولايات ، وهم ينسون أن هذه « الولاية » كانت درع الجناح الغربى لدولة الاسلام ، وأن سلامة الدولة الاسلامية كلها كانت متوقفة على بقاء هذا الدرع سليما ثابتا ، وأن انفصال الأندلس كان لابد أن يتبعه انفصال أجزاء أخرى ، وهذا هو الذى حدث بالفعل : انفصل المغرب الأقصى وقامت فيه دولة الأدارسة ، ثم انفصلت تونس — وكانت تعرف اذ ذاك بافريقية — على أيام هارون الرشيد،

وغلبت على ما عدا ذلك من بلاد المغرب الاسلامى كله جماعات من الخارجية أقامت هنا وهناك دولا مختلفة ما بين صغيرة وكبيرة ٠

وكل ذلك نتيجة لمغادرة الدولة الاسلامية بلاد الشام ، أى ضفاف البحر المتوسط ، ولو أن الدولة ظلت هناك لتغير الأمر طبعا ، ولما وقع فى الغرب الاسلامى ما وقع ٠

حقيقة ان العناية الالهية تداركت الأندلس بعبد الرحمن الداخل الذى جدد مجد الدولة الأموية المشرقية فى المغرب ، وصان ــ هو وخلفاؤه من بعده ــ الاسلام الأندلسى من الضياع قرونا كثيرة ، ولكن ذلك كان مجرد مصادفة سعيدة لم تكن لأحد فى حسبان ٠ ولكن الواقع الذى يؤيده البرهان ان انتقال مركز الدولة الاسلامية من الشام الى العراق كان ايذانا بدور جديد فى تاريخ الاسلام ، دور لن يعين الدولة على الاستمرار ٠

وكان لابد من مركز جديد تتجمع حوله البلاد الاسلامية ، مركز متوسط يضم شرق العالم الاسلامى الى غربه كما كانت الشام تفعل أيام الأمويين ، مركز فى قلب منطقة البحر المتوسط ، يلتقى فيه تراث اليونان والرومان بجهود أمم الاسلام ، لتنمو شجرة الحضارة الاسلامية فى تربة غنية ، مركز يكون كالقاعدة للعالم الاسلامى كله ٠

وكما تجمعت بقايا حضارة الاغريق فى مصر بعد غزوة الاسكندر ، فأصبحت قاعدة الحضارة العالمية اذ ذاك على أيام البطالمة ، تجمعت قوى العالم الاسلامى كلها فى مصر رويدا رويدا ٠ بدأ ذلك وئيدا على أيام الطولونيين والاخشيديين ، ولم يتوقف سيره على أيام الفاطميين ، ثم أخذ صورة واضحة أيام الأيوبيين ، وأصبح حقيقة ماثلة للعيان أيام المماليك ٠

حدث ذلك كله فى تطور طبيعى متصل : فكلما اشتدت الأخطار على المشرق نزح العلم والعلماء غربا فى التماس الأمان ، وكلما اضطربت الأمور فى العراق ، تراجعت مراكز القوة الى الغرب ، لتستقر فى مصر ، وهذا هو السر فيما بدت به الدولة الطولونية فى أول أيامها ، فان أحمد بن طولون لم ينشىء نظاما ، ولم يبتكر شيئا ، وكل عبقريته تتلخص فى أنه عرف كيف ينشر الأمان فى ربوع مصر، فلما ساد الأمان بدأ الناس ينتقلون الى مصر ، وتسربت معهم فى الوقت نفسه ذخائر العلم والعرفان ٠ وتوقف سير هذه العملية بعد انقضاء أيام الطولونيين ، ولكنه تجدد أيام محمد بن طغج الاخشيد ، واتصل على أيام الفاطميين ، حتى اذا وصلنا الى العصر المملوكى وجدنا مصر هى القطر الاسلامى الوحيد القائم على قدميه ، والملجأ الوحيد الذى يستطيع أن يلجأ اليه صاحب العلم أو صاحب كنوز الكتب ٠

ولما وصلت مصر الى هذا المركز عن ذلك الطريق الطبيعى المتصـــل الذى وصفناه ، كان لابد أن تعيد بناء ما تستطيع بناءه من بلاد الاســلام المجاورة لها : كانت بلاد الشام مهددة بالأخطار ، لأن نظام الحكم العباسى اتجه الى تجريدها من عناصر القوة ، اذ انها كانت عاصـــمة خصومهم الأمويين ومصدر قوتهم ، فاشتد بعض ولاة الشام على أهلها وظلموهم ، حتى اضطر الامام الأوزاعى للتصدى للدفاع عنهم وتنبيه الوالى الى أنه خالف حدود الله ٠

ثم ان الفقر حل بالبلاد بسبب حرمانها مما كان يأتيها بالخير أيام كانت قلب الدولة ، وعادت الخصومة بين المضريين ـ وهم عرب الشمال ـ واليمانيين ، واستشرى أمرها حتى أعيا ولاة بنى العباس ثم وقت فتنة السفيانى فى أيام الخليفة الأمين ، وهى فتنة أشـــبه بفورة قومية شـــامية ، اذ أن زعيمها نادى بالثورة على العباســـيين وتعصـــب له اليمانيون أملا فى أن تعود الدولة أموية شامية كما كانت ٠ وقد استمرت هذه الفتنة ثمانى سنوات أصاب الشام خلالها بلاء كثير ، ثم قام أموى آخر بعد ذلك بنحو العامين ، ودعا لبنى أمية ، فتعصب له نفر من أهل الشام ، وكانت فتنة أخرى ، ثم ثار فى البلاد نصر بن العقيلى ، وألقى بها فى أحضان هيج أموى جديد طال أمده واستشرى شره ٠

وفى غمار هذه الفتن العميـــاء تمكن العباســـيون من اجتـــذاب القيســـية ناحيتهم ، بينما ظل اليمنية على الولاء لذكريات بنى أمية ، وتفرق أمر الناس فى ذلك البلد ، ساءت أموره وعمه الفقر أيام العباسيين٠ ولا يمثل لنا رأى العباسيين فى الشام الا هذا الخبر الذى يرويه المؤرخون ـ والذى يظهر فيه أمر الوضاع ـ قالوا : « تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال له : يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام ، كما نظرت لعجم أهل خراسان ! فقال : اكثرتعلى يا أخا أهل الشام ٠ والله ما أنزلت قيسا من ظهور الخيل الا وأرى أنه لم يبق منمالى درهم واحد ! وأما اليمن ٠ فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ٠ وأما قضاعة ، فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه ، فتكون من أشياعه ٠ وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ! ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما ثائرا ٠ اغرب ، فعل الله بك ! » ٠٠

واستمر الأمر على ذلك فى هذا البلد الذى رزقه الله من الخير ما كان حريا أن يجعله أسعد بلاد المملكة الاسلامية فى ذلك الحين ، ولكن ظروف السياسة والعصـــبية جعلت منه مهدا للفوضى والاضطراب ، ومســـرح « فتن أهلية وعصـــبيات حمصـــية ولبنانية ودمشقية وفلسطينية ومصرية » على حد تعبير كرد على مؤرخ الشام ٠

وانما أتيت فى هذه المسألة ببعض التفاصيل لكى أبين أنه فى الوقت الذى بدأت تقوم فى مصر خلاله الدول المستقلة واحتاج أصحابها للأمان على حدودهم ، بدت لهم هذه الجبهة الشامية مصدر قلق ومخاوف ، وبدا لهم بوضوح أنهم اذا أرادوا تأمين دولهم ، فلا مفر لهم من تأمين الشام كذلك والقضاء على أسباب الفتن فيه ، لأن الفتن اذا استمرت زادت طمع الطامعين فيه ، فاذا استقر فى الشام طامع أصبح الخطر أمام مصر ماثلا ٠

كان هذا بدء السياسة الشامية لدول مصر الاسلامية كلها ، فلم يكد أحمد بن طولون يستقر فى مصر ويثبت دعائم ملكه فيها حتى نظر الى الشام ، وتجرد لضمه الى دولته حتى يأمن الأخطار ، وتمكن من تحقيق ذلك دون مقاومة من أهل الشام ، ولم يعارضه الا قائد تركي يسمى « سيما الطويل » ، تحصن فى انطاكية ، غير أن ابن طولون لم يلبث أن قضى عليه ٠

ومن ذلك الحين ارتبطت مصاير الشام بمصاير مصر على طول العصور الوسطى ، فاذا نحن استثنينا بعض فترات القلاقل ، استطعنا أن نقول ان مصر والشام كانا بلدا واحدا طوال هذه العصور كلها ، فالدولتان الطولونية والاخشيدية كانتا مصريتين شاميتين فى آن معا ، وكذلك الدولة الفاطمية معظم عصر سعودها ، أى الى نهاية أيام الحاكم بأمر الله ٠ ولقد انفرد الحمدانيون بحلب فترة من العصر الفاطمى ، ولكن أمرهم لم يطل ، وكذلك المرداسيون الذين خلفوهم ٠ وعندما ضعف أمر الفاطميين تقلص ظلهم من شمال الشام ، ولكنه بقى فى جنوبه وهو فلسطين ٠٠ وقد كان تقلص الحكم الفاطمى من الشام سببا من الأسباب التى يسرت على الصليبيين غزوه على ما ذكرنا ٠

وتجدد الاتحاد بين البلدين عند قيام الدولة الأيوبية ، واتصل على نسق واحد حتى الغزو العثمانى للبلدين خلال العقد الثانى من القرن السادس عشر الميلادى ٠

وخلال هذه الفترة الطويلة التى مررنا بها ، وهى نحو الخمسين وستمائة عام ، كانت الشام متحدة مع مصر ، أو كانتا دولة واحدة تحكم من مصر ، وكان حكام مصر لا يدخرون وسعا فى رعاية شئون الشام ، والانفاق عليه عن سعة من موارد مصر ، ومن بلادنا استخلصت الشام من أيدى الصليبيين ، وجيوش مصر هى التى ردت عن الشام بلاء المغول ، ومن مصر ــ باذن الله ــ تتخلص فلسطين من الاحتلال ٠

وهذه هى الدولة التى عرفت باسم سلطنة مصر والشام · وكانت تضم الحجاز فى معظم الأوقات ، لا طمعا فى بضعة من أرض الجزيرة ، بل تشرفا برعاية الحرمين الشريفين ·

ومن الطبيعى أن تكون حضارة البلدين خلال هذه العصور واحدة : على مصر وفد طلاب العلم من الشام ليدرسوا وليلتمسوا الرزق بعد ذلك ، وأنت اذ تقرأ تاريخ هذه العصور تشعر وكأن الحدود بين البلدين قد تلاشت ، وأن الأرض قد اتصلت دون عائق من حلب الى أسوان ·

وشبيه بذلك ما وقع فى الحجاز ، جار مصر الأيمن عبر البحر ، فان الأمويين اشتدوا على أهله على ماهو معروف ، فلم يكد عصرهم ينتهى حتى كان الفقر قد ضرب بجرانه على البلد المقدس ، ثم جاء العباسيون فلم يفعلوا له شيئا ذا بال ، بل لم يلبثوا هم الآخرون أن ظلموا أهله بسبب لجوء نفر من الثائرين العلويين اليه واتخاذه مهدا لثوراتهم ، وأظهر مثال لذلك ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب الملقب « بالنفس الزكية » ، فقد امتنع عن البيعة للسفاح وأخيه أبى جعفر ، فبعث اليه هذا الأخير جيشا تلو جيش ·

ولاشىء يصور نظرة العباسيين لأهل الحجاز فى ذلك الحين مثل قول رباح بن عثمان بن حيان ، ابن عم مسلم بن عقبة المرى ـ صاحب وقعة الحرة أيام يزيد بن معاوية ـ يوم دخل المدينة سنة ١٤١ هجرية : « يا أهل المدينة ، أنا الأفعى ابن الأفعى ! عثمان بن حيان وابن عممسلم بن عقبة المبيد خضراءكم · المفنى رجالكم ! والله لأدعنها بلقعا لا ينبح فيها كلب ! » ·

واستمرت الفتنة خمس سنوات قتل فيها محمد النفس الزكية ، وفسدت العلاقات بين العباسيين وأهل الحجاز ، فلم تصف بعد ذلك أبدا · فقد توالت الثورات والفتن والمظالم ، اذ ان بنى العباس اعتبروا الحجاز وكر خصومهم ، فلم يزالوا يوالون الحملات عليه حتى قضوا على كثير من معالم العمران فيه ·

ولم يكد أمر العباسيين يضعف ، حتى بدأ أهل الحجاز يفكرون فى الاستقلال عن الدولة جملة ، وقد سنحت لهم الفرصة أيام الخليفة المقتدر ، فقام رجل من بنى سليمان بن داود بن الحسين بن الحسنبن على بن أبى طالب ، واستقل بأمر الحجاز ، وأقام فيها دولة السليمانيين فى أواخر القرن الثالث الهجرى · ولم يقدر لهذه الدولة من العمر الا القليل ، لأن القرامطة هاجموا الحجاز من بلاد البحرين وقضوا على دولة السليمانيين سنة ٣١٧ هجرية ، وأقاموا الخطبة لعبيد الله المهدى خليفة الفاطميين فى المغرب !

ولم يدم ذلك طويلا ، لأن موجة القرامطة لم تلبث أن انحسرت ، وعاد الأمر للعباسيين فى عهد الراضى بن المقتدر سنة ٣٢٧ هجرية ·

كانت الدولة العباسية اذ ذاك فى حالة من الضعف بالغة ، ولم يكن لدى خلفائها أمل فى بعث دولتهم من جديد ، وأصبح كل همهم أن يحافظوا على سلطانهم فى العراق ، وأن يتخلصوا من سلطان الترك الذين غلبوا عليهم · وكان الحجاز بالنسبة لدولة ضعيفة كالدولة العباسية بلدا بعيدا ثقيل التكاليف ، ثم ان اصلاح أحواله يتطلب مالا ، ورعاية الحجاج تتطلب عناية ونفقة ·

فى ذلك الحين ، بدا لخلفاء بنى العباس أن الحل المعقول لمشكلة الحجاز هو أن يضموه الى مصر ، ويعهدوا فى ادارة أموره الى محمد بن طغج الاخشيدى الذى كان قد أقام دولته الاخشيدية فى مصر واستبد بها ، وأرغم العباسيين على محالفته والاعتماد عليه ، فأسندوا ولاية مكة والمدينة اليه ، وخطب لصاحب مصر على منابر الحجاز مع الخليفة العباسى · وبذلك أصبحت الدولة المصرية تشمل مصر والشام والحجاز ، وارتسمت هذه الحدود السياسية التى تحدد جانبا من حدود مصر الحضارية ناحية الشرق ·

من ذلك الحين يبدأ ارتباط مصاير مصر والحجاز ، وهو ارتباط دام طوال العصور الوسطى ، عدا فترات متقطعة انفصل الحجاز خلالها عن مصر ·

ومن ذلك الحين أصبحت مصر تعتبر نفسها مسئولة عن الحرمين الشريفين وأهلهما ، واتسعت حدود مصر الشرقية فضمت الحجاز وأصبحت حماية الحرمين ضرورة لازمة لحكام مصر ، استمرت حتى خلال العصر العثمانى ، فكانت مصر هى المسئولة عن مهبط الوحى ، وكان عاملها مكلفا بأن يعنى بأمر الحاج ويقوم على المسجد الحرام ومسجد المدينة ومزارات المسلمين ·

ولابد أن نقول ان ارتباط مصر بالحجاز لا يعنى قط أن المصريين كانوا هم الذين يحكمونه ، لأن حكام الحجاز كانوا الشرفاء العلويين · تعاقبت أسراتهم على حكم الحجاز واحدة بعد واحدة ، ولم يتدخل سلاطين مصر فى أمر الحجاز الا فى حالات وقوع الحروب الطويلة بين المتنافسين على امارة مكة من الشرفاء الحسنيين ، أوفى حالات المجاعة الشديدة · وقد انتهى هذا الوضع والحمد لله عند قيام الدولة السعودية وتوحيدها الجزيرة تحت لوائها وتوليها أمور الحجاز ·

ومن لطائف مصادفات التاريخ أن البيت العتيق بناه ابراهيم واسماعيل بن هاجر المصرية ، ثم جدد بناؤه على عهد الرسول صلوات

الله عليه ، وعنى به بعض الخلفاء العباسيين بعض العناية ، ثم قامت عليه مصر بعد ذلك ، فبنته على أيام الظاهر بيبرس ، وأنفقت عليه مالا جليلا ، بل قام سلطان مصر بيبرس يبنى بيديه مع البنائين ، ثم تصدع بنيانه أيام الأتراك العثمانيين ، فقام المصريون على بنائه ، وأرسل والى مصر كل ما يلزم لهذا البناء ، وبعث بالبنائين ، ثم أعيد بناؤه على أيدى المصريين أيام محمد على ، حتى هذه المرة الأخـــيرة التى قامت المملكة العـــربية السعودية فيها ببناء ذلك البيت الأكرم ، قام البناء على تصميم وضــعه مصرى ورسم فى القاهرة ونفذ فى الحجاز على أيدى مهندسين مصريين ٠

ولم تقف حدود مصر السياسية فى جزيرة العرب عند الحجاز ، وأنا لا أتحدث عن هذه الحدود السياسية الآن لذاتها ، فهى بنفسها لا تعنى شيئا ، وانما المهم عندى أنها ترسم لنا خطوطا ــ ولو تقريبية ــ للحدود الحضارية ، وهى لباب التاريخ ولحمة النسب بين الأمم ٠

لقد وصـــلت هذه الحدود الى بلاد البحــرين ، وقد بدأ ذلك أيام الفاطميين وقبل أن ينتقلوا بدولتهم الى مصر ، فقد أطاعهم القرامطة ، واستشاروهم فى بعض ما أهمهم من أمور دولتهم ، ومثال ذلك أن أبا طاهر القرمطى لما توفى سنة ٣٣٢ هـ ٠ اختلف القرامطة فيمن يولونه أمرهم ، وكتبوا الى الخليفة الفاطمى « القائم » يسألونه ، فأشار بتولية ابنه أحمد ، فكان ما أشار به ٠ وبعد ذلك بسنوات طلب الخليفة المنصور الى أحمد بن أبى طاهر أن يعيد الحجر الأسود الى مكانه ، فأطاع وأعاده ، وبذلك انتهت هذه الفعلة الشنعاء الوحيدة من نوعها فى التاريخ : سرقة الحجر الأسود من الكعبة على يد القرامطة ، انتهت وعاد الحجر الى مكانه بفضل الخليفة الفاطمى ، وبفضل نفوذه فى البحرين ٠ فاذا ذكرنا الى جانب ذلك أن الخليفة العباسى المعتضد بذل أقصى ما استطاع من الجهد لاسترداد هذا الحجر دون جدوى ، بل عرض على القرامطة خمسين ألفا من الدنانير فى مقابل رده فرفضوا ، لتبينا أن سلطان الخليفة الفاطمى ــ على بعد بلاده ــ كان أقوى من سلطان الخليفة العباسى على بلد قريب منه كالبحرين ٠ نعم ان العلاقات ساءت بين الفاطميين وقرامطة البحرين بعد ذلك ، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية الحقيقة التى ذكرناها ٠

بل وصلت الدعوة الفاطمية من مصر الى عمان ، وخرج من القاهرة دعاة ينشرون مذهب العبيدى : حدث ذلك أيام الخليفة المستنصر ــ سنة ٤٦٩ هـ ، على وجه التحديد ــ عندما بعث المستنصر الى المكرم بن على ابن محمد الصليحى صاحب اليمن يأمره بتولى شئون ولاية عمان ، وكان الاضطراب قد سادها بعد ذهاب ريح القرامطة ٠ وأقامت الدولة الفاطمية داعيا رسميا لها فى عمان يسمى اسماعيل بن ابراهيم بن جابر ، ومن عمان أرسل الفاطميون أحد دعاتهم الى الهند ! واذا كانت الدعوة الفاطمية هى الصورة التى أخذتها الثقافة الرسمية فى ذلك الحين ، فمعنى ذلك أن حدودنا

الثقافية وصلت الى الخليج العربى ، وأن وطننا المصرى كان فى العصور الوسطى فعلا مركز اشعاع ثقافى بعيد المدى شرقا وغربا وجنوبا ٠

وقد تجدد ذلك الاشعاع الثقافى المصرى الشرقى فى العصر الحديث عندما وصلت حاميات مصرية الى الخليج العربى ، وأعلت سلطان مصر هناك أيام محمد على فيما بين سنتى ١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ وقد انتهى هذا التدخل المصرى فى شئون الجزيرة بقيام الدولة السعودية المباركة باذن الله ٠

فكأننا لا نفعل اليوم جديدا اذ نبعث بأبناء مصر من الأساتذة والمعلمين ليقوموا بالتعليم فى دول الجزيرة العربية حتى الخليج العربى ، وكأن هذه رسالة حقيقية لمصر ، قامت بها فى العصور الوسطى ، وتواصلها فى العصر الحديث ٠

ولنذكر أن اليمن دخلت فى نطاق نفوذ مصر السياسى فى العصر الفاطمى أيضا ، ذلك أن الدولة الزيدية التى قامت فى اليمن خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ضعف أمرها ، وانقسمت الى دويلات فى آخر ذلك القرن ، فانتهز دعاة الفاطميين الفرصة، ومازالوا يوالون ارسال الدعاة حتى تمكن أمر المذهب الفاطمى فى اليمن ، وفى سنة ٣٧٩ هـ دخل فى هذه الدعوة رسميا عبد الله بن قحطان بن أبى يعفر أمير اليمن ، وخطب للخليفة الفاطمى على منابر اليمن سنة ٣٨٧ هـ٠ وقد ظهر ذلك النفوذ المصرى بصورة واضحة جدا أيام الدولة الصليحية التى انشأها على بن محمد الصليحى نائبا عن الخليفة المصرى فى حكم اليمن ٠

ومن طريف ما يروى أن المكرم احمد الصليحى قبيل وفاته بعث زوجه المعروفة فى التاريخ باسم « السيدة الحرة » الى المستنصر تسأله أن يوافق على اقامة ابنها مكانه ، فأقرها المستنصر على ما طلبت ، واعتبرها وصية على ابنها وقائمة بالدعوة الفاطمية وشئون الحكم المصرى فى اليمن ولقبها بملكة ملوك اليمن ، وأطاعها آل الصليحى ومنافسوهم آل الرواحى ، مما يدل على أن هذه « السيدة الحرة » كانت شخصية قوية مطاعة مرهوبة الجانب ، وكانت المكاتبات المصرية تخاطبها بألقاب فريدة فى بابها ، فكانت تقول : « ٠٠ أمير المؤمنين يرد السلام على السيدة الحرة الملكة الرصينة الزكية ، وحيدة الزمن ، سيدة ملوك اليمن ، عمدة السلام ، ذخيرة الدين ، عصمة المسترشدين ، كهف المستنجدين ، ولية أمير المؤمنين ، وكافلة أوليائه الميامين ! » ٠ ومضت هذه السيدة الفاضلة تكافح من حولها من أمراء اليمن ، وتبعث الرسل يحملون الدعوة الفاطمية الى كل نواحى بلاد العرب ، بل أرسلت الدعاة الى الهند ، حتى توفيت سنة ٥٣٢ هـ ٠ فأخذ سلطان مصر السياسى هناك يضعف ، ولكنه لم يتلاش نهائيا الا حوالى سنة ٥٧٠ هـ ٠

وقد اتصل نفوذ مصر فى الشام والحجاز على أيام المماليك ، بل بسط الظاهر بيبرس وخلفاؤه سلطانهم على أرمينية وملكوا بلاد الأرمن ، وتولى المماليك البرجية حماية الامارات الواقعة شمال الموصل والشام ، وبعض امارات آسيا الصغرى ، واستمر ذلك حتى العصر العثمانى ٠

* * *

وقد وقفت طويلا عند هذه الناحية ، لأن الشائع المعروف هو أن النتيجة الأولى للفتح العربى هى سيادة بلاد العرب على مصر ، والواقع خلاف ذلك ٠ فقد سيطرت الخلافات الشرقية ، ما بين راشـــدية وأموية وعباسية ، على مصر قرنين ونصفا فحســـب ٠ ومنذ أن قامت الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ هجرية بدأت مصر تمتد شرقا فى ظلال الاسلام ، ومدت حدودها فى معظم تاريخها خلال العصور الوسطى الى الفرات ، بل أقيمت الخطبة باسم خليفة مصر فى بغداد يوما ما ! وتولت مصر رعاية الأراضى المقدسة ، وأدخلت الحجاز فى بلادها ، ومدت سلطانها على اليمن والبحرين وعمان فترة طويلة أو قصيرة ٠

وهذه الامتدادات الشرقية المصرية لم تكن سياسية فى صـــميمها ، بل كانت ثقافية أيضا ، لأن مصر كانت قد تحولت الى قاعدة الثقـــافة العربية والعلم الاسلامى ، فكانت تنشر علمها فى كل ناحية وصـــلت اليها ، وهى قد أزالت الحدود الســـياسية بينها وبين الشـــام والحجاز واليمن ، فأصـــبح رجال العلم من أهل تلك البلاد يفدون الى مصـــر ليتعلموا ٠ وكلما تقدم الزمن وتزايدت الاخطار على البلاد المشـــرقية : العراق والشام وجزيرة العرب تحولت مصر الى ملجأ للعلم الاسلامى كله ، وفر أصحاب الكتب بكتبهم الى بلادنا ٠

فلا غرابة ــ والـ حالة هذه انك تجد ما يزيد على ثلث المخطوطات العربية فى مصر وحدها ، والباقى موزع على بقية بلاد العالم شـــرقا وغربا ٠ ومصر لم تحصل على ذخائر الاســـلام هذه بناء على سياسة خاصة رسمها حكامها ، ولا تنفيذا لخطة بعيدة المدى ، كهذه الخطط التى ترسمها الدول أو الجماعات اليوم ، وانما جمع المصريون ذلك كله مدفوعين باحساس عميق خامر نفوسهم ، وهو أنهم قومة على هذه الثقافة الاسلامية كلها ، وأن الحفاظ على تلك الكنوز انما هو جــزء من رســـالة بلدهم الخـــالدة ٠

وكما حافظت مصـــر على تراث الحضـــارة المصـــرية القديمة آلاف السنين فى الأعصر الموغلة فى القدم ، حافظت على تراث الحضارة الاغريقية فى حرص بالغ ، فقد كانت أضواء حضارة الاغريق تخبو فى أثينا وأسبرطة وكورينثة ، ولكنها كانت تتألق فى الاســـكندرية ٠ وحدث ذلك بالنســـبة للحضارة المسيحية : تصـــدى رجالنا للنضال عنها ، وحافظنا عليها ،

صافية سليمة من الأوشاب ، وتابعنا رسالتنا الخالدة فى ظلال الاسلام ، فحافظنا على تراثه ورعينا كنوزه منذ أكرمنا الله بدعوة الاسلام الى اليوم ٠

واذا كانت حضارات المصريين والاغريق والمسيحيين الأول والاسلام هى جماع الحضارة العالمية حتى العصر الحديث ، فمعنى ذلك أن مصر كانت طوال تاريخها راعية الحضارة وحارسة تراث البشر ٠ وهذا الذى حدث فى الماضى يرسم لنا خطوط رسالتنا فى حاضــــرنا ومستقبلنا باذن الله ٠

ولعل أغرب مصـــــداق لذلك أن كل المخطوطات العربية التى توجد اليوم فى مكتبات أوربا وأمريكا ، قد اشتريت خارج مصر ، وأن تجار المخطوطات وبعثات جمعها من أهل الغرب لم يشتروا من مصر الا قليلا جدا ، وأمامك مقدمات فهارس المخطوطات فى أوربا وأمريكا ، تستطيع أن تتبين منها أن المصريين لم يبيعوا شيئا من تراث العرب بمال ، وليس المصريون أغنى من غيرهم ممن باعوا المخطوطات العربية بالألوف ، ولكن المصرى يشعرفى قرارة نفسه أنه أمين على هذا التراث العربى ، وهو قد يعوزه المال وتقسو عليه الأيام ، فيبيع أثاث بيته ، ولكنه لا يبيع مخطوطا !

وشىء آخر تستطيع أن تتخذه برهانا يؤيد ما ذكرت ، هو أن فوق التسعين فى المائة من الكتب العربية المطبوعة قد تم طبعها فى مصــــر ، والعشرة فى المائة الباقية طبعت فى بقية بلاد العالم الاسلامى كلها ، هذا مع أن المصرى لم يشتهر بالمهارة فى تجارة الكتب ، واذا كان هناك من يكسبون من نشر الكتب العربية ، فان المصرى دون شك آخرهم ! فاذا كان المصرى قد قام على طبع هذه الكتب ونشرها ، فانما دفعه الى ذلك احساس قلبى بأنه يؤدى رسالة قومية ، رسالة مصر فى الوجود ، وانظر الى ما يفعلونه فى لبنان وغير لبنان من أعمال القرصنة فى النشر والعدوان على حقوق المؤلفين العرب دون أدنى حياء ٠

＊＊＊

وفى العصر الحديث عادت مصر فاسترجعت حدودها الثقافية كما كانت عليه قبل الغزو العثمانى ، وقد مهدت لذلك باســـتعادة مركزها الثقافى فى الشام وبلاد العرب وخلال القرن التاسع عشر خاضت فى سبيل العروبة حروبا طويلة بعضها فى السودان ، وخاض جنود مصــــر لتحرير فلسطين حروبا طاحنة فى بلاد الشـــــام حروبا فى آسيا الصـــغرى وبلاد السودان ، خاضوها مع جنود الدولة العثمانية من ناحية ومع القبائل السودانية من ناحية أخرى ، وللمرة الأولى فى العصور الحديثة تظهر فكرة بناء دولة عربية جديدة تضم مصر والشام وجزءا من العراق منفصلة

عن الدولة العثمانية • وقد أعلن هذه الفكرة ابراهيم بن محمد على وكان يقود جيوش أبيه فى الشام ، وابراهيم ـ كما نعلم ـ كان أصـــلا تركى الجنسية ألبانى المولد ، فمن أين أتته فكرة اقامة الدولة العربية ؟

ليس مصدرها أبوه قطعا ، لأن أباه عندما سمع بالفكرة لأول مرة أنكرها واعتدها من شطحات ابنه القائد ابراهيم ، ثم نسبها الى حاشية ابنه من « العساكر المصرية » كما كان يسميهم ، وكان محمد على لا يرتاح لاختلاط ابنه ابراهيم بالمصـــريين ومجالسته لهم ، وكان يحذره من رفع الكلفة بينه وبين « أولاد العرب » ، ولكن ابراهيم لم يستمع لنصائح أبيه وزاد صلاته بالمصريين ، ورفع الكثيرين منهم الى درجة أومباشى وضابط صف • ومع أنه من ألبانيا لا يعرف شيئا من العربية فقد أتقن اللهجة المصرية ، ودرس اللغة العربية على يد معلم ، وتمكن من قراءة المكاتبات الرســـمية بها • ومن هنا يمكن أن نقول ان الفكرة جاءت ابراهيم من « أولا العرب المصريين » فقد رأى من شجاعتهم وصدقهم فى القتال مع « سلامة نيتهم » ـ كما يقول ـ ما مال بنفسه اليهم ، وكان كثير الشكوى من ضباطه الشراكسة ، ولكنه لم يشك قط من « الأومباشية » المصريين (أى العرفاء أو الصف ضباط أو مساعدى الضباط) لأنهم كانوا ـ كما كان يقول ـ « فى الغاية من القناعة والرضا مع قلة المربوط وسوء الحال » ، وهذا الكلام وارد على لسان على مبارك فى « الخطط التوفيقية » •

الفكرة أتت ـ اذن ـ من « أولاد العرب » المصـــريين العاملين فى جيش ابراهيم فى الشـــــام ، وهم الذين اتمو فتح الشـــام وكســـبوا انتصـــارات نصـــيبين وقونية وأبعدوا العثمانيين عن أرض الشـــام وتتبعوهم فى آسيا الصغرى حتى شـــاطىء البوســـفور • وفى أثناء ذلك تحدث ابراهيم عن ضـــرورة تغيير نظام الحكم فى بلاد الشـــام التى عادت للحكم العربى من جديد ، وقال ابراهيم انه لابد من اســـتبدال الموظفين الأتراك بموظفين من أولاد العـــرب ، ولابد أن يســـتعيد العرب مكانهم فى الجيش • وعندما وقعت معـــاهدة كوتاهية ســـنة ١٨٣٢ م اعترفت الدولة العثمانية لمحمد على بملك مصـــر والشـــام وأضـــيفت ولاية أطنة الى ابراهيم • وبهذا ـ وللمـــرة الأولى منذ قرون طويلة ـ عادت دولة العـــرب الى الظهور ، واتحدت مصر والشـــام تحت لواء مصرى • فاذا ذكرنا أن ملك مصـــر كان يمتد ـ اذ ذاك ـ مع النيل جنوبا حتى بحيرة فكتوريا ، رأينا كيف اســـتطاعت مصر ـ عندما أتيحت لها فرصة مواتية ـ أن تعيد دولة العروبة بعد أن كان الأمل فى بعثها قد كاد ينقطع •

ولكى يتبين لك مدى القوة الدافعة الكامنة فى كيان مصر العربية ، فلنذكر أن مصـــر كانت قبل احـــدى وثلاثين سنة فحســب من ذلك التاريخ ـ أى سنة ١٨٠١ ـ قد تخلصت من الاحتلال الفرنسى لتعود الى ملك الأتراك ، وخيل للناس أن عهود الركود والمظالم عادت من جديد ، والجبرتي نفسه ـ مؤرخ ذلك العصر ـ رحب بالعودة الى الخضـــوع للأتراك فى كتاب « مظهر التقديس » الذى كتبه فى ذلك الحين ، وما درى أن فى مصر من القوة الكامنة ما كان يعجزهو وغيره عن تصوره · ففى سنة ١٨٠٥ ، أى بعد أربع سنوات فحســب من فراغه من كتابة ذلك الكتاب الضعيف المتكلف الذى لا يليق باسم الجبرتى ، قامت دولة مصر الحديثة · أقامها شعب مصر عندما عين محمد على واليا على مصر وارغم الدولة العثمانية على الاعتراف به وتثبيته · وبعد ذلك عادت مصر العربية الى السير فى مسارها الخالد : مسار النظام والحضارة والعروبة والشخصية المســتقلة ·

وعقب ذلك مباشــرة بدأت النهضـــة السياسية والاجتماعية فى تاريخ الشـــرق العربى كله ، لأن نهوض مصـــر فى القرن التاسع عشر كان ايذانا بنهوض العـــرب أجمعين · وهذه فى ذاتهـــا حقيقة نرجـــو ألا تخفى على أحد ممن يدرســـون تاريخ العرب والمســلمين : ان مصر منذ دخلت فى أســـرة العروبة والاســـلام واســـتقام أمرها كأمة عربية اســـلامية ابتداء من القرن الثالث الهجرى / التاســـع الميلادى « عند قيام دولة آل طولون) أصـــبحت شـــيئا فشـــيئا قلب العالم العـــربى ومركز الاســـلام ومجمع المعـــارف وملتقى أهل الدين والعـــلم والفن فى عالم الاسلام ·

واليك حقيقة تؤيد ما نقول : فقد فتحت جيوش مصـــر الشـــام ســـنة ١٨٣٠ بقيادة ابراهيم بن محمد على كما ذكرنا ، وحكم ابراهيم الشام حتى سنة ١٨٤٠ ، وخلال هذه السنوات العشـــر نشـــر ابراهيم فى الشـــام الأمان والتســـامح ، وتمتع الناس بحرية لم يعرفوها من قبـــل · وفى ظل هذه الحـــرية بدأت جمـــاعات التبشـــير الأوربيـــة والأمريكية تنشىء مدارســـها فى الشـــام ، وفى هذه المدارس كان البعث الفكرى العـــربى فى الشـــام ، وكل ما يتحدثون به عن البعث العـــربى فى بلاد الشـــام انما بدأ خلال عشـــر سنوات فقط من الحكم المصرى ، ولولاه لما ظهـــر فى الشـــام بطرس وســـليمان البســـتانيان ولا ابراهيم وناصـــيف اليازجيان ، ولا وجدت هذه الحـــركة الجليلة التى تعتبر التيار الثانى للبعث العربى الحـــديث ، الى جـــانب التيار المصـــرى المعروف · وما أنا بأول من يقول ذلك ، وانما أنقل هنا كلام فاتيكيوتس Vatikiotis أستاذ الدراسات العربية بجامعة لندن ·

وخلال القرن التاسع عشر كله قامت مصر بنهضتها الكبرى وحملت عبء البعث العربى : هنا بدأت حركة الترجمة والاقتباس ، ومن هنا سار موكب العرفان • ولقد اشتركت مصر والشام فى هذا البعث العربى الجديد ، وقام الشام (سوريا ولبنان وفلسطين والاردن) فيه بدور جليل ، وأطلع أعلاما لا تنسى العروبة فضلهم ، ولكن مصر قامت بالنصيب الأكبر والقدر الأوفى ، ولو انك اطلعت على عدد الكتب التى طبعت فى مطبعة بولاق خلال القرن الماضى لأدركتك الدهشة من أن المصريين استطاعوا أن يخرجوا هذا الحشد الهائل من الكتب فى كل علم وفن ، على الرغم من ظروف غير مواتية وراتب لا يكاد يغنى • ولقد قام أولئك الأبطال المجاهدون بذلك العمل المجيد فى صبر وانكار للذات يبعثان على الاجلال ، فقد كان رفاعة رافع الطهطاوى وتلاميذه يترجمون الكتاب بعد الكتاب ، ويدفعون الى المطبعة بالسفر بعد السفر فى تواضع غريب • ولو قرأت المقدمات المتواضعة التى كانوا يجعلونها بين يدى كتبهم لتبينت بوضوح أن أولئك الرجال كانوا يشعرون شعورا واعيا بأنهم يؤدون نصيبهم من رسالة مصر الخالدة ، وهذا ظاهر بكل وضوح فى كتاب رفاعة رافع المسمى « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » •

وقد اتسعت حدود الشرق فى العصر الحديث ، فتقاربت بلاد كان الناس لا يتسامعون بها الا فى الأخبار ، فأصبحت الهند وباكستان واندونيسيا على ساعات من القاهرة ، ونهضت هذه الأمم كلها ووعت شعوبها ، وأخذ بعضها يتصل بمصر ، فاتسعت حدود رسالة مصر فى الشرق ووصلت الى أندونيسيا ، بل الى الفيلبين واستراليا وبلاد أمريكا الشمالية والجنوبية ، وأخذت مصر ترسل الأساتذة وأئمة المساجد الى هذه البلاد ، واستضافت الجامعات فى الدول الأفريقية الجديدة الأساتذة المصريين ، وأخذت ترسل أبناءها لطلب العلم فى مصر ، وقد ظهر ذلك بشكل واضح بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ •

ولقد كانت هذه الثورة صوتا دوى فى آذان العرب أجمعين ، فاستيقظ من كان فى سبات من أبناء أمة العرب ، وقام ينفض غبار القرون ويتابع السير ، وتجددت الآمال وانتعشت النفوس بعد يأس ثقيل حط على الأفئدة بعد نكبة قيام الكيان الصهيونى فى مايو ١٩٤٨ ، وبعد استحكام النكبة نتيجة لتأييد ظالم من أمم الدنيا كلها تقريبا لما أرادته الصهيونية من القضاء على شعب عربى كريم أصيل عامل نشيط هو شعب فلسطين •

لقد صاحب قيام هذا الكيان الظالم موجة من الدعوة الكاذبة لما سمى بدولة اسرائيل ، وما كان بنو اسرائيل فى يوم من الأيام شعبا موحدا ولا كانت لهم دولة جديرة بهذا الاسم لأية فترة يعتد بها من فترات الزمان ، ولا كان لليهود حرص على أرض فلسطين ولا حب للمقام فيها •

فهم يزعمون أن بختنصر قضى على دولتهم ظلما وأخذ شعبهم أسـيرا الى بابل حيث عاشوا فى النفى الذى يسمى بالدياسبورا ، ولكن أبواب فلسطين فتحت لهم فيما بعد ، وكان يمكنهم ان يعودوا اليها لو كان لهم بالفعل حنين صادق الى ترابها ، ولكن الذين عادوا كانوا نفرا قليلا منهم ، أما الباقى فقد آثروا فراق أرض فلسطين فراقا لا رجعة بعده ، وتفرقوا فى بلاد الأرض طلبا للمال ٠ وأما الذين عادوا الى فلسطين فقد حكموا جزءا منها تحت رعاية الرومان ، وكانوا مع ذلك شيعا وأحزابا تتنافس على السيادة على جزء من الساحل وجزء من القدس يقوم فيه معبد سليمان عليه السلام ، ووشى بعضهم ببعض واستبد بهم بيلاطس البندى ٠

وفى ذلك الحين بعث فيهم عيسى بن مريم فلم يؤمن به منهم الا نفر قليل ، ولقد قص القرآن الكريم ما كان من عدائهم لعيسى عليه السلام وحربهم عليه واختلافهم فيه واختلافهم عليه ٠ وانتقل عيسى الى الرفيق الأعلى وهو غير راض عن قومه هؤلاء ، ووقعت الفتنة ٠

وفى تلك الأثناء ووسـط صـخب جماعات بنى اسرائيل المتناحرة اختفى الانجيل ، فقام بعض الحواريين وتابعيهم بكتابة ما بقى فى ذاكرتهم وما وصل اليهم من أخبار فى كتب صغيرة هى التى عرفت بالأناجيل ٠ وقد كانت أول الأمر كثيرة العدد ثم انتهى أمرها الى نحو عشرة اعترفت الكنائس بأربعة منها هى أناجيل متى ويوحنا ولوقا ومرقس ، وهى التى ضمت نصوصها الى العهد القديم وعرفت بالعهد الجديد مع ما أضيف اليها من بعض مقالات الحواريين وخطاباتهم الى الجماعات المسيحية فى كورينثة وروما وغيرهما ٠

وما ضيع كتاب عيسى وصرف انجيله الا اختلاف اليهود بعضهم على بعض وسعيهم بعضـهم ببعض ، ثم كثر شـغبهم على الرومان ، وانتهى الأمر بقيام الامبراطور الرومانى تراجان بتخريب ما بقى من معبد سليمان وتفريق أمر من بقى من اليهود فى أرض فلسطين سنة ٧٠ للميلاد ، فخرج معظم يهود فلسطين منها ولم تبق منهم الا بقية أخذت تنقرض مع السنين ، واندرج الكثير من أفرادها فى غرب فلسطين وهم غالبية سكانها منذ الأزمنة السحيقة ٠

وعندما دخل العرب الشام فاتحين أيام أبى بكر وعمر كانت هذه البقية على وشك الزوال ، فأنقذها الاسلام وأبقى على ذبالة الحياة فى كيانها ، وانتعشت ودبت فيها الحياة من جديد فى ظل الاسلام بفضـل تسامحه ٠ واستظل اليهود فى كل مكان ذهبوا اليه بظل الاسـلام حيث

امتدت فتوحه ، ولولا العرب والاسلام وما نعم اليهود به من الأمن فى ظلاله لما بقى على وجه الأرض يهود لهم ذكر ولاندرج ذكـــرهم تحت تراب القـــرون ٠

* * *

ونعود الى ما استطردنا عنه فنقول :

ان ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قامت لتبعث أمر العـــرب من جديد ، وتوقفهم على أقدامهم لمواجهة الخطر الصهيونى الذى قام فى قلب بلاد العروبة ، ووفقت الثورة الى بعث روح العروبة والأمل فى المستقبل فى كيان شعوب العرب من الخليج الى المحيط ، وتعرضت نتيجة لذلك للهجوم والعـــداوة من جـــانب يهود الأرض الذين كانت آمالهم تطمح بهم الى الاستيلاء على كل فلسطين ثم التوسع فيما يليها من أرض العرب ، لأن الذين وضعوا خطة هذه الدولة من مؤسسى الصهيونية من أمثال هيرتسل وحايم وايزمان فعلوا ذلك فى وقت كان العرب جميعا يرزحون فيه تحت أثقال من تأخر وضعف متزايد فى أواخر دولة آل عثمان ، ثم توزع وطن العروبة الانجليز والفرنسيون أسلابا بعد الحرب العالمية الأولى ، فحسب أمثال هيرتسل أن أمة العرب قد حم قضـــاء الله فيها وانتهى أمرها ، وظنوا أنهم هم الوارثون ٠ ومضى النفر الذين أقاموا الكيان الصهيونى على أرض فلسطين يدعون لهذا الكيان دعوة واسعة ، وشوهوا التاريخ وزعموا أن أرض فلسطين كانت أبد الدهر مجمعـــا لليهود وأن العرب طارئون عليها ، وذهب الأمر ببعضهم أن أنكر أنه وجد فى التاريخ قديمه وحديثه شعب يسمى شـــعب فلســـطين ، فاستغلوا جهل الناس بالعرب وتاريخهم ، وانتفعوا كذلك بما بقى فى نفوس بعض أهل الغرب من ذكريات عداوات الصليبيات فمضوا يسوئون سمعة العرب ويصورونهم فى صورة أمة من الهمج لا حضـــارة لها ولا أمجاد ، وصدق الكثيرون ذلك الكذب بفضل ما أتيح لليهود من السيطرة على وسائل الاعلام فى أوربا وأمريكا ، وفى ظلال هذه الدعاية وبأعمال العنف والوحشية وضعوا يدهم على بقية أرض فلسطين وأخذوا يتطلعون الى المزيد ٠

فاذا هم فى ذلك اذا بصيحة هذه الثورة تمزق نسيج الأضاليل وتهيب بالعرب أن ينهضوا ليتجمعوا من جديد ، وهب العرب وتسارعوا يؤيدون هذه الثورة وكان البعث العربى الجديد ٠

وقد طال الصـــراع بين هذه الثورة والصهيونية ودعاتها ووقعت الحرب مرة بعد مرة بينها وبين الكيان الصهيونى ، وفى كل مرة كان العرب يواجهون الهزيمة ويجدون أنفسهم أمام حلف عالمى ضدهم ٠ وفى وقت من الأوقات تصور الناس أن هذا الكيان الصهيونى لا يغلب ، وأن العرب مهما فعلوا فلا مفر لهم من الاعتراف به والتسليم بما يريد ٠

ولقد جاهدت الثورة المصرية منذ قيامها لكسر شـــوكة الصهيونية وأدعيائها ، ولكن الحلف الغربى وقف لها بالمرصاد حتى دبر لها مكيدة الهزيمة فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، وهى مكيدة خسيسة اشترك فيها الغرب كله ضد العرب ، وبعد هزيمة ١٩٦٧ لم يعد يخامر ذهن أحد أن العرب سيستطيعون التغلب على الصهيونية يوما من الايام ٠

ومضى جمال عبد الناصر للقاء ربه فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ م دون أن يظفر بالنصر الذى عاش يحلم به طول عمره ٠

وجاءمن بعده الرئيس محمد أنور السادات بفكر جديد ورأى جديد وأمل جديد ٠

وفى صمت وترتيب ونظام مضى يعد العدة ليقضى على أســـطورة القوة الخارقة للكيان الصهيونى ٠

ولقد وضع ـ بذكائه وخبرته وطول معاناته لحرب الظالمين ـ ثقته كلها فى أصالة شعب مصر وقوته الكامنة ، وقدرته على القيام بكل جليل اذا أتيحت له الظروف ، ووجد الناصح الرشيد والقائد العارف بمكامن القوة فيه ليفيد منها ، وينابيع الايمان ليفجرها ٠ وعرف كذلك أن أمة العرب جميعا تنظر الى مصر وتنتظر منها أن نبدأ السير ، فاذا سارت تحركوا معها واتحدت قلوبهم وظهرت قوة العرب للعالمين ٠

وبينما كانت الدنيا من حوله تتعزى بالنداءات وأحلام النصر الذى حسب البعض أنه سيجىء بالكلام ، مضى هو يعمل خطوة خطوة فى دأب وصبر عن علم وخبرة وحكمة ، معتمدا على ما عرف من صلابة عود شعبه المصرى ، وما أودع الله فى كيانه من قوة كامنة كمون النار فى الحجر ٠

ووضع خطته مع أهل العلم بالحروب من قادة مصر وأيده فى ذلك بالنفس والمال بطل آخر من أبطال العروبة فى العصر الحديث وهو الملك فيصل بن عبد العزيز حتى أعدوا العدة لضربة تزلزل كيان الطاغية ، وتقع منه موقع ضربة السيف بين العينين ٠

وفى صمت أيضا مد يدا للاخوة فى الشام ، ورسموا خطة العمل معا فى دقة واحكام ٠

وكان رجال اسرائيل قد وقفوا بقواتهم على ضفاف القناة منذ يونيو ١٩٦٧ وحسبوا أنهم مخلدون هناك الى أبد الآبدين ٠

وتمكينا لأنفسهم أقاموا على مسافة قليلة من ضـــفة القناة حائطا ترابيا سميكا لا تؤثر فيه المدافع لأنه من تراب ، وخلف هذا الساتر الهائل

بنوا ما يسمى بخط بارليف وهو خط استحكامات ودفاعات يمتد من خليج السويس الى البحر المتوسط من خلف الساتر الترابى الذى تصوروا أنه سد يأجوج ومأجوج ٠

وقد تفننوا فى احكام هذا الخط حتى جعلوا منه سلسلة حصـــون وقلاع بعضها تحت الأرض وبعضـــها فوقها ، ووضعوا فى هذه القلاع آخر ما توصل اليه البشر من أدوات الحرب : مدافع وقواعد صواريخ وقاذفات لهب ومراكز للدفاع الجـــوى وما الى هذه من أدوات الفتـك والدمار ٠ وأضافوا الى ذلك بيوتا كاملة أقاموها تحت الأرض لجيش كامل قدروا أنه يسكن هذه الحجرات ليتمكن من قهر المصريين اذا حدثتهم أنفسهم بالاقتراب من القناة ٠

وفى الســـادس من أكتوبر ١٩٧٣ وبينما اليهود ينعمون بما أقاموا من ســدود واستحكامات ، وبينما كانوا يحتفلون بيوم الصـــوم الأكبر المعروف عندهم باسم يوم كيبور ، اذا بأسود مصر الذين أعدهم السادات وأحسن تدريبهم يقتحمون عليهم مأمنهم بما لم يكن يخطر لها ببال : اذا بالمصرى الوادع يتحول ـ بفضل القيادة الحكيمة والاعداد الدائب الصبور ـ الى محارب لا يعرف الخوف ومقاتل يحسن استخدام آخر ما وصل اليه العلم من أدوات الحرب والقتال ، واذا به ـ فى ســـاعات ـ يقتحم القناة ويمد عليها الجسر بعد الجسر ، واذا بأسود مصر يعبرون القناة ويحطمون سد التراب بأساليب ما خطرت ببال الصهيونى المستنيم الى أمن الغـــرور ٠٠

وما لبث الساتر الهائل أن تهاوى وحطمه جند مصر ، وانقضوا على قلاع خط بارليف فاقتحموها على أصحابها غير هيابين ولا مبالين بموت أى أصابة مقعدة أو وقوع فى أسر العدو ، وهو أسوأ من الموت فى هذا الصـــراع ٠

وبعد الاســتيلاء على خط بارليف وتحصـــيناته اندفع المقاتلون المصريون فى نظام تام وثبات لا يعرف التردد وسمت يدل على ثقة فى النفس واعتياد النصر تقدم المقاتلون يجتاحون صفوف اليهود ، ووقع المئات منهم فى الأسر ، وتضعضعت الروح المعنوية عند المتجبرين ، وأرسل قائدهم ـ الذى صـــورته دعايتهم على أنه قائد من أعظم القواد الذين ظهروا فى التاريخ ـ الى سادته فى الولايات المتحدة يعلن أن قواته ستستسلم وأن الجيش الاسرائيلى لم يعد قادرا على مواصلة القتال !

كل ذلك أتمه فى أربعة أيام الجندى المصرى مع عدد قليل من زملائه من جيوش العرب وقفوا الى جانب مصر فى ذلك الوقت العصيب ٠

وفى الوقت نفسه كانت قوات جيش سوريا تكتسح الاسرائيليين فى جبل الشيخ مما زاد شعور الصهيونيين بالضياع ·

وهنا ، والعدو على وشك السقوط ، أسرعت الولايات المتحدة بارسال العون العسكرى غير المحدود الى أسرائيل المتداعية ، وأنشأت جسرا جويا يحمل فى اليوم ثلاثين طنا من العتاد الحربى وكانت الطائرات تهبط فى مطارات أنشأها الصهيونيون فى سيناء وفى معظم الحالات كان الأمريكيون يرسلون الدبابات مع سائقها ورجالها والطيارات بطياريها وقطع المدفعية مع من سيستعملونها · وانهال هذا السيل من العتاد والرجال ليعوض خسائر الصهيونيين الفادحة ، وفى لحظة ما أحس رجال مصر انهم لا يقاتلون اسرائيل بل يقاتلون أمريكا نفسها ، وكانت خطة الحرب قد حققت أهدافها ، فأعلن قرار وقف اطلاق النار · وقد استمسك المصريون بما كسبوا وهو شىء عظيم : استعادوا القناة وحطموا خط بارليف واحتلوه وتقدموا الى مسافة تتراوح بين عشرة وعشرين كيلو مترا فى سيناء ، أى أنهم انتزعوا مفاتيح شبة الجزيرة من العدو الغاصب وآن لهم أن يستريحوا برهة ليثبتوا أقدامهم حيث استقرت وليستعدوا للمسير من جديد ·

وما ترددت أخبار انتصارات جنود مصر وسوريا حتى نهض العرب جميعا نهوض الاخوة البواسل ، فضموا جميعا صفوفهم ووقفوا أمام الدنيا كأنهم البنيان المرصوص ، وأسرع رجال دول الجزيرة العربية جميعا فوضعوا نفطهم تحت تصرف رجال المعركة وأوقفوا ارساله الى أمريكا ومن وقف معها ، فتزعزع البنيان الاقتصادى الغربى كله وشعر أهل الدنيا جميعا بقوة العرب ومكانهم على هذه الأرض ، وتغير اتجاه التاريخ ·

وعندما سكن أوار المعركة أخذ العسكريون فى الدنيا كلها يدرسون كيف تحقق هذا الأمر المذهل : دولة كانت تزعم أن لديها أقوى قوة عسكرية فى منطقة الشرق الأوسط ، وبالفعل كان لديها من السلاح كل ما شاءت أو تشاء ، وخزائن الولايات المتحدة مفتحة على مصاريعها أمامها تحفن منها كيف تريد ، ويهود أمريكا وأصدقاؤهم والمخدوعون فيهم من ذوى الخبرة فى الحرب يتوافدون زرافات زرافات لينضموا الى جيش الصهيونية المحارب للعرب ، وروسيا تبعث من عندها ألوفا بعد ألوف من يهودها لتقوى بهم صفوف العدو · ويهود الدنيا كلها مستعدون لتقديم أى عون مالى لهذه الطغمة الباغية ·· كل هذا حطمه المقاتلون المصريون فى ساعات وبوسائل لا تصل الى عشر ما كان بيد الاسرائيليين ، فكيف تمت هذه العجيبة ؟

ثم كيف تم هذا العبور الفريد من نوعه فى التاريخ ؟ كيف استطاع المهندسون العسكريون المصريون تحقيق هذا العبور بأقل خسائر ممكنة مستعملين جسورا عسكرية مما كان يستعمل فى الحرب العالمية الثانية ، لأن روسيا بخلت عليهم بجسور أحدث وأسرع وأيسر تركيبا ؟

وكيف اخترق المصريون ساتر التراب وقد كان من أقاموه يحسبون انه أحصن من أن يخترقه بشر ؟

ثم كيف سقطت تحصينات خط بارليف ، وكانت أعقد خط تحصين عرفه الفن العسكرى الى أيامنا هذه ؟

الجواب عن ذلك كله ماقلناه آنفا من أن المصرى ـ صانع التاريخ من سبعة آلاف سنة ـ قادر على صنعه لعشرة آلاف أخرى اذا أتيحت له الفرصة المواتية : اذا أحسن تدريبه وأعطى حقه من الثقة والتقدير ، فعاد نور العزة يملأ وجهه بالبشر وصدره بالقوة والأمل ، وذهنه بالرأى السديد · فهذا الجندى الذى قام بمعجزة العبور هاا ابن الجندى الذى أنشأ ملك مصر الشاسع خلال القرن التاسع عشر ورفع رايات بلاده من هرر عند باب المندب ومديرية خط الاستواء حول بحيرة فيكتوريا الى مشارف الآستانة وشبه جزيرة المورة وكريد ، وهو حفيد المقاتل المصرى الذى حطم قوات الصليبيين فى حطين قبل أن يقرر المماليك دخول المعركة ، وهو حفيد المقاتلين الذين كسروا ظهر المغول فى عين جالوت ، وهو الحفيد البعيد للفاتحين وبناة الدولة الكبرى فى العصر القديم : أحمس وتحتمس والرعامسة وجندهم الميامين ·

أجل ، وهذا يعرفه من يقرأ تاريخ مصر قراءة فهم ودراك وتفطن لحقيقة شعب هذا البلد ورسالته فى التاريخ ·

أجل ، ويعرفه كل من يقرأ تاريخ العرب والاسلام منذ انضمت مصر الى صفوف العروبة والمجاهدين فى سبيل الله ·

لأن مصر لم تكن مهد الحضارة وعميدة الأمم عبثا ·

فقد عاصرتها فى القيام بالخطوات الاولى لحضارة البشر فى فجر التاريخ أمم أخرى فى بلاد الرافدين وسهول الهند والصين ·

ولكن المصرى ، هذا الانسان الصلب الذى يجاوز الحد المرجو منه اذا أتيحت له الظروف ، يعرف دائما كيف يحتفظ بثمرات ما يكسب ويواصل السير فى صمت وصبر يزول معه عجب المتعجبين ·

وماعرفت أمة من أمم التاريخ ما عرفت مصر من عصـــور العزة والنصر والازدهار الحضارى على انفساح آماد التاريخ !

منذ عشرة آلاف سنة ونحن فى هذا الموضع من هذا الكوكب ، وقد مرت علينا العصور بخيرها وشرها ، وما قامت لشعب من الشعوب على ظهر الأرض قائمة واشتد له عود الا قصدنا بالأذى حسدا حينا وطمعا حينا وجريا وراء شهرة المرور بمصر حينا ثالثا ٠ فحاربنا ــ على مر العصور ــ الفرس والاغريق والرومان والروم والبيزنطيين والصليبيين والمغول والأتراك العثمـــانيين والفرنســـيين والانجليز والصـــهيونيين والأمريكيين ، وعرفنا حلاوة النصر وتجرعنا غصص الهزيمة حينا بعد حين ، ومازلنا هنا ! مالكين قيادنا بأيدينا داحـــرين للجبارين مرغمين أنوفهم بالتراب ، وهذا ما جرى للصـــهيونى المتجبر ، على أيدينا جرى ويجرى بين يديك ! فان كنت فى شك من نصيبنا فى شىء من الانتصارات الماضية فهذا انتصار اليوم الباهر ناطق بين يديك وتحت سمعك وبصرك ، ففيم الخلاف واللجاج ؟

وها أنت ترى كيف اننا لم نقنع فى يومنا بنصر الميادين ، بل أردفناه بنصر الحضارة والتقدم والرخاء ، وها أنت تسمع كل يوم عن معركة البناء والتجديد الى جانب معركة العبور ٠

فافهم الآن أن تلك رسالة شـــعبك فى الوجود : نصر على الجبابرة وجدع لأنوف الطغاة ثم بناء وحضارة وسعى نحو الرخاء ٠٠

كان هذا دأبنا قبل الاسلام ٠٠

وهذا دأبنا بعد الاسلام والانتساب الى شجرة العروبة الكريمة ٠٠
وسيكون هذا دأبنا على طول ما يستجد من أعصر التاريخ ٠٠

والمسئولية فى ذلك كله تقع عليك يا ابن مصر العزيز ٠

فان كنت عارفا بحق مصر مدركا لقدرها شاعرا بالحب لها مؤمنا بالتضحية فى سبيلها فها هى مصر وديعة بين يديك ، فارفع لواءها وسر تحت رايتها ، سر مع مصر المحروسة المظفرة الى حيث يريد الله لها من عزة وكرامة ٠٠

وسبحانه خلق الكنانة وهو راعيها ٠٠

وتبارك جل شأنه حين خلق وحين رعى ٠٠

وطوبى لمن عرف حق مصر وقام بواجبه نحوها ٠٠

وتحية الى شهداء العبور وأبطال العبور ..

وتحية الى شهداء مصر على مر العصور ..

***

وأحب - قبل أن أنتقل من هذا الفصل - أن آتى بعبارة أوردها عمر بن محمد بن يوسف الكندى فى كتابه المسمى « فضائل مصر » ، قال : « ذكر مصر وفضلها على غيرها من الأمطار »

وأما ذكر مصر وفضلها على غيرها من الأمصار وماخصت به وأوثرت به على غيرها ، فروى أبو بصرة الغفارى(١) قال : مصر خزانة الأرض كلها ، وسلطانها سلطان الأرض كلها ، قال الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام : « اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم » .

ولم تكن تلك الخزائن بغير مصر ، فأغاث الله بمصر وخزائنها كل حاضر وباد من جميع الأرض .

وجعلها الله تعالى متوسطة الدنيا ، وهى فى الاقليم الثالث والرابع ، فسلمت من حر الاقليم الأول والثانى ، ومن برد الاقليم الخامس والسادس والسابع ، فطاب هواؤها ، ونقى جوها وضعف حرها ، وخف بردها ، وسلم أهلها من مشاتى الجبال ، ومصائف عمان ، وصواعق تهامة ، ودماميل الجزيرة ، وحرب اليمن ، وطواعين الشام ، وغيلان العراق ، وعقارب عسكر مكرم(٢)، وطهب البحرين ، وحمى خيبر، وأمنوا من غارات الترك ، وجيوش الروم وطوائف العرب ، ومكائد الديلم ، وسرايا القرامطة، وبثوق الأنهار وقحط الأمطار ، وقد اكتنفها معادن رزقها ، وقرب تصرفها ، فكثر خصبها ، ورغد عيشها ، ورخص سعرها .

وقال سعيد بن أبى هلال(٣) : مصر أم البلاد ، وغوث العباد ، وذكر أن مصر مصورة فى كتب الأوائل ، وسائر المدن مادة أيديها اليها تستطعمها .

وقال عمرو بن العاص : ولاية مصر جامعة ، تعدل الخلافة .

---

(١) صحابى معدود فيمن نزل مصر من الصحابة .

(٢) بلد بخوزستان .

(٣) سعيد بن أبى هلال الليثى أبو العلاء المصرى : روى عن نافع ، وروى عنه الليث . مات سنة ١٤٩ هـ .

وأجمع أهل المعرفة أن أهل الدنيا مضطرون الى مصر يسافرون اليها ، ويطلبون الرزق بها ، وأهلها لا يطلبون الرزق فى غيرها ، ولا يسافرون الى بلد سواها ، حتى لو ضرب بينها وبين الدنيا لغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا ٠

وروى عن حيوة بن شريح ، وعقبة بن مسلم ، حديث يرفعه الى الله عز وجل يقول يوم القيامة لساكنى مصر فيما يعدد عليهم من نعمته : « ألم أسكنكم مصر ، فكنتم تشبعون من خبزها وتروون من مائها ؟ أمسكوا على أفواهكم » ٠

وقال يحيى بن سعيد : جلت البلاد فما رأيت الورع ببلد من البلدان أعرفه الا بالمدينة ومصر ٠٠

وقال خالد بن يزيد(١) : كان كعب الأحبار يقول : لولا رغبتى فى الشام لسكنت مصر ، فقيل : ولم ذلك يا أبا اسحاق ؟ فقال انى لأحب مصر وأهلها ، لأنها بلدة معافاة من الفتن ، وأهلها أهل عافية ، فهم بذلك يعافون ، ومن أرادها بسوء كبه الله على وجهه ، وهو بلد مبارك لأهله فيه ٠

وروى عن شفى بن عبيد الأصبحى أنه قال : مصر بلدة معافاة من الفتن ، لا يريدهم أحد بسوء الا صرعه الله ، ولا يريد أحد هلكهم الا أهلكه الله ٠

وذكر أهل العلم أنه مكتوب فى التوراة : بلد مصر خزانة الله ، فمن ارادها بسوء قصمه الله ٠

وقال أبو الربيع السائح : نعم البلد مصر ! يحج منها بدينارين ، ويغزى منها بدرهمين — يريد الحج فى بحر القلزم ، والغزو الى الاسكندرية وسائر سواحل مصر ٠

وذكر يحيى بن عثمان ، عن أحمد بن عبد الكريم ، قال جلت الدنيا ورأيت أهلها ، ورأيت آثار الأنبياء والملوك والحكماء ، ورأيت بناء كسرى وقيصر وغيرهما من ملوك الأرض ، ورأيت آثار سليمان بن دواد عليهما السلام ببيت المقدس وتدمر والأردن ، وما بنته الشياطين بتدبير النبوة ، فلم أر مثل برابى مصر على حكمتها ، ولا مثل الآثار التى بها ، والأبنية التى لملوكها وحكمائها » ٠

❋ ❋ ❋

ولى اليك رجاء أحب ألا تنساه أبدا

---

(١) هو خالد بن يزيد الجمحى أبو عبد الرحمن المصرى . روى عن عطا ، وروى عنه الليث . مات سنة ١٣٩ هـ .

وهو أنك وحدك لا تستطيع الا القليل ، ولكنك تستطيع الكثير اذا أنت ضممت جهدك الى جهد أخيك · وأنت مهما فعلت لتغنى وحدك فستظل فقيرا ، لأن الذى ينفع الناس هو العمل الجماعى ، هو وضع المواطن يده فى يد المواطن والعمل معا · وهذه هى فضيلة الغرب الكبرى علينا : انه يعرف قيمة العمل الجماعى ونحن لانكاد نشعر بروح الجماعة ·· وكل منا يفكر وحده ويعمل وحده ، كأن الله خلق هذه الدنيا كلها له وحده ·

ان العمل الجماعى وحده هو الباقى ، أما عمل الفرد فهو دائما قليل · ومادمت أنت تجتهد فى خدمة نفسك وتحسب أن العالم ينتهى عند حدود أسرتك فأنت مخطىء فان أسرة جارك هى أسرتك ، ومصر كلها أسرتك ، واذا نحن عملنا متضامنين فنحن فى الحقيقة نبنى العصر الجديد · اذا أنت فكرت فى أولادك ففكر أيضا فى أولاد الآخرين لأنهم أيضا أولادك · ومصر هذه يمكن أن تكون من أقوى شعوب الأرض اذا آمن أهلها بفكرة الجماعة وتخلصوا من روح الفردية الذى لم نكسب منه شيئا ، وكل مصائبنا الماضية جاءت من نسياننا أننا شعب واحد وجسد واحد · لا فرق فى وطننا هذا بين مصرى ومصرى ، لا العقيدة الدينية تفرقنا ولا القرابة العائلية تنفعنا · انما تنفعنا الوحدة وروح الجماعة ، على قاعدتها ينبغى أن نقيم بناء الحاضر السعيد والمستقبل الأسعد ان شاء الله ·

ودعنا من فلسفة التفوق على الأقران وكيد العدا وكبت الحساد ، فهذه فلسفة الماضى الأليم ، ولتكن فلسفتنا منذ اليوم العمل مع الأقران والتعاون مع الاخوان ووضع اليد فى اليد والحب فى القلب والعمل الجاد المتقن لخير مصر ·

واذكر أنك مهما تعط مصر فهى تعطيك أكثر · وأنت مهما تفعل فأنت لا تضحى فى سبيل مصر لأن فضلها عليك مهما كنت وفعلت سابق ولاحق ·

رسالة مصر : نور وسلام

رسمت لك فى الفصول السابقة حدود الحضارة المصرية ، وتتبعت وإياك اتجاهات نشاطها فى ميدان العلم والفن ، وبينت لك أبعاد التاريخ المصرى ، وكيف أن صورة هذا التاريخ لا تكتمل ومقوماتها لا تتم الا اذا قام على هذه الأبعاد الثلاثة ، وجمع بين العناصـــر الأفريقية والبحرية والمشرقية التى تتألف منها حضارة مصر على مر العصور ٠

وقد حرصت خلال هذه الصفحات على أن أبين عنصر الاستمرار فى هذه الحضارة المصرية ، وأن أدلل لك على أن رسالة مصر لم تختلف على طول الزمان وان تعاقبت الأعصر وتغيرت الأدهار ٠ فهى فى كل زمان من مراكز الحضارة وحصونها ومهادها ، وأهلها فى كل عصر قومة على تراث الانســانية ، أمناء على جانب كبير مما أبدع البشـــر فى ميادين العمران ٠

ولعل بلدا من بلاد الأرض لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، فان مصر التى ولدت من نحو سبعة آلاف سنة لازالت هى بعينها اليوم : لم يتغير فيها الدين على طول هذه الأحقاب الا مرتين ، ولم تتغير اللغة الا مرتين أيضا ، على حين أن بريطانيا مثلا لا يرجع تاريخها الى أبعد من ألفى سنة ، تغير الدين خلالها مرتين واللغة أربع مرات على الأقل ، وأسبانيا يرجع تاريخها الى ألفين وخمســمائة سنة ، تغير الدين خلالها ثمانى مرات واللغة ست مرات ٠ أما جنسنا فلم يتغير فى جملته خلال هذه الأعصــر الا تغيرات طفيفة ، فى حين أن بلدا كايطاليا تعاقبت عليه أجناس كثيرة غيرت عنصر السكان تغييرا تاما أكثر من مرة ٠

ونتيجة ذلك أن طبيعة الحياة فى مصر وجوهرها لم يختلفا كثيرا رغم هذه الأحقاب المتطاولة ، بل ان العين تقع اليوم على مشاهد كانت موجودة أيام الفراعنة كما هى اليوم ٠ فلو انك مررت بأحد هذه المحال التى يبيعون فيها آنية الفخار ، ورأيت تلك المجموعات اللطيفة من القلل

والأباريق والأزيار وأصص الزرع والأنابيب الضخمة مرصوصة بعضها فوق بعض على نحو يستلفت النظر ، ووراء هذه الصفوف المتراصة من الآنية يعيش صاحب الدكان وأهله ، اذا رأيت هذا المنظر فثق أن عمره لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة ، وأنه كان مألوفا لأجدادك الأقدمين كما هو مألوف لك · أما ريفنا اليوم فالأغلب أنه ريف مصر القديمة ·

وقد تناول الجغرافى الفذ الدكتور جمال حمدان موضوع « وجود مصر الدائم على مسرح الأحداث العالمية » فى كتابه المبدع « شـــخصية مصر » ، الذى استوفى فيه الكلام عن العبقرية المصرية وعوامل ثباتها ومحـــافظتها على مكانها عبر التاريخ ، وتمكن من تحليل أهمية الموقع الجغرافى تحليلا لا يقتدره الا جغرافى مثله بفضل ما وهبه الله من علم واسع فى الجغرافية ونظر ثاقب فيها ، ولقد وصل فى تحليله الى ما سماه « بعبقرية المكان » ، وصاغ بهذا مصطلحا أصبح الآن جاريا فى كل ما يؤلف عن مصر من الكتب ، والجامعية منها خاصة · وقد خطر ببالى أن أعرض هنا موجزا لآرائه وأنظاره ، ولكنى وجدت الكتاب نفسه فى طبعته الأولى خلاصة مركزة لا يمكن اختصارها ، فرأيت أن أنصح القارىء بأن يقرأ تلك الطبعة الأولى من ذلك الكتاب القيم لأن الدكتور حمدان عاد فكتب نفس الكتاب فى ملحمة علمية طولها ثلاثة آلاف صفحة لا يصـــبر على قراءتها الا القليلون ، فدراسة الدكتور حمدان تكمل موضوع كتابى هذا وتفتح أمام المؤرخ آفاقا جديدة فى النظر الى مصر ومكانها فى التاريخ وشخصيتها بين الأمم ، وشخصية المصرى نفسه وتحليلها · وهذا ــ فى رأيى ــ مبحث ينبغى أن نطرقه يوما ما ، ولم يقف بى عن ولوجه الا أنى رأيت أن كل المباحث التى كتبت عن شخصيات أبناء الأوطان لم تصل الى نتيجة يمكن أن تسمى علمية ، وهذا هو الذى حدا بجمال حمدان الى أن يكتب عن « شخصية مصر » لا « شـــخصية المصرى » · وقد كتب عن « الشخصية المصرية » ــ بهذا العنوان ــ عباس محمود العقاد فى مقدمة لكتابه عن سعد زغلول ، ولكن ما كتبه ــ فيما أرى ــ ليس فى مستوى ما نعرف من حصافة العقاد وعمق تفكيره واتساع آفاق علمه ·

ولقد تعودنا أن نقسم تاريخنا الى ثلاثة أقســام ضـــخمة يختلف بعضها عن بعض أظهر الاختلاف : هناك مصر القديمة ، ومصر الاسلامية، ومصر الحديثة · والحقيقة أن هذا التقسيم لا يطابق الواقع ، وقد آن أن نغيره ، لأننا ــ مثلا ــ نذهب الى أن تاريخ مصر الاسلامية ينتهى عند نزول الفرنســين مصر فى أواخر القرن الثامن عشــر ، بل ان بعض المؤرخين يقفون بمصر الاسلامية عند الغزو العثمانى عام ١٥١٧ ، ثم تبدأ ــ فى حسابهم ــ مصر الحديثة ، فكأن مصر بعد نزول الفرنسيين أرضها لم تعد اسلامية ! وهذا غير صحيح ، لأن مصر لازالت ــ ولن تزال ــ اسلامية ،

ولأن تاريخنا لم ينتقل من الأعصر القديمة الى الأعصر الاسلامية مباشرة ، بل هناك فترة طويلة تعرف بمصر المسيحية ، وهى فترة هامة من تاريخنا ، وحلقة لا يمكن اهمال أمرها فى سلسلة تاريخنا الطويل ٠

والواقع أننا لا يمكن أن نعتسف تقسـيم تاريخ مصر ، لأن تاريخ مصر متصل أشد الاتصال بالتاريخ العالمى ، ولابد أن نتبع فى تقسـيمه تقسيم التاريخ العام ٠ فنحن أمة صنعت التاريخ أو عاشت فيه عمرها كله ، وهى لم تكن أبدا نسيا منسيا أو كما مهملا فى حساب الأحداث ٠ ولم تمر بها ــ كما مرت بغيرها ــ فترات تبدو أثناءها وكأنها قد أنسيت التاريخ أو أنسى هو ذكرها ٠ وذلك راجع الى موقعنا الجغرافى ، والتبعات التى يلقيها على أكتافنا هذا الموقع ٠

وقد رأيت فى الفصول السابقة كيف أن مصر كانت خلال هذه الأعصر المتطاولة ، اما صانعة الحضارة البشرية أو حفيظة عليها ، ورأيت فى كلامنا عن مصر وأفريقية كيف قام بلدنا ــ دون أن تكون له سياسة مرسومة ــ ــ بأهم دور حضارى فى تاريخ هذه القارة قبل العصور الحديثة ، وكيف أن النور كان ينفذ الى نواحيها من بلادنا ، فى حين هى ــ فى حساب الدنيا كلها ــ قارة مظلمة ، ورأيت أن اشـعاعات حضارتنا اخترقت الحجب ووصلت الى أقاصى القارة فى صمت ، كما يتسرب الماء الى باطن الأرض ويجــرى فيه أنهارا ٠ واليوم يحدث مثل ذلك ٠ ففى طول هذه القارة وعرضها ، وفى هذه اللحظة التى تقرأ فيها هذا الكلام ، يصغى الألوف من مواطنينا الأفريقيين الى الاذاعة المصــرية ، وتقرأ الوف أخرى من المحيط الاطلسى الى عدن نفس الصحف والمجلات التى تقرؤها أنت ، وثق أنه ليس فى هذه القارة انسان الا يداعب خياله حلم المجىء الى القاهرة ٠

ورأيت فى الكلام عن علاقتنا بالبحر المتوسط وحضارته أننا وضعنا أساسها وطباقها الأولى ، وساهمنا فيها برافدين كبيرين ، وأننا لم نفقد مكاننا الطبيعى فى البحر الا مرة واحدة ، هى التى جرت علينا فيها مصيبة الاستعمار ، وفيما خلا ذلك لم يخل مكاننا فى عالم هذا البحر المتوسط ، حتى فى العصور التى يخيل الينا أنها عصـور هبوط ، كعصـر الحكم الرومانى ، فقد كانت مصر خلال نصفه الأول أعظم بلاده فى ميدان الطب ، وكان أباطرة الرومان اذا أعياهم الداء بعثوا فى طلب طبيب مصرى ، وفى نصفه الثانى تألق نجم مصر المسيحية ، وقادت عالم النصرانية كله فى كفاح المذاهب ، بل ظل بلدنا محتفظا بعبقرية البناء والانشاء ، فلما احتاج جستنيان مهندسا يصمم له كنيسة أياصـوفيا ، لم يجد غير مهندسـين اسكندريين هما اللذان وضـعا « المشـروع » كما يقولون ، واذا كانت الامبراطورة تيودورا هى أعظم شخصية فى التاريخ البيزنطى ، فان نصيب مصر فى هذه العبقرية عظيم ، لأنها قضت أحسن سنوات شبابها فى بلادنا ، وأخذت عن أحبارنا ، وعاشت عمرها كله بعد ذلك شديدة الحب لبلدنا ٠

ورأيت فى الكلام عن الشرق أن حدود حضـارتنا ترامت الى أبعد مما يطمح اليه الخيال ، وأن هذه الحدود قد وصلت الى الخليج العربى وبلاد الرافدين ٠

وهذه الحقائق كلها التى تحدد لنا رسالتنا الحقيقية فى هذا الوجود ٠ وأنا لم أحاول أن أتخير الأمجاد وأجمعها ثم أقول : هذه هى رسالة مصر ! انما رأيت أن أسرى بك خلال تاريخنا الطويل لنتعرف اتجاهاته وأبعاده وأعماقه ، وعلى ضوء هذه الاتجاهات وفى حدود تلك الأبعاد والأعماق ، نرسم رسالتنا فى الحاضر والمستقبل وهذا الذى فعلناه شـبيه بما يفعله الوالد اذا أراد أن يوجه ابنه التوجيه الصحيح ، فهو يلاحظه ليستبين ميوله ، ويتحدث اليه ليستطلع نزعات نفسه ، وهذه وتلك تحددان الطريق الذى ينبغى أن يسلكه فى الحياة ٠

واذا جاز لنا أن نصدر حكما على هذا التاريخ فى مجموعه ، فهو أن مصر بلد له رسالة معينة فى الوجود ، تتلخص فى كلمتين اثنتين : النور والسلام ٠٠

فأما رسالة النور فقد رأيت مصاديقها بما فيه الكفاية فى أطواء هذا الحديث ، وأما رسالة السلام فسنتحدث عنها بعد قليل ، ولكن يكفى أن أقول لك سلفا ان أبسـط براهينها هى أن ديانات مصـر القديمة ديانات محبة وسلام ، وليس فى آلهة مصر القديمة آلهة تكره البشر وتغار منهم وتحقد عليهم كما كان الحال مع أرباب الاغريق والرومان والجرمان ، ثم اننا تركنا هذه الأرباب عندما ظهرت المسيحية تدعو الى المحبة والاخاء ، ثم انتقلت غالبيتنا الى الاسلام وهو دين السـلام ، مثله فى ذلك مثل المسيحية ، ولا تنس أبدا أن أخاك القبطى أخوك فى وطنك ، وأنك اذا كنت مسلما فلأن أباك مسلم ، ولو كان أبوك غير مسلم لنشأت على دينه ففيم الفخر اذن ؟ انما يكون همك أن تكون مسلما صالحا ، والمسلم الصالح لا يتعصـب ولا يغتر ، وانمـا هو يعـرف أن الدين لله وأن الله لو شاء أن يجعل الناس أمة واحدة لفعل ، ومادام سبحانه لم يفعل فلماذا يريد بعضنا أن يوجه التاريخ على غير ما أراد الله ٠ ان كل واجبنا كمسلمين هو ان نوصل الاسلام الى الناس وندعهم بعد ذلك ٠ فمن شاء الله سعادته فتح قلبه للدين واسلم ، وآلا ظل على دينه ، وأنت لن تهدى من تشاء ولكن الله سبحانه هو الهادى ٠ واذا كان بعضنا لديه حماس للدين ويريد نشره فامامه الملايين من الكفار فى أفريقية وآسيا ، فليذهب الى هناك ليحمل رسالة الاسلام الى هؤلاء الاخوة وليقن من أن الألوف منهم سيستمعون اليه ويدخلون الدين ، وسيدهش اذ يجد هناك دعاة المسيحية يعملون فى همة ، يعملون منفردين ويكسبون لدينهم الألوف ، ونحن هنا ندعو الى الاسلام فى حى الحسين : ونظن اننا بذلك نخدم الدين ، وفى الدنيا اليوم ألف مليون مسلم والفا مليون مسيحى وثلاثة عشر مليون يهدى ، فتأمل هذه الحقيقة وسل نفسك : هل نحن نقوم حقا بواجب الاسلام ؟

ولم يقهرنا أحد على اعتناق المسيحية أو الاسلام ، وانما اعتنقناهما مختارين ، بل اننا لاقينا فى سبيل المسيحية الأهوال ، وغنم الكثيرون من أجدادنا الشهادة فى سبيلها حتى ليذكر تاريخنا فترة تسمى « عصـــــر الشهداء » • وكذلك الاسلام لم يقسرنا عليه أحد ، فان الاسلام دين السلام لم ينتشر بالسيف أبدا ، وانما فتحت البلاد وترك أهلها أحرارا ليختاروا الدين الذى يحبون •

ولعل سائلا يسأل عن المراد بالبلد الذى له رسالة : فنقول ان الأمم كالناس ، فكما أن فى الناس من لهم مواهب ظاهرة وظروف خاصة تفرض عليهم التزامات لابد أن يقوموا بها حيال الآخرين ، كصاحب الموهبة العلمية أو الفنية ، الذى تطالبه هذه الموهبة بأن يقوم بحقها ، فيقضى عمره كله خادما لها ، فكذلك الحال مع الأمم : فيها ما يفرض عليه موقعه الجغرافى وما حباه الله به من نعم ، التزامات معينة حيال الانسانية كلها ، وفيها ما تنحصر مهمة أهله فى الاستمتاع بالحياة عن أى طريق ، والأمم كثيرة أمامك تستطيع أن تجد فيها هذه وتلك •

واذا نحن تأملنا تاريخ البشر لاحظنا أنه ليس تاريخ الأمم كلها ، انه ليس تاريخ هذه المئات من الشعوب والجماعات التى باد بعضها وظل بعضها الآخر فى قيد الوجود ، وانما هو تاريخ عدد صغير منها ، وهذا العدد الصغير هو الذى رسم ذلك الخط الطويل الذى بدأ يوم درج الانسان على ظهر هذا الكوكب ، ولن يزال متصلا الى أن يشاء علام الغيوب •

أمم قليلة هى التى قادت وعلمت ووجهت ، أما البقية فقد سارت فى الركب راضية أو غير راضية • ولسنا نعنى بذلك تلك الأمم التى حكمت وسادت ، بلى التى أيقظت وعلمت وأنارت ، وجعلت للتاريخ الانسانى معنى ومغزى ومثلا أعلى • لأن السيادة والحكم ــ مهما اتسع شأنهما وعظم ــ فمصيرهما الى الزوال ، أما الذى يبقى وينفع الناس فوجوه الحضارة وأعمال العمران التى تنتقل من الأمة الى ماعداها ، وتتوارثها الأجيال عن الأجيال •

ولقد عرف التاريخ أمما بلغت من السيادة واتساع السلطان مالم يبلغه غيرها ، كدولة المغول التى امتدت من قلب الصين الى فرنســـا ، وتلاشت مع ذلك فى بضع سنوات كأن لم تكن بالأمس ، ولم تخلف بعدها غير الخراب والدمار • وعرف التاريخ كذلك أمما صغيرة لم تحارب أحدا ولكنها خدمت وعلمت ، كأمة الفينيقيين التى نقلت الكتابة من مصـــر القديمة الى سائر الأمم ، وعلمت الكثير من أمم الأرض شتى الصناعات ، وأنشأت فى كل مكان نزلت فيه مدنا لازال بعضها عامرا الى اليوم •

وشىء آخر أحب أن ألاحظه فى هذا المقام ، وهو أن فى الأمم ــ كما فى الناس ــ أمما عاشت لنفسها ، لم تعط أحدا شيئا ، بل أخذت عن غيرها كل شىء ، وهذه الأمم لا حساب لها فى حضارة أو نظام ، وانما هى عالة على غيرها • وليس من الضرورى أن تكون هذه الأمم صغيرة أو فقيرة ،

لأن الأمر متوقف على طبيعة الأمة ومزاجها ، ففى الأمم ما هو ضخم غنى ، وما بسط سلطانه على غيره وكان له ملك شـــاسع ، ولكنه فى حســـاب الحضارات فقير صغير ، لم يسجل له التاريخ شيئا ولا الناس يذكرونه بشىء محمود ٠

وليس من الضرورى كذلك أن يكون هذا الذى تخلفه الأمم لغيرها آراء ومبادىء وفلسفات ، بل قد يكون كل جهدها منصرفا الى ما تعودنا أن نذكره فى ازدراء لا معنى له من شئون المادة ٠ ولقد عودنا أسلافنا أن نحسب أن كل شىء لا قيمة له عدا شعر الشاعر ورصـــف الناثر وحكم الحكماء التى تشبه كلام الكهان ، ودرج أهلنا فى العصور الوسطى على ألا يقدروا الصانع المجيد الا بمقدار ، وعلى أن يضعوه ــ مهما أجاد ــ فى مرتبة هى أقل من مرتبة البسط الشعراء والناثرين ٠

وهذا كله ليس بصواب فى فهم التاريخ أو ادراك طبائع العمران لأن الحقيقة هى أن الرقى المادى هو أساس أى رقى روحى أو فكرى ، وأنك اذا هيأت للناس ظروفا معاشية طيبة فقد هيأت لهم طريقا الى الفضائل ، وأن الأسئلة الأولى التى ينبغى أن تضعها لنفسك ، اذا أردت أن تدرس حالة شعب ، هى كيف كان الناس يعيشون ؟ ماذا كانوا يأكلون ؟ وكيف كانوا يأكلونه ؟ وأى صنف من البيوت بيوتهم ؟ وأى نوع من النسيج كان نسيجهم ؟ وما الى ذلك ٠ لأن جواب هذه الأسئلة يحدد فى الواقع مستوى معيشة الناس ، ومستوى المعيشة يحدد مستوى التفكير فى الغالب ٠ وأنا هنا أتحدث عن الأمم والجماعات ، لا عن الأفراد ، لأننا درجنا على أن نعتبر الأمم والجماعات شخوصا وأفرادا وأجساما ، وهذا خطأ بين يحذره العارفون بخصائص الجماعات ٠

وقد عنيت بأن أذكر هذه الملاحظات حتى يجىء حكمنا آخر الأمر سليما ، وحتى لا يفوتنا شىء دون أن نضـــعه حيث يستحق من التقدير والحســـاب ٠

ولعلك لاحظت أن حضـــارة مصر القديمة كانت حضـــارة الصانع والزارع قبل أن تكون حضارة الملوك والعواهل ، فان الذين تبهرهم حضارة مصر القديمة انما تبهرهم بدقة صناعاتها واتقان رسومها ومتانة مبانيها ٠ وأنت اذ تزور المتحف المصرى مثلا أو القسم المصرى فى أى متحف من متاحف الدنيا ، فأنت فى عالم صناع وزراع وفنانين ، واذا تأملت جدار مقبرة مصرية وجدت أمامك جماعات تعمل ، ما بين خباز ونجار وحداد وطحان ونقاش وزارع وحراث وصياد ، سجل الفنان المصرى رسومهم معتزا بهم ، ورسم الى جانبهم صور الملوك والملكات والآلهة ، كأنه يريد أن يقول ان تاريخ مصر من هؤلاء جميعا ٠

فاذا أنت قرأت كتابا فى تاريخ الرومان من تأليف تيتوس ليفيوس أو بومبونيوس ميلا ، لم تجد الا ذكر الأباطرة والقادة والحكام وأعضاء مجلس الشيوخ ، أما عامة الناس من الصناع وأهل الحرف وصغار أهل

المدن فهم لا يشيرون اليهم الا بكلمة turba وهى لفظة تعنى السوقة وتعنى ـ فى الأصل ـ الفوضى والاضطراب والصخب والزحام ٠

وأما بلغاء كتاب العرب ممن كانوا يظنون أنهم وصــلوا الى قمة الحكمة والفهم ، من أمثال الصــاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذانى وأبى محمد القاسـم الحريرى ، فهؤلاء الصــناع والزراع ـ وهم بناة الحضارة الانسانية على الحقيقة ـ لم يكونوا فى نظرهم الا سوقة ورعاعا وغثاء كغثاء السيل ٠٠ وقد كانت هذه النظرة الخرقاء الى أهل الحرف من أشد ما أضر بكيان المجتمعات الاسلامية فى العصور الوسطى ، وهى نظرة غير اسلامية ، لأن الاسلام يكرم العمل والعامل ويضعهما فى أجمل مكان ٠

ومعنى هذا أن المجتمع المصرى القديم أعطى العامل وكاسب الرزق بيده حقه وكرمه وخلده ، ولهذا فقد كان مجتمعا ســليم البنيان متين الروابط صحيح المقاييس ، وما قولك فى مجتمع تعاقب عليه ثلاثون قرنا حافلة بالأحداث والحروب والفتن والغزوات ، وظل برغم ذلك كله سليم البنيان قادرا على أن يعيد تشييد كيانه اذا تصدع أو انهدم فيه شىء ؟

بل هو قادر على أن يبهر أنظار الناس بعمل رائع كمعجزة «العبور» التى أعادت مصر فى أيام أربعة الى مكانها المعروف من تقدير الناس ٠

وهذا هو سر مصر قديمة وحديثة ، وهى مصر الخالصة الصافية التى أنشأها أبناؤها بجهدهم وفهمهم وعبقريتهم قبل أن يختلطوا بغيرهم من الأمم ، وهذا أيضا هو الذى يربط الغربى الى حضارة مصر القديمة ، لأن حضارة الغرب الراهنة هى حضارة الصانع والزارع وصاحب المهنة ورجل الفن ، ومن هنا نفهم لماذا يقبل الغربيون على كل ما هو مصرى قديم ، فالجناح المصرى فى أى متحف فى الغرب هو درة ذلك المتحف ، وما أن يقام متحف لتوت عنخ آمون وآثاره حتى تتقاطر الألوف بعد الألوف للفرجة عليه ، ولا ينشر كتاب عن مصر القديمة حتى تنفد طبعاته برغم غلاء ثمنه ، وما هكذا يحدث اذا أقيم معرض هندى أو يابانى أو صينى ، أو اذا ظهر كتاب عن حضارة واحدة من هذه البلاد ، فالغربى يشعر بالجانب الانسانى الشامل لحضارة مصر ويستوقف نظره تقديرها للعمل والعامل والصناعة والصانع والزراعة والزارع ٠

وقد قال جاك بيرين فى كتابه الذى سبق أن أشرت اليه : ان الشعب المصرى شعب انسانى فى صميمه ، جماعى فى تفكيره ، وهو يلفت النظر الى أنك لا تجد أبدا صورة نساج واحد أو صانع قوارير واحد على الآثار المصرية ، بل لابد من عشرات الصناع يعملون معا ، وفى بعض الأحيان تمثل اللوحة مصنعا كاملا بكل أجزاء العمل وما يصنعه كل عامل على حدة ٠ وهذه الملاحظة من ذلك المؤرخ الكبير تضع يدك على سر من أسرار سلامة المجتمع المصرى على مر العصور ، فهو مجتمع يقوم على أساس العمل وهو مصدر الفضائل كلها ، وهو مجتمع يقوم على العمل الجماعى

لا الفردى · وكلنا نعرف فى شعبنا صفات الألفة والمودة والعشرة والتعاون، ولا يفسد هذه الفضائل فى بعض الأحيان الا الفقر عدو كل فضيلة ورأس كل رذيلة ، وواجب الانسان الأول هو الخلاص من الفقر ، وسبيل ذلك الخلاص هو العمل ، وقد عرف المصرى ذلك وآمن به كما رأيت · وليس من العيب أن يولد الانسان فقيرا ، ولكن العيب فى أن يموت فقيرا ، لأن معنى ذلك أنه انهزم فى معركة الحياة شريطة أن يكون كسبه حلالا طيبا · والا فان الفقر مع الشرف أكرم ألف مرة من الغنى مع التفريط فى الشرف وقواعد الأخلاق ·

هذه ملاحظة لابد منها لكى يستقر فى نفسك ايمانك بشعبك وفضائله ، ودون أن يداخلك شك فى أنك تعيش فى مجتمع فاضل سليم متماسك ، ولا يهولنك ما تسمعه أحيانا من الكلام عن بعض مظاهر الفساد ، فهذه كلها مبالغات وتهاويل يلقيها ناس لا يحسنون وزن الكلام ، وهم يسيئون الى شعبهم اساءة كبرى من حيث يحسبون أنهم يريدون الصلاح ·

ولم يحدث فى تاريخنا أن انتشرت المفاسد فى شعبنا أو سادته الخلاعة أو غلب عليه الفجور والانحلال كما حدث لكثير من الشعوب فى التاريخ ، وانما شعبنا دائما شعب سليم فى مجموعه فاضل فى أساسه متماسك فى بنيانه ، والى هذه الخصائص ترجع قوته وصلابة عوده رغم ما نزل به من المحن · وان الأجنبى ليزور مصر اليوم ـ وهى تمر بفترة من أعصب فترات تاريخها ـ فيتعجب من ثبات أهلها وتلقيهم المتاعب فى صبر وعزم ، حتى ليحسب بعضهم ذلك قلة اكتراث أو قلة بصر بالأمور · وكان قد وقع فى هذا الخطأ فيلسوف كابن خلدون فقال : « ان أهل مصر يعيشون كأنهم فرغوا من الحساب » ، والسبب فى خطئه أنه طوف بأنحاء الدنيا فوجد شعوبا قلقة مضطربة تفترسها الهموم وتفرق أهلها المطامع ، ثم أتى مصر فوجد ناسا هادئين ثابتين يأخذون الدنيا كما هى دون اسراف فى شكوى أو استسلام لفزع ، فراعه ذلك وغاب عن ادراكه ·

واذا كانت مصر قد عاشت فى مجالات الحضارة دائما ، ولم يخل زمان منها قائدة للعمران أو حفيظة على تراثه ، فان هذا يضع أيدينا على نوع رسالتنا ، فنحن أمة علم وعمل وعمران ، واذا كنا قد أهملنا شيئا من رسالتنا هذه فى بعض فترات الانهيار البالغ ، فينبغى ألا يفوتنا ذلك من الآن فصاعدا ، وقد صحونا والحمد لله ووعينا ·

علينا أن نبلغ ما بلغه غيرنا فى ميادين العلم والعمل والعمران ، ونعول على المضى فى الدرس حتى نستعيد مكاننا فى القيادة ، وحتى نأخذ مكاننا فى الصف الأول · وقد يحسب الناس أننا نبالغ اذ نحمل قومنا هذه الرسالة ، لأن غيرنا قد سبقنا فى تلك الميادين بمراحل كثيرة · والواقع أن تلك المراحل تقطع فى زمن يسير اذا عقدت الأمة العزم على ذلك ، واذا وعى أهلها الرسالة الحقة للبلد الذى يعيشون فيه ·

ذلك أنك تستطيع أن تدرس العلم لتكسب به العيش ، وتستطيع أن تتعلمه ليعينك على السمو بنفسك والارتفاع بمستواها ، وتســتطيع أن تدرسه لتنفع الناس به ، وهذه القدرة على النفع هى فى ذاتها سيادة ، بل هى أرفع ألوان الســيادات • واذا لم يكن الرجل الذى اخترع عقارا ناجحا ينجى الناس من المهالك سيدا ، فأى الناس هو السيد ؟ وانما المهم فى ذلك كله نظرتك الى العلم وعلاقتك به ، فاذا أنت نظرت اليه على أنه مجرد وسيلة للكسب فحسب ، واذا كانت علاقتك به علاقة مال ، فويل لك وويل له ! وعشت حياتك عبدا أسيرا للمكاسب والمغانم • فكم من طبيب أودع الله فى قلبه ويده الشفاء ، فيأبى الا أن يجعل من نفسه محصــلا للقروش ، فيظل عمره عبد مرضاه ، ويظل عمره محتاجا مسكينا ! اذا جمع ألفا احتاج الى ألفين ، واذا اجتمع له الألفان نظر الى الثلاثة ، ومادامت الأرقام لا تنتهى ، فان حسراته لا تنتهى أبدا • وخير من ذلك طبيب جمله الله بالاحساس وكمله بالعلم وزينه بالقناعة ، فهذا رجل يظل عمره سيدا نافعا ، وهذا هو الذى يحسب له حساب •

وكذلك الحال مع المعلم ــ أو المدرس كما نقول ــ فضلا عن الأستاذ الجامعى ، فاذا كان هم الواحد من هؤلاء كسب المال فحسب ، فسيظل عمره كله لاهثا وراء المال ، أما اذا نظر الى نفسه كمعلم أولا ثم كاسب رزق ثانيا ، فسيكسب المال قطعا ومعه الكرامة والفضل • ولست أدعو المعلمين الى عدم التفكير فى الكسب ، فهذا آخر ما يخطر ببالى ، بل أدعوهم الى الا يجعلوا المال همهم الأول ، وليصرفوا بالهم الى التعليم وتجويده يجدوا المال بين أيديهم •

ونحن اليوم ندرس العلم ، بل ما نظن أن بلدا فى مثل ظروفنا يبذل فى سبيل العلم قدر ما نبذل ، ونحن نفعل ذلك مدفوعين بخصلة فينا تشبه الغريزة ، خصلة الاتجاه نحو العلم والنور • وبقى أن تعرف أن رسالتنا الحقيقية فى ذلك الميدان ليست رسالة متابعة أو ملاحقة بل رسالة قيادة ، فقد رأيت أننا كنا فى معظم أيامنا فى مقدمة أهل الدنيا علما وفهما ، وأن العالم مدين لنا بالكثير جدا ، فلا ينبغى أن نقنع بما كان ، بل ينبغى أن نؤيده بما هو كائن ، وما سيكون ، واذا كان غيرنا يقنع من العلم بتحصيل ما بلغه غيره فى ميدانه فان واجبنا نحن كمصريين أن لا نقف عند هذا الحد ، وانما ينبغى أن نتخطاه الى الابتكار والتجديد والقيادة والتعليم • ذلك ما يمليه علينا تاريخنا وماضينا ، وذلك هو ما لا ينبغى أن ننصرف عنه بحال •

ومن غريب ظواهر تاريخنا اننا ادركنا بالفطرة الهادية هذه الحقيقة ، فلم نكد نصل الى شىء من العلم حتى بدأنا نعلم غيرنا ، وحتى أخذنا نبعث بعوث المدرسين شرقا وغربا وجنوبا ، حتى لقد علمنا فى البلاد المحيطة بنا أضعاف ما علم الانجليز مثلا ، وهم يزعمون أنهم ما دخلوا هذه البلاد الا مرشدين ، ولكن العبرة ليست بما يقولون ، بل بما يفعلون •

ونحن نؤدى هذا الواجب الى ما حولنا من الأمم التى تربطنا بها وشائج الحضارة واللغة والدين ، أو الدين فحسب ، أو التى تجمعنا واياها المواطنة فى القارة الأفريقية ، نحن نؤدى هذا الواجب متابعين لرسالتنا التقليدية الخالدة ، فنحن نشعر بالسعادة اذ نتعاون مع غيرنا فى طريق النور ٠

وعلينا الآن أن نجعل هذا الجانب من رسالتنا واجبا مفروضا علينا، وأن نقوم به عن نفس راضية ، لأن بلدنا كان على طول تاريخه قوة حضارية ، فلا ينبغى أن يفقد هذا الجانب من القوة أبدا ٠ وان قارىء التاريخ البشرى ليفتح كتابه فيجد مصر فى المطلع ! يجد مصر فى مقدمة ركب النور ، وهذا شىء ليس بالقليل ، ولكن الذى يقلل من أهميته اننا لا نقدره قدره فى بعض الأحيان ، واننا ننسى أن ذلك يفرض علينا متابعته والاستمرار فيه ، لأنه صميم رسالتنا فى هذا الوجود ٠

وعلينا أن نحقق هذا الجانب من رسالتنا فى أبعاد تاريخنا الثلاثة : فى القارة الأفريقية ، وفى عالم الشرق ، وعالم البحر المتوسط ٠٠ والغرب أيضا ٠

وقد يحسب البعض أننى أغالى عندما أقول ان حدود رسالتنا العلمية هذه ينبغى أن تشمل الغرب أيضا ، لأن الظاهر الذى يراه كل الناس أننا لا نملك شيئا نقدمه للغرب فى هذا الميدان ، والواقع أننا اذا تابعنا جهدنا فيه ، وأخلصنا له الاخلاص الواجب ، بلغنا فيه المبلغ الذى ينصبنا معلمين لعالم الغرب ٠ ولقد بلغت هذا المبلغ أمة كانت فى مثل ظروفنا فى مطالع القرن الماضى ، وهى أمة اليابان ٠ فقد كانت اليابان فى مطلع القرن التاسع عشر تعيش فى صميم العصور الوسطى ، ولكن اليابانيين فطنوا الى أن العلم والصناعة أساس نهضة الغرب ، فأقبلوا يتعلمون فى نهم يثير العجب ، ومن منتصف القرن الماضى أخذت جماعات شباب اليابان تتجه الى الغرب لتدرس وتتعلم وتتدرب ، وكان الطالب اليابانى يدرس فى دأب النحلة يخامره شعور بأنه يخدم بلاده ، ومازالوا يدرسون ويتدربون حتى قبسوا علم الغرب وصناعاته ، ثم علموا شعبهم ودربوه وخطوا به هذه الخطوة التى تعتبر عجيبة من عجائب التاريخ ، فاليابان اليوم ثانى دولة صناعية فى الدنيا ، وفى نهاية هذا القرن ستكون الأولى ، وهذا كله نتيجة العلم والعمل والاخلاص والتعاون ورفع الهمة الى خدمة الوطن ٠

وصدقونى أننا كنا حريين أن نصل الى هذا المستوى ، لو صدقنا فى طلب العلم وأخلصنا فى العمل ونظرنا الى مصر فى كل ما نعمل ــ ومازال ذلك ممكنا الى اليوم ــ ولو طلبناه عن صدق واخلاص نية ٠

فى هذا الطريق ينبغى أن نسير ، ينبغى أن نقبل على العلم بقلوبنا وعقولنا معا ، وألا ننسى أننا نحقق بذلك رسالة بلدنا الكبرى ، وأننا لا ينبغى أن نقف عند حد التعلم ، بل نخطو الى ما وراء ذلك • وهذا التفوق الذى أدركته أوربا فى ذلك الميدان يمكننا ملاحقتها فيه ، فالمسألة مسألة درس وتحصيل واخلاص وصبر وتقديس للعلم • فاذا نحن درسنا على ذلك الأسلوب أدركنا ـ بسرعة ـ شأو غيرنا ، وانفتح أمامنا طريق السبق والتفوق • ولو أن عشرة منا فحسب توفروا عن اخلاص لدراسة كل ميدان من ميادين العلم ، لما انقضت سنوات الا ونحن فى المقدمة •

والغرب اليوم فى حاجة الى من يعينه ، لأن حضارته سابقت الزمان على نحو لم يكن فى الحسبان ، فوقعت فى أزمة كبرى ، ذلك أن تفجير الذرة كان ينبغى ألا يحدث اليوم ، والعالم حافل بالأحقاد والعداوة ، كان ينبغى أن ينتظر حتى يرتفع مستوى المعنويات فى الدنيا ، حتى لا يكون ذلك الكشف العظيم أداة دمار • والغرب كله اليوم يقف أمام هذه المعضلة ، وكل معسكر من معسكراته يخشى أن يلجأ الآخرون الى استعمال سلاح الذرة ، ولهذا فهم يتلاقون ويتباحثون ويتدارسون ، علهم ينتهون الى مخرج ، وما نظن أنهم واصلون الى المخرج الصحيح •

وهذا الموقف يحدد لنا رسالتنا فى الناحية الغربية من ميدان العلم ، فعلينا أولا أن نصل الى ما وصلوا اليه فى ميدان الطبيعة والرياضيات والطب والكيمياء والهندسة وغيرها من العلوم والفنون وعلينا بعد ذلك أن نشترك معهم فى البحث عن المخرج من هذا الموقف المخيف ، ونحن حقيقون بأن نفعل ذلك ، لو آمنا برسالتنا على النحو الذى بيناه واستخلصناه من صحائف التاريخ •

ولقد وقفت طويلا عند كلامى عن علاقتنا بالبحر المتوسط والغرب ، ولم يكن لى من هدف الا أن أجلو هذه الناحية التى تراكم عليها تراب كثير يحول بيننا وبين ادراكها على حقيقتها ، وأرجو أن يكون قد استقر فى ذهن القارىء أن لنا مكانا خاصا فى عالم البحر المتوسط ، وفى الغرب كله بالتالى ، وأن علينا أن نحتل هذه المكانة اذا أردنا تصحيح اتجاهنا ، واذا أردنا الخير لهذه الدنيا وأهلها • فان فراغنا فى عالم البحر المتوسط لن يملأه غيرنا ، فنحن ملتقى الشرق بالغرب ، ونحن نقطة الاتصال بين قارات ثلاث ، ونحن نستطيع أن نقوم رسلا بين الجانبين ، وننقل الخبرات بين هذا وذاك : نحن باب أفريقية ، ننقل الى أهلها مالدينا ومالدى غيرنا • ونصل به الى نواحى هذه القارة المظلومة التى لم ينصفها أحد •

وكان الأوربيون قد أقاموا سدودا وقيودا فى هذه القارة ، وحسبوا أنهم يوجهون تاريخها وحضارتها الوجهة التى يحبون ، ولكن أهل القارة لا يريدون ، وهم يتجهون الى العمل معنا والى التعاون معنا ، أو قل : هم

يودون أن يفعلوا ذلك لو أتيحت لهم الظروف ، فمن واجبنا أن نحمل النور الى بلادهم ، فان حضارتهم هى حضــارتنا ، ومستقبلهم مســتقبلنا • ومصيرنا ــ آخر الأمر ــ سيتقرر فى أفريقية ، لأننا لا يمكن أن نتجاهل الحقيقة الأساسية الكبرى فى جغرافية بلادنا ، وهى أننا دولة أفريقية • نحن لسنا من الشرق ولا من الغرب ، وان كان لنا فى كل منهما نصيب ، ولكننا أفريقيون ، واذا اختل التوازن فى هذه القارة كان الوبال علينا ، فلنكن على الأهبة دائما ، ولنذكر دائما أن آسيا وأوربا لن تقررا مصيرنا ، بل أفريقية هى التى ستقرره ، وأريد أن أقول بذلك ان الأوضاع فى أفريقية هى التى ستقرره ، فينبغى ألا ننسى ذلك أبدا •

واذن فواجبنا الأول هو أن نحافظ على حدودنا الحضارية فى القارة الأفريقية • ينبغى أن نمهد طريق الحضــارة بيننا وبين ناحية الغرب والجنوب ، ينبغى أن نوثق صلاتنا بكل بلاد أفريقية وأن نقف معها فيما تسعى اليه من القضــاء على النظم غــير الأفريقية التى تحكم جنوبى أفريقية وتحرير أهلها ، وانقاذ شعب ناميبيا من جريمة السرقة التى تنزلها جنوبى أفريقية بأراضيه ، ومن نكبة الاستعمار الجديد وهو استعمار بالعلم والمعرفة وما يسمى بالتكنولوجيا • والغــرب بطبعه أنانى تاجر ، فهو لا يعطى شيئا قط الا بمقابل ، حتى المسيحية ــ التى يزعمون أنهم ينشرونها فى أفريقية ــ يبيعونها للناس فى النهاية ، فانهم اذا أدخلوا فى المسيحية انسانا أو شعبا اعتبروه بعد ذلك تابعا لهم دائرا فى فلكهم •

ومن عجب أننا ــ ونحن نعيش فى عصر يسمونه عصر النور والقانون الدولى ــ نجد الغرب يؤيد جرائم سرقة الصهيونية للوطن الفلسطينى وادعاءهم أنه وطنهم ، وسرقة جنوبى أفريقية لوطن كامل هو ناميبيا ، وجرائم أخرى كثيرة ترتكب فى هذه القارة التى لا يريد لها الاستعمار وأهله الاستقلال والعزة والكرامة أبدا ••

وأنا لا أتحدث الآن عن السياسة ، أى اننى لا أضع حدود رسالتنا السياسية فى أفريقية ، فهذا موضوع آخر ، وما اشارتى الى ضــرورة القضاء على بقايا الاستعمار فى القارة وايقاف جرائم السرقات البشعة التى يقوم بها الغربيون ضد الأفارقة الا لأن ذلك تمهيد لابد منه لأداء مصر رسالتها الثقافية فيها • ولكنى أضع حدود رســالتنا العلمية ، وهى فى عرفى أثبت أساس يمكن أن تقوم عليه السياسات ، وهى ــ كما رأيت ــ لباب تاريخنا وخلاصته ، وفى ذلك الميدان أقول ان رسالة مصر فى القارة الأفريقية لا تعرف حدودا ، فلننشر النور فى كل مكان من أفريقية نستطيع أن نصل اليه •

ولنفهم أن تلك الرسالة ليست فرضا على الدولة وحدها بل على المواطنين جميعا • ليدرك كل منا أن عليه أن يؤدى نصيبه من الكفاح فى

سبيل أفريقية ، ليخرج من يستطيع منا مجاهدا فى سبيل العلم دون أن يفكر فى مصير نفسه ، فان المجاهد فى سبيل العلم قلما تصيبه المعاطب · ولو أنك عرفت ما يبذله غيرنا لكسب المعركة الافريقية للكك العجب ، لو أنك تجولت فى نواحى الصحراء وفى غضون الغابات لوجدت ناسا من أولئك الأوربيين يعملون فى جد للفوز بنصيب من هذه المعركة : هذا يعلم ، وذلك يطبب ، وغيرهما ينشر الدين ، والكل يتجسسون ويخدمون بلادهم ·

وهم لا يفعلون ذلك اخلاصا للعلم أو خدمة للطب أو تقديسا للدين ، بل يفعلونه لأنهم يريدون أن يوسعوا النطاق الحضـــارى لبلادهم ، وهم واثقون أن هذا النطاق الحضارى اذا اتسع رحب معه أيضا ميدان النفوذ السياسى · والكثيرون جدا من أولئك المغامرين الأوربيين ليسوا مرسلين من حكوماتهم أو أديرتهم ، وليســـوا مؤيدين بالمال والمدد ، وانما هم مستقلون بأنفسهم ، يؤدون الواجب نحو بلادهم فى صمت وصبر ·

واذا أنت قرأت تواريخ المستكشفين لرأيت عجبا ، من قوم يترامون على المهالك ويتسابقون الى المعاطب فى سبيل كشف واحة أو العثور على طريق ! وهؤلاء الأفراد القلائل الذين تجردوا للكشف والبحث هم الذين أقاموا حدود الامبراطورية الأوروبية فى أفريقية · ونحن نقرأ سير ستانلى وليفنجستون وبروس وهورنيمان وبارث وكايبه ، ونحسب أن ذلك كله جهاد دفع اليه حب المغامرة ، والواقع أن أولئك الكاشفين جميعا كان يدفعهم ذلك الدافع الذى أشرت اليه · دافع البحث عن حدود حضارية أوسع لبلادهم ، وحدود النفوذ الحضارى حدود نفوذ سياسى أيضا ··

وقد وضع أجدادنا لبلادنا حدودا حضارية واسعة فى أفريقية ، فعلينا أن نحافظ على هذه الحدود ، وقد اتسعت القارة اليوم واستقلت بلادنا ، وتفتحت أبوابها ، ومضى أهلها يطلبون العلم ، وقد خلف المستــعمرون الماضون وراءهم لغاتهم أشبه بلغات رسمية لهذه البلاد ، فبعضها يتخذ الفرنسية وبعضها يتخذ الانجليزية الى جانب لغة بلاده الأصلية ، واللغة العربية أقرب الى قلوب أولئك الاخوة لأن فيهم الكثيرين من المسلمين ، بل ان بعضهم ــ مثل أهل الصومال وأريتريا ومالى ــ يريدون أن يجعلوا اللغة العربية لغتهم الرسمية ، فعلينا أن نقدم لهم العون فى ذلك السبيل ، فما من بلد أفريقى تنتصر فيه اللغة العربية والاسلام الا سيصبح حليفا لنا يوما من الأيام ، واذا كان مستقبل مصر سيتقرر فى أفريقية فليكن هذا همنا الأول لا نقدم عليه شيئا ، ولنقم به بدافع المحافظة على النفس وتأمين المستقبل ·

ليتجرد منا من يملأ قلبه حب بلاده للجهاد فى سبيل العلم والنور فى أفريقية · ليخرج مجاهدا وحده ، ليحمل متاعه وكتبه وليتسلل وحده الى ركن من أركان أفريقية ، فينصب نفسه معلما أو طبيبا ، لأن القارة فى

حاجة الى كل شىء ، وكما رسم أجدادنا حدودنا الحضـــارية فى أفريقية أفرادا ، فعلينا أن نجدد رسمها أفرادا أيضا ، علينا أن نؤيد جهد الدولة بما نستطيع ، فنحن اذا اطمأننا على حدودنا الحضارية فى أفريقية ، واذا وجهنا العلم فيها فى الطريق الذى ينبغى أن يسير فيه لخير أهل القارة ، ثبتنا بذلك حدود مستقبلنا ، وضمنا ألا تنقلب علينا الأمور فى قارتنا ٠ لنفعل ذلك فى صدق واخلاص وايثار وتواضع ٠

وانه لمن العجب أن أشعة النور الخارجة من بلادنا تصل دائما الى أبعد مما نقدر ، فان المصريين هم الذين نشروا الاسلام فى السودان على ما قلناه ، ووصلوا به الى كردفان ، ودارفور ، وفى هذه النواحى المباركة من أرض السودان التى كانت تسمى واداى ، قام بنشر الاسلام شيوخ من أهل السودان تعلموا فى مصـــر ـ وفى الأزهر خاصة ـ وعلى أيديهم أصبحت هذه البلاد اسلامية ، ومنها انتشر الاسلام فى بلاد الكانم والبرنو فيما يعرف الآن بتشاد ، واتصل التيار حتى وصل الى نيجيريا ٠ وسار تيار اسلامى آخر من طرابلس الى فزان فكوار ووصل الى تشاد أيضا ، والى هذين التيارين يرجع الفضل فى انتشار الاسلام فى أجزاء كبيرة من أفريقية المدارية ٠

ومن طريف ما يذكر هنا أن نفرا من أهل السودان الذين درســوا فى مصر اجتمعوا وأقاموا مسجدا فى الفاشر فى شرق السودان ، فتصور أن هذا المسجد كان ـ ولايزال ـ من أعظم مراكز نشر الاسلام فى أفريقية ! تصور أن عشرات الألوف دخلوا الاسلام فى صحنه أو على أيدى شيوخه ! تصور أن هذا المسجد الذى أنشأه الايمان قد قام وحده بأضعاف ما قامت به جماعات التبشير مجتمعة ! تصور لو أننا ضـــاعفنا جهدنا فى هذه الناحية ، وأنشأنا بجهدنا الفردى زوايا صغيرة فى قلب القارة ومضينا نعلم وننشر رسالتنا ! لو أننا فعلنا ذلك لوصلنا الى مدى بعيد ، ولحققنا شيئا يشبه المعجزة ، لأن مصير القارة الأفريقية كلها فى الميزان ، ومصيرنا نحن أيضا فى الميزان تبعا لذلك ٠

ولو أننا فعلنا ذلك لكنا مكملين فيه لعمل السابقين لنا من رجال الطرق الصوفية مثل التجانية والقادرية الذين نشروا الاسلام فى أفريقية الغربية عبر الصحراء ، وهنا لابد من تحية للسنوسية ومجاهديها ممن لهم الأيادى البيضاء فى نشر الاسلام فى أفريقية ٠

ذلك أن الدين والسياسة يشد أحدهما أزر الآخر فى معركة أفريقية ، والكنائس ووزارات الخارجية والهيئات الرأسمالية فى الغرب تعمل اليوم جاهدة لكسب المعركة الأفريقية ، وهى قد بدأت بوضع العقبات فى الطرق التى يفيض منها نور الاسلام الى نواحى القارة ، وهى واثقة أنها اذا فعلت ذلك أوقفت تيار الحضارة الاسلامية وخلا لها الجو لتفعل ماتريد ٠٠ وانه

لمن المحزن أن نسمع ما تعلنه الكنيسة الكاثوليكية من اعداد من يتنصرون على أيدى رجالها عاما بعد عام ، حتى زعموا انهم نصروا خلال سنة ١٩٥٤ خمسة عشر مليونا من الأفريقيين ، فاذا أنت تصورت هذا العدد فى سنة ٢٠٠٠ مثلا لرأيت أنه سيبلغ الستين أو السبعين مليونا ، أى أن الغالبية فى أفريقية ستكون لأولئك المتنصرين · وأنا لا أنظر الى وجه الخطر الدينى فى هذه المسألة فحسب ، بل أنظر الى وجهها الحضارى السياسى ، لأن أولئك جميعا سيكونون أتباعا لجبهة أخرى تعادينا ، ومن واجبنا أن نتنبه لذلك منذ الآن ·

علينا اذن أن نضع المعركة الأفريقية فى المقدمة ، وعلينا أن نصمم على كسبها ، وأن يتجرد كل منا للقيام بدوره فيها ، وقد رسمت الخطوط العامة لذلك كله ، وفيه كفاية فى المجال المقدر لنا فى هذا الكتاب ·

أما رسالتنا فى عالم العروبة فواضحة المعالم ، ونحن مدركون لها محققون لجوانبها والحمد لله· فهؤلاء هم أبناؤنا يحملون النور الى كل ركن من أركان هذا العالم العربى ، وها نحن لا ندخر وسعا فى سـبيل التعاون مع اخواننا العرب ، للوصول بنا وبهم الى حيث نحب ويحبون ·

بيد أن طبيعة رسالتنا فى العالم العربى تختلف بعض الشىء عن طبيعة رسالتنا فى أفريقية · فنحن فى الميدان الثانى نجدد طريقا قديما ونفتح طرقا جديدة ، ونرمى الى تغيير اتجاه القارة الأفريقية ، لننجو بأهلها مما يدبر لهم ، ولكى نمهد هذه القارة لأبنائها ليعيشوا فى ربوعها فى سلام ، ولنطمئن نحن أيضا الى حدودنا فى كل ناحية · أما رسالتنا فى العالم العربى فسبيلها واضحة وأهدافها ظاهرة :

نحن نرجو أن يتحد ذلك العالم العربى ويكون جبهة حضارية سياسية واحدة لأن الصراع العالمى اليوم صـــراع جبهات وكتل لا صراع دول ووحدات ، وأى دولة تنفرد بنفسها أو تنحرف عن طريقها يصيبها العطب ، حتى أمريكا على ضخامتها وقوتها تحاول أن تتحد مع غيرها وتستعين به لتشد جبهتها فى ذلك النضال ، فما بالك بنا نحن ؟ ثم اننا ينبغى ألا ننسى أن سبيل القوة الوحيد لنا جميعا هو أن نتحد وأن نتآخى ، وأن نبدو للعالم كله جبهة لا تشوبها ثغرة · نعم · فاذا انفصلت دولة من دولنا ، وأغراها غيرنا بهذا الكسب أو ذاك ، أو خدع رجال السياسة فيها بنظريات فى الاستراتيجية والســياسة الدولية تقول اننا فى حاجة الى أن نتحد مع الدولة العلانية ، اذا جازت هذه الحيلة وانفصلت هذه الدولة ودخلت فى نطاق جديد ، فقد تخلت عن قواعدها الحقيقية وانحـرفت عن طريقهـا وتعرضت للأخطار ·

ولهذا فنحن نسعى الى الابقاء على هذا العالم العربى متحدا لخيره ولخيرنا ، كجزء من أجزائه ، وبديهى أننا لا نرجو بعد ذلك شيئا ، وحسبنا أن نضم الى صفوفنا اخوتنا العرب ونسير معهم فى طريق واحد كالبنيان المرصوص ٠

* * *

ولقد كانت حدودنا فى ناحية المشرق تنتهى عند حدود العالم العربى فى عصر الاحتلال ، ولكن هذه الحدود قد اتسعت وأخذت صورة أخرى فى عهد الاستقلال ٠ فقد دخلنا فى ميدان السياسة العالمية بمعناها الواسع ، وأصبحت جبهة كفاحنا هى الدنيا كلها ، ومن ثم فقد أصبح لزاما علينا أن نضم الينا الأصدقاء والأحلاف فى كل ناحية حتى نستطيع الثبات فى الميدان ٠

وقد وجدنا الميدان فسيحا أمامنا ناحية الشرق ، فهناك الأمم التى تشبهنا فى ظروف التاريخ ويجمعنا اليها كفاح الاستعمار ، وربما ربطتنا بها رابطة الدين ، ومن هنا فليس بعجيب أن نجد ذراع السياسة المصرية تمتد ناحية الشرق حتى تصل الى الفيلبين ، فتعقد الخناصر مع باكستان والهند واندونيسيا ، بل تمتد الى ما وراء ذلك فتسعى لتصافح جماعات المسلمين فى الصين ٠

ولكن علينا واجبا خاصا نحو البلاد الآسيوية الاسلامية ، مثل الباكستان وإيران وأفغانستان وأندونيسيا وماليزيا ، والتى يكون المسلمون نسبة عالية من سكانها مثل الهند وسيلان وبورما وتايلاند ولاوس والفيلبين ، فان رابطة الاسلام رابطة دم ونسب ، وما من مسلم فى الدنيا الا يحب مصر ويهفو قلبه اليها ٠ ولقد سئل سياسى أوربى مرة : كيف تقسم المعونات المالية التى تخصصونها لأفريقية ؟ فقال : بحسب نسبة انتشار المسيحية فى بلادها ٠

وهذه أيضا ينبغى أن تكون القاعدة التى يجب أن تقوم عليها سياستنا فى آسيا وأفريقية ، فكلما زاد انتشار الاسلام فى بلد من بلادهما كان ذلك البلد أقرب الينا وأولى بمودتنا وحبنا ٠ ولا يخدعنا قول من يقولون ان زمان الدين قد انتهى ، فان زمان الدين لن ينتهى أبدا ، ولازال هو العصب الأول الذى يربط الجماعات بعضها ببعض ولا يربط بلاد الغرب بعضها ببعض شىء مثل المسيحية ، فكيف ننخدع بمثل هذا ونتخلى عن قاعدة الاسلام ونحسب أن القول الفصل اليوم للعقل والعلم والمال فحسب ؟ ونحن لا ننكر هذه ولا نقلل من أهميتها ، ولكننا نقول : والدين أولا ٠

وليكن ردنا على من يريدون خداعنا أن عمر هذه الدنيا ليس عاما واحدا ، وأننا لم نولد بالأمس ، ولهذا لا نستطيع أن ننسى خمسة آلاف عام من تاريخنا ، لا نستطيع أن نستبدل بتجارب هذه الآلاف من السنين وميضا عابرا من ذكاء مفكر أجنبى ·

* * *

لقد أعطتنا مصر كل شىء ·

وليس فى الدنيـا وطن هو أكرم على أبنائه منها ·· فبينما لا يبقى فى قيد الحياة فى كثير من الأوطان الأخرى غير القوى المكافح الشـديد الاحتمال ، يعيش هنا فى مصر القوى والضـعيف ، والقادر والعاجز ، والصـحيح والمريض · ومصر الكريمة لم تبخل على أحد بشىء ، حتى أولئك الذين لا يستحقون نعمة الحياة يعيشون على أرضها الطيبة الرحيمة دون مجهود كبير ··

وبينما لا يتسع معظم البلاد الأخرى للأجانب يتسع قلب مصر الكبير لكل وارد عليها ونازل فى رحابها ، حتى وصفت مرة بأنها بلد الغريب ··

وعلى طول العصور الوسطى كانت مصر موئل كل باحث عن وطن ، ووجهة كل طالب علم ، وميدان كل طالب مال ، هنا اتسع المجال للناس أجمعين ، فنزلوا رحاب هذا الوطن واندرجوا فى غمار أهله وأصبحوا من يوم نزولهم به مواطنين فيه ·

هذا الكرم كله من مصر ، هذا العطاء كله من أم الدنيا ينبغى أن يقابله عرفان بالجميل ، وعرفان الجميل نحو الأوطان لا يكون بالكلام ولا باللسان ، وانما بالروح والدم والمال وكل عزيز ·

ولنقل بصراحة : ان مصر لم تنل من معظم بنيها جانبا مما لها عليهم من حقوق ··

كلنا نجرى وراء أرزاقنا ، وكلنا نحسـب أننا بهذا الجرى نقوم بالواجب وزيادة ··

كلنا يستهلكنا السـعى وراء اقتناء البيت والعقار ، وكلنا يهلكنا التطلع الى كمالات الحضارة من فاخر الأثاث وغالى الرياش والمختار من الطعام ·

كلنا نلهث وراء رزق أولادنا ونلبى مطالبهم قدر طـاقتنا ، وفوق طاقتنا ·

وكلنا نحسب أننا ـ بهذا ـ نقوم بالواجب ، كل الواجب ٠٠ ولكن مصر ٠٠

من يسهر على مصالحها ؟ من يبنى حاضرها ويرعى مستقبلها فى كل ما يعمل ؟ ٠٠

قليلون ٠٠

أتريد أن تعرف كم هم قليلون ؟

افتح موسوعة صغيرة كالموسوعة العربية الميسرة ٠٠

وخذ عشرين ورقة منها ، واحص من يمر بك ذكره فيها من أبناء انجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا والولايات المتحدة وروسيا ـ مثلا ـ ممن رفعوا شأن هذه البلاد وأعلوا مقامها بين الأمم من عالم ومفكر وقائد وسياسى ومخترع ومكتشف ، ثم احص من يمر بك ذكره من أمثالهم من المصريين ٠٠ عندما قمت أنا بهذه التجربة ترقرق الدمع فى عينى خجلا من مصر ٠٠

ما أكثر ما أعطيتنا وتعطينا أيتها الكريمة ٠٠

وما أقل ما نعطيك ٠٠

وما أكثر ما ننساك ٠٠

ما أشد بخلنا عليك ٠٠

ما أكرمك علينا ٠٠

وما أسخى يدك على كل محتاج ٠٠

ويا ويلنا يوم الحساب ٠٠

ونحن اليوم فى ساعة حساب ٠٠

***

ان مصر تمر اليوم وفى كل يوم بظرف عصيب لأن موقعنا الجغرافى مطمع الأمم جميعا ، ولعلى لا أكشف سرا عندما أقول ان الصهيونيين عندما استقر رأيهم على أن يقيموا دولتهم فى فلسطين كانت مصر هى مطمعهم ، فاذا لم ينزعوا منا أرضا حلوا مكاننا فى الموقع الجغرافى الذى لم ننتبه نحن الى أهميته الحقيقية الى الآن ، ان مصر تواجه عدوا خطرا شريرا يتوعدها بكل شر ، ولا يرده الا العنف والقوة ، فلابد لكل منا أن يوطن

نفسه على أن يكون جنديا فى المعركة وأن يضع كل ما يملك فداء لمصر ، بالعمل لا بالكلام ٠٠

ولا يحسبن واحد منا أنه يضحى بالكثير عندما يقدم حياته فى سبيل هذا الوطن الأكرم ، فما قيمة الحياة مع الذل ، وما معناها فى ظلال الخوف، وأى مستقبل نطلبه لأبنائنا اذا كان وطننا نفسه مهددا ؟ وماذا يجدى أن نوجه الجهد كله فى تكوين هذا الابن طبيبا والآخر مهندسا ، اذا كانا مهددين بعد الفراغ من الدراسة بألا يجد وطنا يزاولان فيه العمل الذى استعدا له ؟

ما هذا التهافت على المتاع وعدونا يتهافت على الموت ؟ ٠٠

وكيف نرجو النصر ونحن نتعلق بأهداب الحياة ، فى حين أن النصر لا يدركه الا من يطلب الموت ؟

كيف يستحل بعضنا أن يغش أو يخدع أو يسرق أو يرتشى ويحسب بعد ذلك أنه لازال مصريا يتشرف بهذا النسب الأكرم ؟

ان مصر بلد عظيم جدا ٠٠

أن غيرنا تملأ الحسرة والحسد نفسه وهو يتأمل ما خلفه أجدادنا من بدائع العلوم والفنون ، ولكى يكون المصرى جديرا بمصر لابد أن يهون كل شىء عنده فى سبيل مصر ٠

ولا نقول هذا الكلام استرسالا مع العاطفة أو شحذا للهمم وانما نقوله لأنه حقيقة ، بل هو الحقيقة الوحيدة التى يهمنا أن تستقر فى نفس المصرى ٠

وأنت تنظر الى بلاد قوية عزيزة قائدة غنية مثل انجلترا وفرنسا مثلا ، وتعجب بما ترى ، فأرجو أن تذكر أن هذه البلاد ما وصلت الى ما ترى الا بفضل من مات فى سبيلها من أبنائها ، وكل انجليزى أو فرنسى تراه انما هو بقية من عشرات ماتوا فى سبيل أوطانهم ٠

ومنذ عرف الناس انجلترا وهى فى حرب فى سبيل بقائها وسلامة اراضيها ٠ وحتى فى يومنا هذا ــ وهى ليست فى حرب ــ لا يمر يوم دون أن يقتل فى سبيلها رجال وشبان فى ايرلندا والشرق الأقصى وأفريقية ونواح أخرى من العالم ٠٠

وقد خسرت روسيا فى الحرب العالمية الثانية فوق العشرين مليون رجل ، ودماء هؤلاء وتضحياتهم هى التى وصلت بروسيا الى مانراه اليوم ٠

وأحب أن تذكر أن أكثر الناس تضحية بالحياة هم الذين لحياتهم قيمة ، فالشاب مثلا يغامر بحياته مع أن بساطها ممدود أمامه ، فى حين نجد العجوز المسن ضنينا بحياته على قلة مابقى له منها وندرة استمتاعه بها ٠

وأشـــد الناس حرصـــــا على الحياة هم الصـــعاليك والمتسولون ومن اليهم ممن حياتهم كعدمها ، وانك لتجد المتســـول لاصـــقا بالأرض يعيش فى التراب كأنه حشـــرة ، ومع ذلك فهو أشـــد الناس حرصـــا على حياته لا يغامر بها أبدا ، على حين تجد الطبيب الشاب يغامر بحياته فى سبيل الآخرين ، وتهون عليه نفسه لانقاذ المريض والمصاب مع أن أسباب الرخاء والمتاع بين يديه ٠

وكل الذين جاهدوا فى سبيل مصر وماتوا فى سبيلها كانوا من خيرة الشباب وأوسعهم آمالا ، وانك لتتبع شهداء ثورة سنة ١٩١٩ وشـــهداء معاركنا مع العدو الصهيونى شـــهداء حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ وشهداء معركة النصر والكرامة فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ ممن بذلوا حياتهم مقبلين غير مدبرين فتجد معظمهم من أبناء المياســـير وأولى النعمة والمجاهدين فى سبيل الارتقاء بحياتهم وحياة أوطانهم ، فى حين أن الذين يتطايرون نجاة بأنفسهم عند الطلقة الأولى هم غثاء الشوارع والمتسكعون فى الحوارى والأزقة ٠٠ هؤلاء لا يضحون بأنفسهم أبدا !!

فان كانت نفسك هينة عليك فى سبيل مصر ، فأعلم أنك مواطن له قدر ومكان ، أما اذا أحسست الخوف والحرص على حياتك اذ تهدد وطنك الخطر فأعلم أنك من الذين يوجدون كما توجد الأشياء ولكنهم لا يعيشون كما يعيش البشر ٠

وثورتنا الراهنة ، التى أيقظت العالم الثالث كله من سباته وبدأت عصر الحرية لشعبنا وشعوب العروبة وعصر اليقظة الأفريقية ، انما قام بها شباب فى عز الفتوة واقبال الحياة ٠

ومادمنا قائمين فوق أرضنا وصدورنا غرض للرصاص فى سبيل الاوطان ، ومادام الخوف لا يتسرب الى نفوســـنا فما عدونا ببالغ منا شيئا ..

لنذكر دائما أننا نذود عن أرض مصر ، وطننا وحصننا الذى لا وطن ولا حصن لنا سواه .

ولنذكر أننا مهما بذلنا فى سبيل مصر فما نحن بمضحين بشىء . والواحد منا عندما يهب حياته فى سبيل مصر فهو لا يفعل أكثر من أن يرد الى مصر بعض فضلها ..

بوركت أرضك يا مصر . وبورك نيلك ، وبورك هواؤك ..

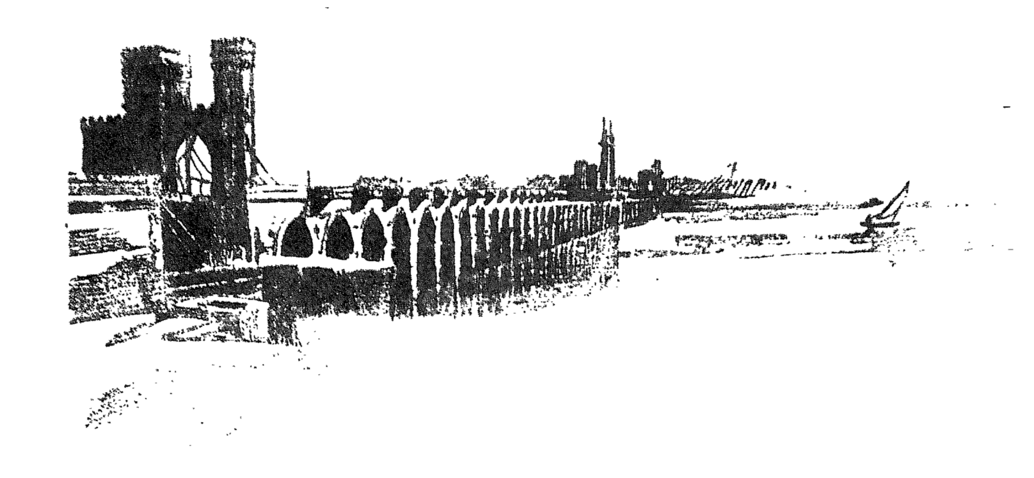
وطوبى لمن يبذل حياته فى سبيلك ..

وطوبى لمن تكتبين له الخلود فى سجل شهدائك ..

وقد كنا الى حين قريب نشكو من أن الأدب العربى لا يصل الى العالمية ، وكنا نلوم لغتنا فى ذلك ، فهاهى العالمية سعت الينا ونال مواطن مصرى هو نجيب محفوظ جائزة نوبل دون أن يسعى اليها ، ولكنه جد واجتهد وأخلص وعمل فى صدق واخلاص وعلم . أى عمل كما ينبغى أن يعمل كل مصرى يعرف قدر وطنه فوصل . وهذا هو الذى انصح به شبابنا الايمان والأخلاق والعلم والعمل والاخلاص ..



أبو الهول حارس الخلود والأهرام عجيبة الدنيا



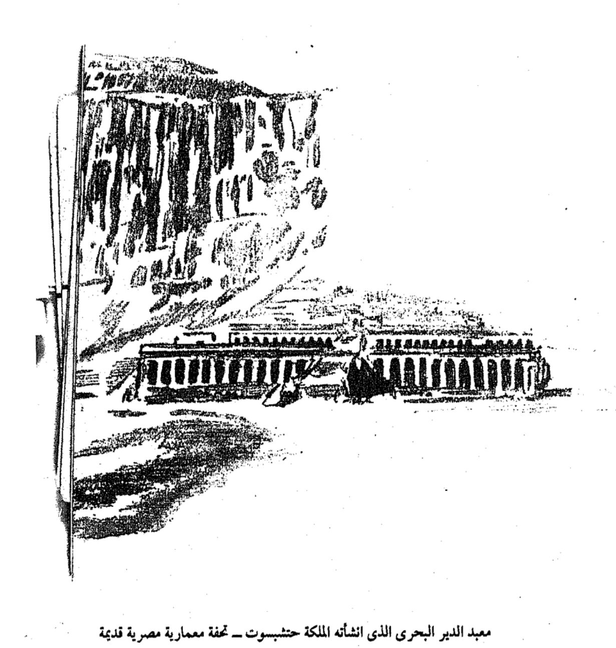
القناطر الخيرية . رمز على نهضة مصر الحضارية فى العصر الحديث



رأس الملكة نفرتيتى ، آية من آيات الفن العالمى



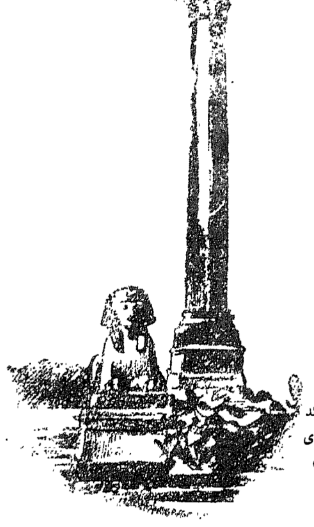
قائمة بأسماء ملوك مصر القديمة على جدران معبد ابيدوس



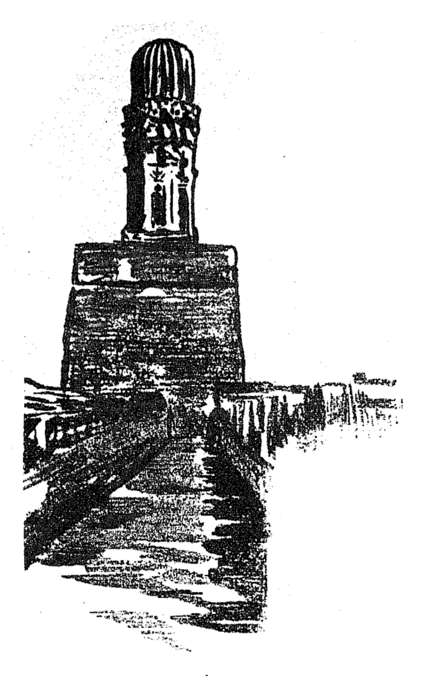
معبد الدير البحرى الذى انشأته الملكة حتشبسوت ـ تحفة معمارية مصرية قديمة



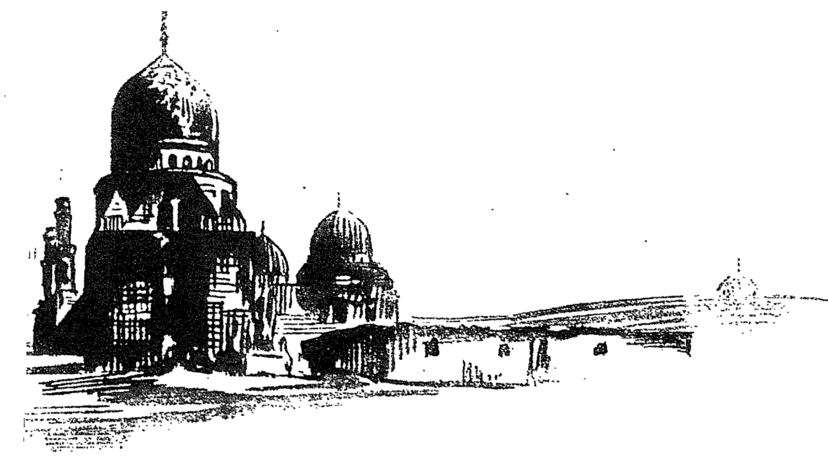
رأس الاسكندر الأكبر الذى خلص مصر من الفرس
وأنشأ الاسكندرية واكتسب بذلك الخلود



الاسكندرية ، عمود السوارى الذى ينسب إلى القائد
الرومانى بومبى ، وهو فى الواقع انشىء بتخليد ذكرى
الشهداء من الاقباط الذى قتلهم الامبراطور الرومانى
دقلديانوس



مئذنة جامع الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله . تحفة معمارية فريدة فى بابها



ضريح السلطان بارسيالى ، آخر الكبار من المماليك البرجية



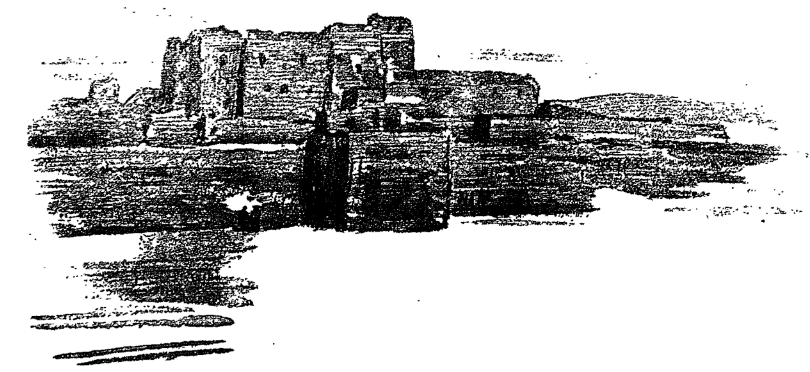
شارع النحاسين فى حى خان الخليلى



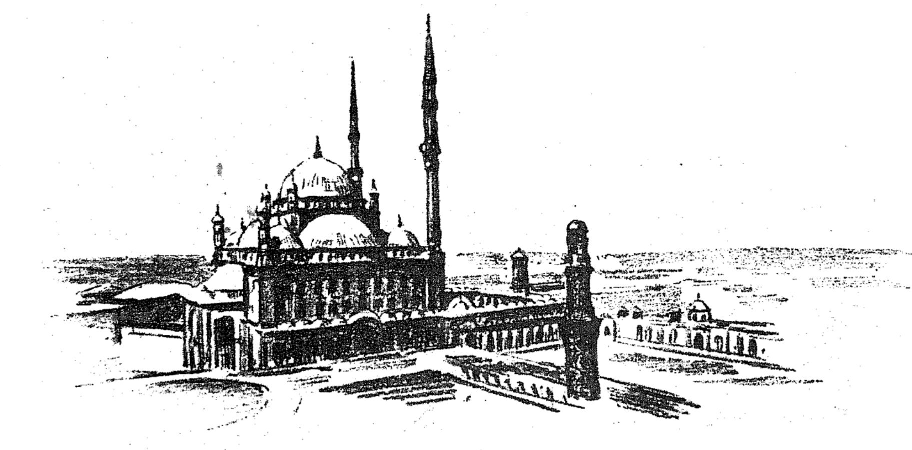
كنيسة المطرية شمال القاهرة . تمتاز بعمارتها الجميلة الرقيقة



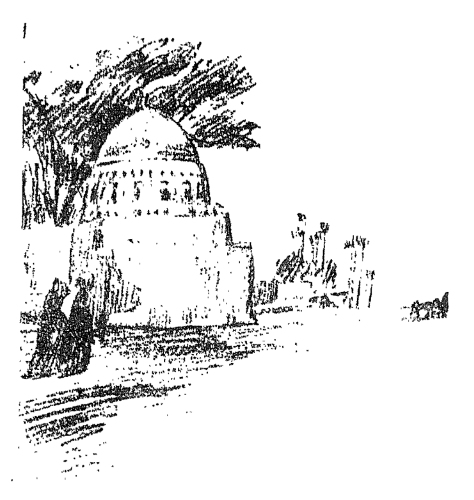
دير القديس انطونيوس واضع اساس الرهبنة فى التاريخ العالمى



دير القديس سمعان فى اسوان



جامع محمد على بأعلى القلعة ـ صورة عامة

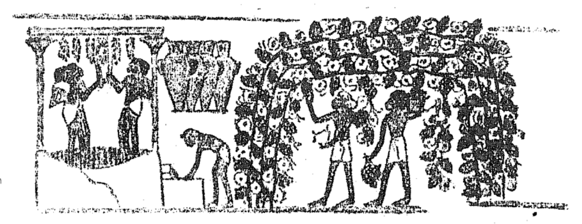


ضريح أحد الأولياء فى ريف مصر

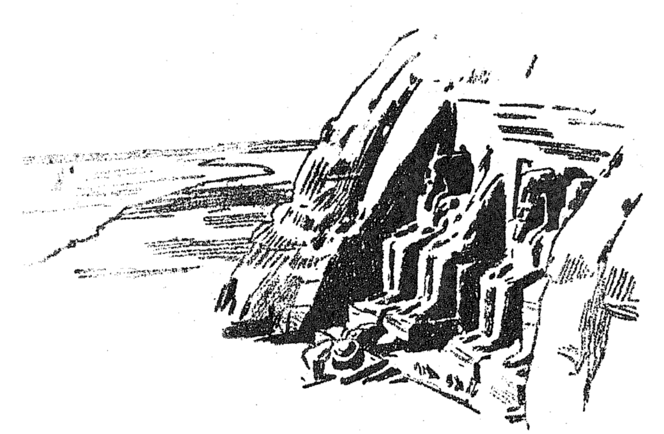
مبنى الجامع الأزهر على اليمين ومبنى ادارة الأزهر على اليسار



الفلاحون يجمعون القطن



زراعة الكروم فى مصر القديمة من رسم على جدران معبد طيبة

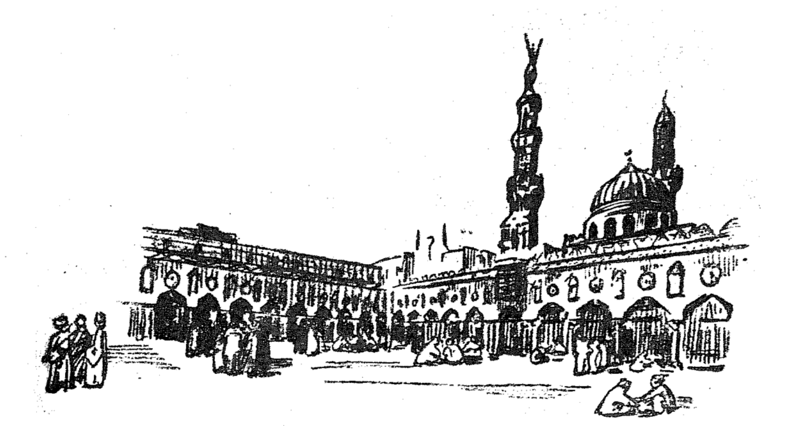


معبد ابى سمبل . تحفة معمارية انشأها رمسيس الثانى عند حدود مصر من الجنوب



معبد جزيرة فيلة ، بنى فى العصر الرومانى فى جنوب مصر ، ونقل
الآن إلى جزيرة اخرى لانقاذه من مياه السد العالى

كتاب مصر القديمة يكتبون ، نقلا من رسم على معبد مصرى
من عصر الاسرة الثالثة عشرة



صحن الجامع الأزهر

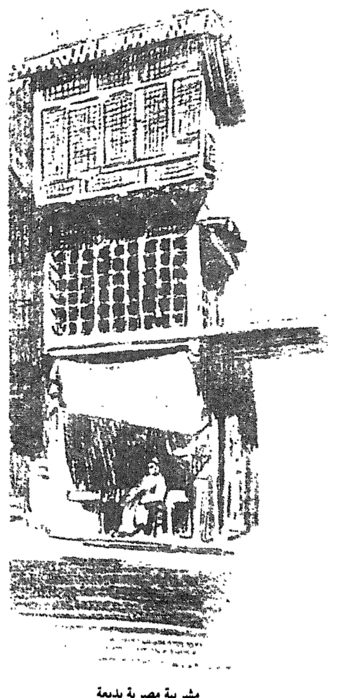
صبيان مصريان يدرسان فى المرحلة الاعدادية



اناء زجاجى مزخرف بالميناء صنع فى مصر الاسلامية فى القرن الرابع عشر الميلادى

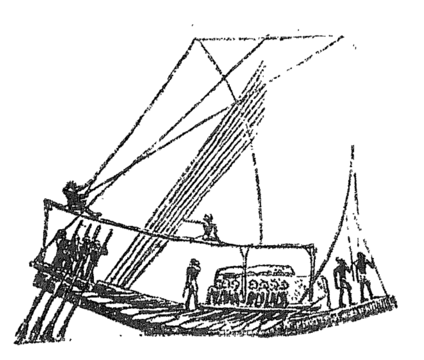


آمينة فخارية من عصر ما قبل التاريخ



مشربية مصرية بديعة

نساء من مصر القديمة فى طريقهن إلى السوق



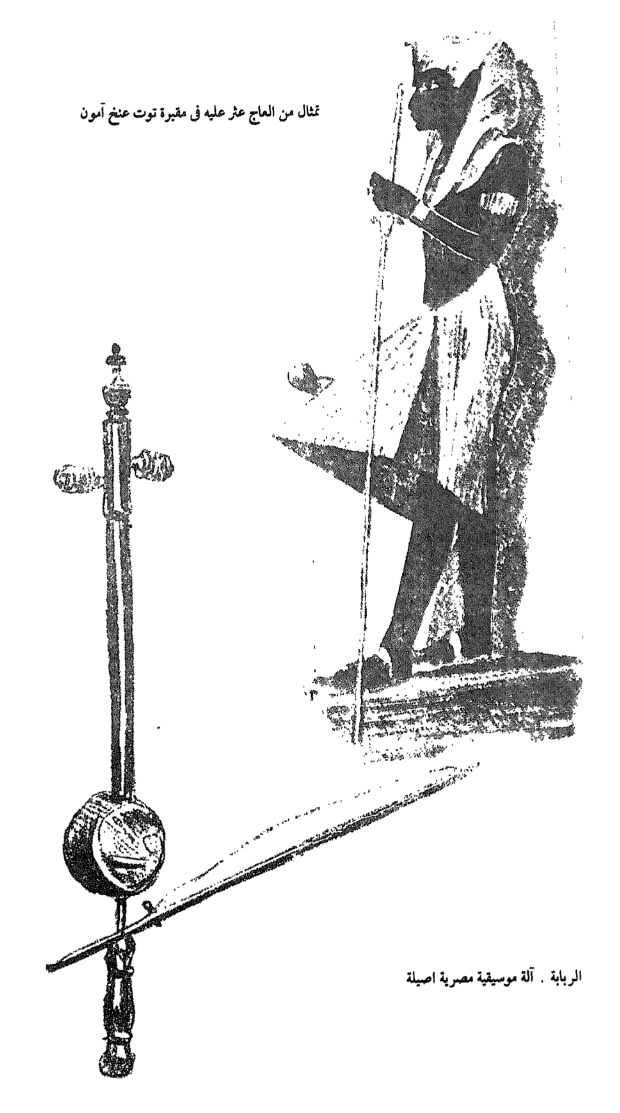
قارب من مصر القديمة ، عن رسم على جدران معبد سقارة



كاتب مصرى قديم (متحف الفن المصرى القديم فى القاهرة) .



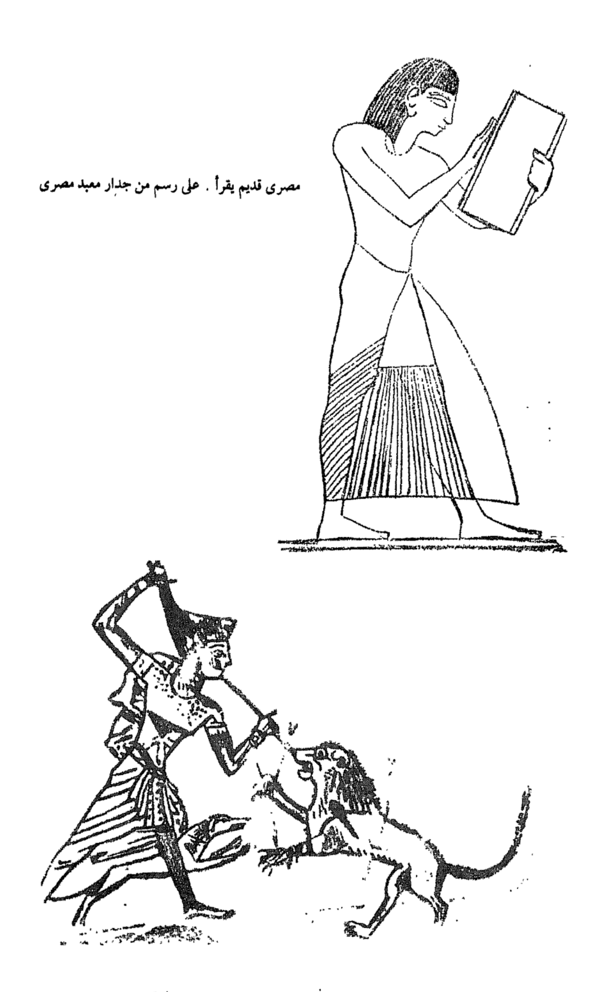
رأس الفرعون خفرع من الاسرة المصرية الرابعة ، منحوت من الجرانيت



تمثال من العاج عثر عليه فى مقبرة توت عنخ آمون

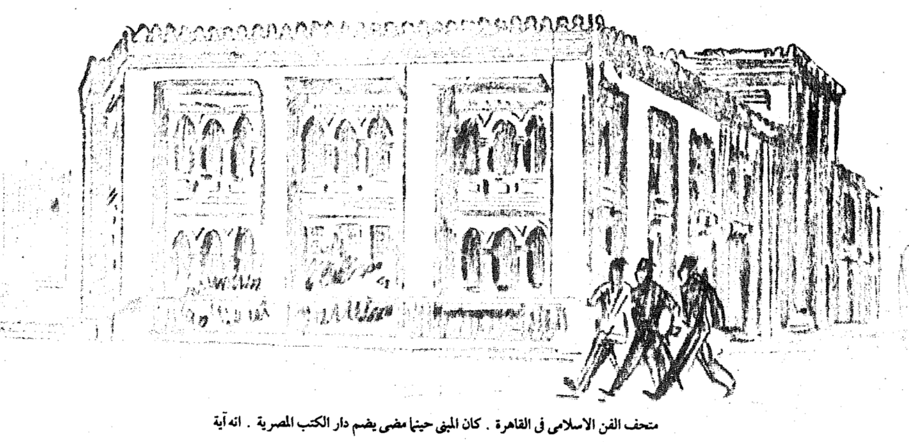
الربابة . آلة موسيقية مصرية اصيلة

معهد الموسيقى الشرقية فى القاهرة



مصرى قديم يقرأ . على رسم من جدار معبد مصرى

مصرى قديم يصطاد وحشاً . من رسم على جدران معبد طيبة



متحف الفن الاسلامى فى القاهرة . كان المبنى حينما مضى يضم دار الكتب المصرية . انه آية من آيات العمارة فى مصر المعاصرة



واحة فى صحراء مصر القديمة



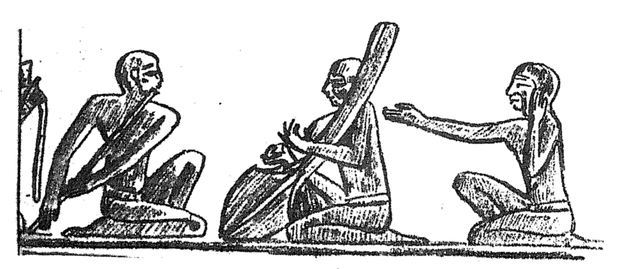
وادى الملوك فى الاقصر



رهبان فى كنيسة سانت كاترين فى سيناء



سيدات من مصر القديمة عن رسم على جدران معبد طيبة

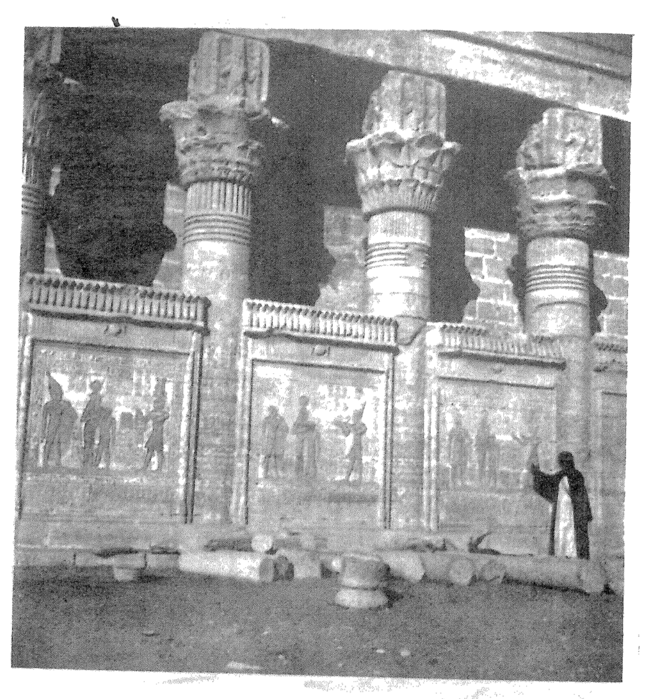


موسيقيون من مصر القديمة . عن رسم على جدران معبد طيبة

سيدات جميلات من مصر القديمة

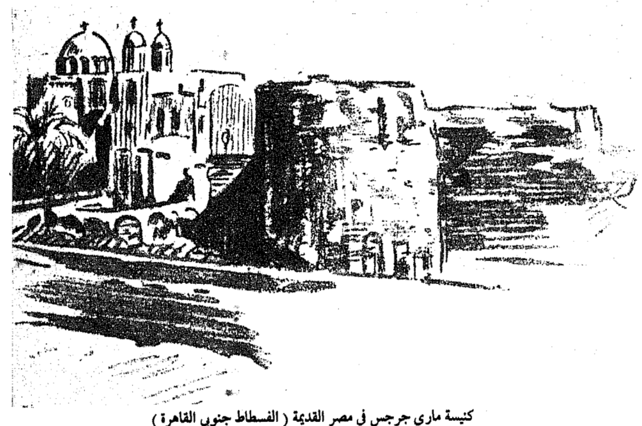

سيدة « بلدى » من مصر المعاصرة


موسيقية من مصر القديمة تغنى وتعزف

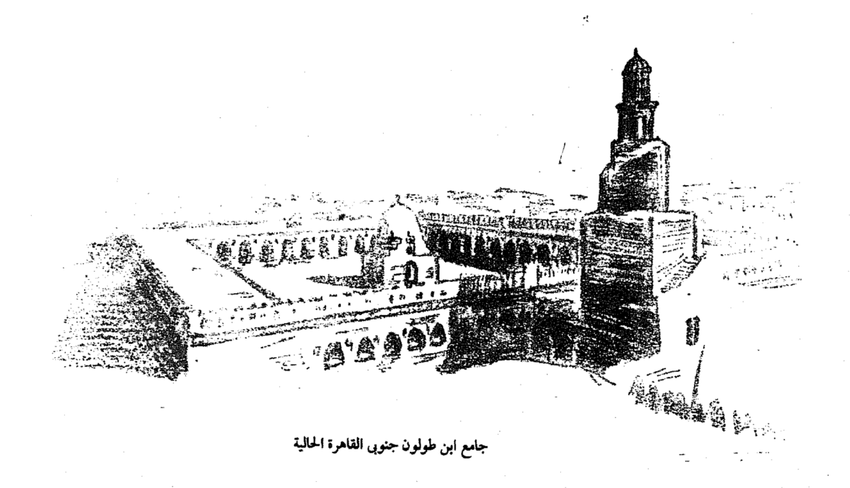


معبد دندرة

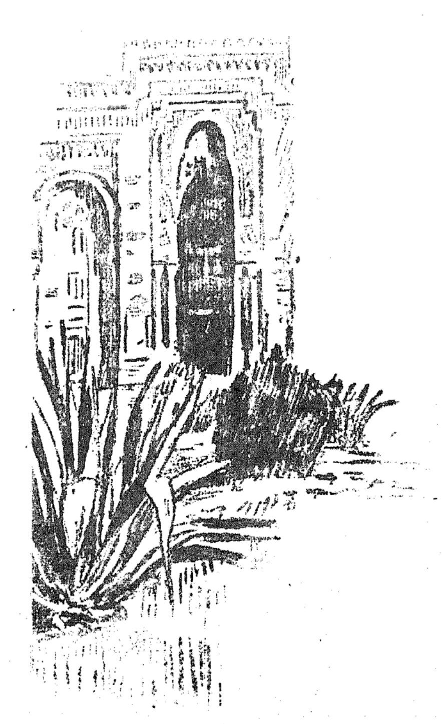
هرم ميدوم فى الفيوم



كنيسة مارى جرجس فى مصر القديمة (الفسطاط جنوبى القاهرة)



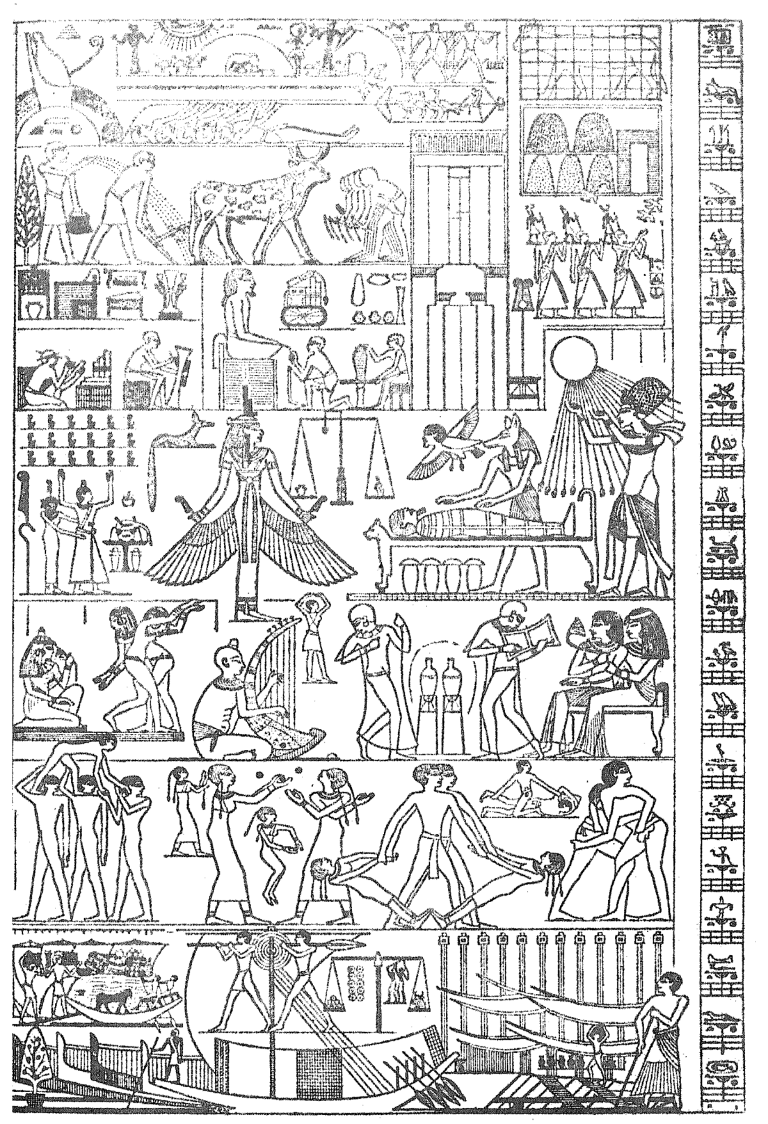
جامع ابن طولون جنوبى القاهرة الحالية



بوابة مسجد الرفاعى بالقاهرة . تحفة من تحف العمارة الاسلامية المعاصرة

رقم الايداع ٨٨/٨١٤٦

الترقيم الدولى ٦ ـ ٢٠١٤ ـ ٠١ ـ ٩٧٧





الحضارة هى ثمرة كل ما يعمله الإنسان لتحسين ظروف حياته على الأرض ، فهى ثمرة التاريخ وزهرته . وهذا الكتاب أجمل تصوير لتاريخ مصر فهو يصور الأسس التى مكنت لمصر من هذا المقام العظيم فى التاريخ . أنه اجمل ما تقرأ لتفهم ما هى مصر . وقد كتب ست مرات فهو احسن ما أمكن المؤلف تأليفه فى موضوع لم يكتب فيه إلا كتابين ثلاثة فاقرأه واقرئه اولادك فهو أحسن ما يفيد الذهن ويضعه فى طريق المستقبل أو معظم الجهد بذل فى اختصار الكتابة فيه لكى تسهل عليك قراته .

د . حسين مؤنس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٤٨٠ قرشـا